

سلسلة
وَلَكِنْ شَيْءٌ وَقَرَّ فِي قَلْبِهِ

9

لَا تَقْنِطُوا

الرَّجَاءُ

سلسلة «ولكن شيء وقر في قلبه»

لَا تَقْنَطُوا

الرجاء

الجزء التاسع

مدارج

إهداء

إلى من حمل في نفسه ذكرى زلة، ثم وجد كلمة رحيمة تعينه على الرجوع، فبقي أثرها معه حين غاب صاحبها.

وإلى من طال انتظاره، وكان إلى جانبه من يدعو له، ويصغي إليه، ويعينه على خطوة يستطيعها.

وإلى من تعلم أن يأخذ بيد غيره بعد أن احتاج يومًا إلى يد تأخذ بيده؛ فصار أرفق بضعفه، وأحرص على كرامته.

وإلى من عاد إلى خير انقطع عنه، يحمل خبرة الطريق، ويسأل ربه عونًا يكمل به ما بدأ.

إليكم هذه الصفحات، وما نرجوه فيها من علم يعين قلبًا أن يعود، ويدًا أن تؤدي حقًا، وعبداً أن يسأل ربه وهو يعرف حاجته. نسأل الله أن يرزقنا وإياكم رجاءً يفتح طريق الطاعة، وعملاً يتقبله بفضله.

تأليف وتوزيع مدارج

نسأل الله الإخلاص والقبول.

ولا تنسونا ووالدينا ومن أعان على هذا العمل من دعوة صادقة.

المحتويات

٨	مقدمة: باب العودة والعمل
١٢	الباب الأول: ما الرجاء؟
١٣	الفصل الأول: لا تقنطوا
١٩	الفصل الثاني: قلب يتطلع
٢٥	الفصل الثالث: الرجاء والتمني
٣٠	الفصل الرابع: الأسباب ليست خصم الرجاء
٣٥	الفصل الخامس: حسن الظن
٤٠	الفصل السادس: ما الذي نرجوه؟
٤٥	الفصل السابع: الرجاء والمحبة
٥١	الفصل الثامن: تعريف يتحرك
٥٦	الباب الثاني: باب الوحي المفتوح
٥٧	الفصل التاسع: أولئك يرجون رحمة الله
٦٢	الفصل العاشر: لا تيأسوا من روح الله
٦٧	الفصل الحادي عشر: أنا عند ظن عبدي
٧٢	الفصل الثاني عشر: مائة رحمة
٧٧	الفصل الثالث عشر: سبقت رحمتي غضبي
٨٢	الفصل الرابع عشر: لا يدخل الجنة بعمله
٨٧	الفصل الخامس عشر: خوفًا وطمئًا
٩٢	الفصل السادس عشر: عند الموت يحسن الظن

٩٧	الباب الثالث: الرجاء الصحيح
٩٨	الفصل السابع عشر: طاعة ورجاء
١٠٣	الفصل الثامن عشر: توبة ورجاء
١٠٨	الفصل التاسع عشر: المقصر الذي يرجع
١١٤	الفصل العشرون: العامل يخاف الرد
١١٩	الفصل الحادي والعشرون: بعد الذنب
١٢٤	الفصل الثاني والعشرون: السبب والتفويض
١٢٩	الفصل الثالث والعشرون: العمل قبل الثمرة
١٣٤	الفصل الرابع والعشرون: لا وعد خاص
١٣٩	الباب الرابع: بين الخوف والرجاء
١٤٠	الفصل الخامس والعشرون: جناحان
١٤٥	الفصل السادس والعشرون: نبئ عبادي
١٥٠	الفصل السابع والعشرون: لكل حال دواؤها
١٥٥	الفصل الثامن والعشرون: في الصحة
١٦٠	الفصل التاسع والعشرون: في المرض والاحتضار
١٦٥	الفصل الثلاثون: يؤتون ما آتوا
١٧٠	الفصل الحادي والثلاثون: خوف لا يقنط
١٧٥	الفصل الثاني والثلاثون: رجاء لا يجزئ
١٨٠	الباب الخامس: أوهام الرجاء
١٨١	الفصل الثالث والثلاثون: أمانى المفاليس
١٨٧	الفصل الرابع والثلاثون: حسن ظن كاذب

١٩٢	الفصل الخامس والثلاثون: سيغفر الله لي
١٩٧	الفصل السادس والثلاثون: سوف أتوب
٢٠٢	الفصل السابع والثلاثون: الرخاء ليس شهادة
٢٠٧	الفصل الثامن والثلاثون: اليأس بعد الذنب
٢١٢	الفصل التاسع والثلاثون: اليأس بعد الخسارة
٢١٧	الفصل الأربعون: رجاء المخلوق
٢٢٢	الباب السادس: كيف ينمو الرجاء؟
٢٢٣	الفصل الحادي والأربعون: معرفة الغفور الرحيم
٢٢٨	الفصل الثاني والأربعون: مطالعة النعم
٢٣٣	الفصل الثالث والأربعون: وعود القرآن
٢٣٨	الفصل الرابع والأربعون: الدعاء
٢٤٣	الفصل الخامس والأربعون: التوبة
٢٤٨	الفصل السادس والأربعون: العمل الصالح
٢٥٣	الفصل السابع والأربعون: صحبة الراجين العاملين
٢٥٨	الفصل الثامن والأربعون: ذاكرة الفرج
٢٦٣	الباب السابع: الرجاء في الحياة
٢٦٤	الفصل التاسع والأربعون: في الصلاة
٢٦٩	الفصل الخمسون: بعد السقوط
٢٧٤	الفصل الحادي والخمسون: في المرض والعلاج
٢٧٩	الفصل الثاني والخمسون: في الدين والعمل
٢٨٥	الفصل الثالث والخمسون: في البيت والأبناء

٢٩٠	الفصل الرابع والخمسون: مع تأخر الإجابة
٢٩٥	الفصل الخامس والخمسون: بعد الفشل
٣٠٠	الفصل السادس والخمسون: وقت الأزمات العامة
٣٠٥	الباب الثامن: أنواع ومراتب
٣٠٦	الفصل السابع والخمسون: رجاء الرحمة
٣١١	الفصل الثامن والخمسون: رجاء المغفرة
٣١٦	الفصل التاسع والخمسون: رجاء القبول
٣٢١	الفصل الستون: رجاء اللقاء
٣٢٦	الفصل الحادي والستون: رجاء الثبات
٣٣١	الفصل الثاني والستون: رجاء الدنيا المشروع
٣٣٦	الفصل الثالث والستون: رجاء الله لا مجرد العطية
٣٤١	الفصل الرابع والستون: بالله وحده
٣٤٦	الباب التاسع: ثمار الرجاء والثبات
٣٤٧	الفصل الخامس والستون: نشاط الطاعة
٣٥٢	الفصل السادس والستون: حسن الظن
٣٥٦	الفصل السابع والستون: الصبر
٣٦١	الفصل الثامن والستون: الشجاعة
٣٦٦	الفصل التاسع والستون: الرحمة بالناس
٣٧١	الفصل السبعون: حسن الخاتمة
٣٧٦	الفصل الحادي والسبعون: برنامج ثلاثين يومًا
٤١٢	الفصل الثاني والسبعون: لا تقنطوا مرة أخرى

٤١٧	خاتمة
٤١٨	فهرس الآيات
٤٢٠	فهرس الأحاديث
٤٢٦	فهرس أقوال العلماء
٤٢٩	فهرس القصص والتطبيقات
٤٣٠	فهرس الموضوعات
٤٣٧	المصادر والمراجع

مقدمة: باب العودة والعمل

قد تثقل على الإنسان حادثة، ثم يثقل عليه الحكم الذي يضيفه إليها أكثر. يقع في ذنب، فيرى كأنه لن يصلح بعده؛ أو يخيب سعيه، فيظن أن كل طريق بقي له سيؤدي إلى الخيبة نفسها. يصير ما وقع أمس وصفًا دائمًا لنفسه، ويستعمل ما يجهله من غده حجة على تأخير ما يستطيع اليوم. فيحتاج إلى علم يرد الحادثة إلى قدرها، وإلى رجاء يعينه على صدق العودة وحسن السعي.

وقد يحمل ذكر الرحمة إلى القلب راحة، ثم يجد العبد في يومه إصلاحًا يعرف وجوبه ويؤخره. يود أن يغفر الله له، وتحت يده أمانة يستطيع ردها؛ ويرجو أن يصلح حاله، وفي يومه سبب للتفريط يستطيع تغييره. حاجته هنا أن يصل ما يعرفه بما يفعله، وأن يتبين الفرق بين قلب يرجو الخير فيأخذ بطريقه، وقلب يسكن إلى أمنية تستبقيه حيث كان.

جاء عنوان هذا الكتاب من نداء كريم: ﴿لَا تَقْنُطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر: 53]. ويقرأ هذا النداء مع سياقه الداعي إلى الإنابة والإسلام. فالرحمة التي يرجوها العبد تفتح له بابًا إلى ربه، وتدعوه إلى أن يدخل من طريق التوبة والعمل. من علم

سعة المغفرة امتنع عن الحكم على نفسه بالحرمان منها، ومن علم ما عليه من حق بادر إليه بحسب ما يعلم ويقدر.¹

والرجاء عبادة يحتاجها المطيع والتائب والمبتلى. يسأل المطيع القبول، ويطلب التائب المغفرة، ويرجو المتعب عوناً يحمل به ما شق عليه. وقد تجتمع هذه الحاجات في قلب واحد؛ يؤدي عملاً فيرجو قبوله، ويذكر تقصيراً فيستغفر منه، ويواجه أمراً جديداً فيسأل فيه الهداية. معرفته بربه تمد هذه المطالب بما يعينه، وتبقى حاجته إلى الفضل قائمة في كل حال.

وهذا الجزء امتداد لما سبقه في سلسلة «ولكن شيء وقر في قلبه». بعد النظر في المحبة، نقف على الرجاء وصلته بها وبالخوف. فأعمال القلب تتعاون في عبادة واحدة، وإن أفردنا كل عمل بكتاب ليتبين معناه وما يعرض له. ويستعين الراجي بما تعلمه من الإخلاص والمراقبة واليقين والتوكل والتفكير والخشوع والورع؛ يعرف وجهته، ويصحح نظره، ويحفظ طريقه في حقوق الله وحقوق خلقه.

1 ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير سورة الزمر، الآية 53، في النص الإلكتروني للتفسير.

نبدأ بحقيقة الرجاء، ثم بأدلتها في الوحي، وبصور الرجاء الصحيح واجتماعه مع الخوف. ونتتبع الأمانى والتسويق وما قد يدخل على حسن الظن من التباس. ثم ننظر فيما ينميه من معرفة بالله ودعاء وتوبة وصحبة، وفي أثره في الصلاة والبيت والمرض والعمل والأزمات. وتأتي بعد ذلك مطلوباته وثمراته، حتى يصل القارئ إلى تدريب اختياري يعينه على مراجعة فعل يناسب حاله.

وتظهر ثمرة هذه المعرفة في أحوال الناس المختلفة. فالعمل الذي يدعو إليه الكتاب يتفاوت مع تفاوت القدرة. قد يكون أداء حق، أو ترك ظلم، أو تعلم حكم، أو طلب معونة على شأن يصعب حمله منفردًا. والمريض والعاجز يحتاجان إلى معرفة ما يلزمهما وما يسعهما؛ فلا يحملان على تقدير من اتسعت قدرته. والتفريط يحتاج إلى إصلاح، كما أن العذر يحتاج إلى فهم. وقد يبقى الحزن مع الرجاء، ويجد المتعب نفعًا في الدعاء والعمل قبل أن يزول عنه ألمه.

تؤسس المعاني هنا على القرآن والسنة، ويستعان بكلام أهل العلم في شرحها وتمييز حدودها. والمواقف اليومية أمثلة منشأة للتوضيح، ما لم يبين أنها أخبار منقولة مع مصادرها. أما الأدعية التي ينشئها الكتاب في خواتيمه فهي دعاء بما يناسب المعنى، ويتميز عنها النص النبوي المأثور بإحالتها.

وتعين الحواشي القارئ على الرجوع إلى الدليل ومعرفة لفظه ومصدره.

قد تقرأ معنى تعرفه، ثم يوقفك تطبيقه على موضع من حياتك غاب عنك. تمهل عند ما يتصل بحاجتك، واختر ما تستطيع إصلاحه. لا يلزم أن تحول كل صفحة إلى مهمة جديدة؛ بعض العلم يحسن حكمك، وبعضه يعينك على سؤال تحتاجه، وبعضه يفتح عملاً تأخر منك. وما يحتاج إلى حكم خاص تسأل عنه من يحسن بيانه.

نسأل الله أن يفتح بهذه الصفحات باب معرفة ورجوع، وأن يرزقنا رجاءً يعين على الطاعة، وصبراً مع تأخر المطلوب، وشكراً عند مجيء النعمة. وأن يجعل علمنا باعثاً على أداء الحقوق والرفق بالخلق، وأن يغفر تقصيرنا ويهدينا لما يحب ويرضى.

الباب الأول: ما الرجاء؟

يبدأ النظر في الرجاء من معرفة ما يقوم بالقلب، وما يبعثه على عمله. نتبين مطلوبه وسببه، ونعرف كيف يفتح الأمل طريقًا إلى الطاعة، وكيف تستبقي الأمانة صاحبها في موضعه.

الفصل الأول: لا تقنطوا

قد يثقل الذنب على العبد حتى يرى أيامه كلها من خلاله؛ يستقبل الصباح بذكره، ويودع المساء بلوم نفسه عليه. ثم يتجاوز الندم إلى حكم لا يملكه، فيقول: قد أفسدت ما بيني وبين ربي، فأَي خير بقي لي؟

وموضع الخلل هنا أنه عرف من نفسه الجناية، وغاب عنه ما أخبره الله به من سعة المغفرة. ولو جمع المعرفتتين، لكان علمه بذنبه باعثاً على التوبة، وعلمه بربه باعثاً على الرجاء؛ فيقوم من بينهما قلب منكسر، يعرف حاجته، ويطلب النجاة.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾. [الزمر:53].

تأمل هذا النداء؛ فإنه يتناول المسرفين أنفسهم. لم تُخَفْ جنائيتهم، ولم يُهَوَّن إسرافهم، ومع ذلك نُهوا عن القنوط. فليس عليك أن تغيّر اسم ذنبك، أو تصغّر شأنه، أو تعتذر عنه بذنوب الناس حتى تجد سبيلاً إلى الرجوع. أقرّ بما كان منك، واسمع دعوة ربك، وخذ في التوبة.

إن الذي يفتح لك الرجاء هو معرفتك بمن تستغفره. ولهذا ختم سبحانه الآية بقوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾. [الزمر:53].

فذكر المغفرة والرحمة في الموضع الذي قد تستولي فيه الجناية على نظر صاحبها، فلا يرى وراءها شيئاً.

وهنا يحتاج القلب إلى ميزان يحفظه من طرفين: أن يعظم الرحمة حتى يستهين بالمعصية، أو يعظم المعصية حتى يئأس من الرحمة. والتائب يعرف قبح ما فعل، ويرجو مغفرة من عصى؛ فلا يدافع عن ذنبه، ولا يجعل ذنبه حجة على ترك العودة.

رجاء يحمل صاحبه

وقد أتبع الله نداء الرحمة بقوله: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾. [الزمر:54].

ففي الأولى ما يبعث القلب، وفي الثانية ما يبين له طريقه. يسمع سعة المغفرة فيرجو، ويسمع الأمر بالإنابة فيرجع. وإذا اجتمع الوعد والأمر في فهمه، وجد لرجائه عملاً يصدقه، ولعمله رجاءً يعينه عليه.

وقد بين ابن كثير أن مغفرة الذنوب جميعاً في هذا الموضع لمن تاب.² فالآية تفتح للمذنب باب العودة، وسياقها يدعوه

2 ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير سورة الزمر، الآية 53، في النص الإلكتروني للتفسير.

إلى دخوله. وبَيَّن السعدي ما في الآيات التالية من رجوع القلب إلى الله، واستسلام العبد له، واتباع ما أنزل.³

فانظر أين يحملُك رجاؤُك: إن ذكرت المغفرة فهان عليك ترك المعصية، وقويت على إصلاح حق، وأقبلت على الاستغفار، فقد وجدت لهذا المعنى أثرًا في يومك. وإن اتخذت سعة الرحمة سببًا لتأخير الرجوع، فراجع فهمك للوعد؛ فإنك تقرُّ دعوة إلى الإنابة، ثم تستعملها في إطالة البعد.

ولا يلزم أن يزول عنك كل خوف حتى تبدأ. قد ترجع وقلبك وجل، وقد تستغفر وذكر الذنب يؤلمك. يكفيك أن تعرف وجه العمل، وتسال الله العون عليه؛ فالطمأنينة الكاملة ليست شرطًا لأداء واجب قد تبين لك.

إذا تكررت العثرة

وربما قال العبد: رجعت ثم ضعفت، وعزمت ثم أخلفت، فكيف أعود وقد عرفت من نفسي هذا التردد؟

تعود مفتقرًا إلى ربك، صادقًا في طلب العون، وتنظر فيما أعادك إلى العثرة. فإن ما علمته من ضعف نفسك يبين لك

3 السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تفسير سورة الزمر، الآيتين 54-55، في النص الإلكتروني للتفسير.

حاجتك إلى الاستعانة، ولا يخبرك أن باب التوبة قد أغلق دونك.

لكن صدق العودة يحتاج إلى عزم حاصر على الترك. فمن تاب ثم غلبته نفسه، احتاج إلى تجديد التوبة ومعالجة أسباب ضعفه. أما من استبقى قصد المعصية، ثم جعل الاستغفار وعدًا مؤجلًا، فعليه أن يصحح عزمه؛ فقد يكون الذي يؤخره أنه يريد راحة التائب مع إبقاء ما تاب منه.

وقد تجد وراء العثرة سببًا تركته على حاله: صحبة تستدرجك، أو بابًا اعتدت الدخول منه، أو جهلاً بحكم يلزمك. فليبلغ رجاؤك هذا الموضع أيضًا. ادع الله بالثبات، وغيّر ما تقدر على تغييره، وتعلم ما تحتاج إلى تعلمه. إن حاجتك إلى الله قائمة وأنت تأخذ بالسبب، كما هي قائمة حين يعجزك السبب.

حين يكون للذنوب صاحب حق

تصور رجلًا أساء إلى قريب له، ثم طال الخصام. كلما همّ بالاعتذار تذكر قسوته، فقال: لن يصلح ما أفسدت. وكلما اشتد عليه الندم تمّى أن يعود الود من غير أن يواجهه ما فعل. هذا يحتاج إلى رجاء يعينه على الصدق: يكف أذاه، ويقر بالإساءة، ويسعى إلى إصلاح الحق بالطريق المشروع. وقد لا

تعود العلاقة كما كانت، وقد يحتاج الآخر إلى وقت يطمئن فيه؛ فلا يجعل سرعة الصفح شرطًا لأداء ما عليه.

ومن ثمرات الرجاء أن تقوى على إصلاح خطئك، وإن لم تملك جميع نتائج الإصلاح. تؤدي حق غيرك، وتترك له حقه في الاختيار، وتسال الله أن يصلح القلوب.

ولا يقتضي ذلك أن تكشف كل ذنب ستره الله عليك. فإن اشتبه عليك طريق أداء حق، أو خشيت أن تزيد الأذى بفعل ترتجله، فاطلب البيان. صدق الرغبة في الإصلاح يحتاج إلى علم يرشده.

ما بقي من يومك

قد تشغلك منزلة لا تعلمها عن واجب تعلمه. تسأل: هل غفر الله لي؟ هل قبلت توبتي؟ ثم تؤخر كف أذى تعرفه، أو رد حق تقدر عليه.

احمل سؤال القبول إلى الدعاء والافتقار، واحمل معرفة الواجب إلى العمل. لا تشهد لنفسك بما غاب عنك، ولا تترك ما تبين لك حتى تعلم ما لم تؤمر بعلمه.

وإن بقيت ذكرى الذنب، فاجعلها تذكرك بحاجتك إلى الله، وتحذرك من أسباب العثرة، وتمنعك من احتقار مبتلى. أما أن

تستدعيها كل يوم لتقضي بها على ما بقي من عمرك، فإنك بذلك تزيد الألم ولا تزيد الإصلاح.

قد يشق الاعتذار، ويؤلم فراق صحبة، ويطول تعلم ما فات. هذه مشقة طريق تُطلب لها المعونة. فابدأ بما تقدر عليه، ولا تسم كل ما ثقل عليك أمرًا مستحيلًا.

ثم خلُ بنفسك واسألها: ما الذي يلزمني تركه اليوم؟ وأي حق أستطيع أدائه؟ وأي سبب للعثرات أقدر على قطعه؟

خذ خطوة صادقة، واستغفر ربك، واسأله الثبات. فإن ما مضى يعرفك بحاجتك، وما بقي يفتح لك موضع العمل. وحين تسمع: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر:53]، فاستقبل النداء بقلب يرجو، وعزم يرجع، وعمل يستجيب.

الفصل الثاني: قلب يتطلع

ينتظر اثنان جوابًا على طلب واحد. يعرفان الشروط، ويراجعان العلامات، ويقدران احتمال القبول. ثم يسأل أحدهما الله خير هذا الأمر وخير عاقبته، ويستعين به على ما بقي في يده. اتفقا في الانتظار، وزاد في قلب الثاني معنى يصل حاجته بربه. من هذا الموضع يبدأ النظر في الرجاء: ماذا نطلب، وبمن نتعلق، وإلى أي فعل يحملنا الطلب؟

التوقع تقدير لما قد يحدث بحسب الأسباب التي نعرفها. والرجاء في الله تعلق القلب بفضله وطلب الخير منه. قد تقوى علامات نجاح عمل فترجو تمامه، وقد تضيق الطرق الظاهرة ويبقى رجاؤك في قدرة الله ورحمته وحسن تدبيره. تعرف ما تقدر عليه وتسعى فيه، وتبقى العاقبة أوسع من علمك. فالتطلع إلى الفضل يجمع الدعاء والعمل، مع تفويض ما غاب عنك إلى من يعلمه. وبقاء الرجاء لا يخبرك أن مطلوبًا بعينه سيقع؛ علم الغيب لله، وواجبك أن تسأله وتسلك الطريق المشروع.

قال تعالى في وصف عباد صالحين: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء:57]. طلبوا القرب من الله، وتطلعوا إلى رحمته، وحذروا عذابه. وعند تفسير الآية يبين ابن كثير أثر الخوف في الكف عن المعصية، وأثر الرجاء في الانبعاث إلى الطاعة. تجد للمعرفة أثراً في حركة القلب والجوارح؛ يخشى فيكف، ويرجو فيقبل، ويسأل من عرف فضله.⁴

القلب الحزين يستطيع أن يرجو

قد يحمل الإنسان هذا الرجاء وعينه تدمع. تثقل عليه المصيبة، ويحتاج إلى وقت يستعيد فيه قدرته، ثم يسأل ربه ويتمسك بما يستطيع من الخير. سرعة الابتسام تخبرك عن شيء من حاله الظاهر، ويحتاج فهم رجائه إلى نظر أعمق: هل أغلق في اعتقاده باب فضل الله، أم بقي يطلب رحمته مع ألمه؟ احفظ للحزن حقه، وأعن صاحبه على ما يحتاجه؛ وسيأتي تفصيل الحزن الطويل في موضعه من الكتاب. والحاجة إلى الرجاء تستمر في أيام السعة أيضاً. العامل يرجو القبول، والمتعلم يرجو الفهم، والمستقيم يرجو الثبات. يبدأ

4 ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير سورة الإسراء، الآية 57، في النص الإلكتروني للتفسير.

عمله بطلب التوفيق، ويستعين أثناءه، ويسأل القبول بعده. بهذه الصلة يعرف المنعم عند النجاح، ويطلب العون عند التعثر. حصول مطلوب واحد يزيده شكرًا ومعرفة بحاجته، لأن صلاح ما حصل والثبات عليه يفتحان سؤالًا جديدًا. وفي مثال منشأ لتقريب المعنى، يستعد طالب لعمل نافع. يستطيع تحديد وقت للتعلم، وسؤال من يعرف، وتصحيح خلل في طريقته. أما قبول الناس وفتح الأبواب وصرف الموانع، فيتعلق بعضها بأمور تتجاوز قدرته. معرفته بهذا الحد تضع جهده في موضعه: سبب يبذله عبد مفتقر، ويسأل ربه أن ينفع به. وتختلف أحوال الناجحين والمتعثرين، فلا يكشف ظاهر النتيجة وحده عن حقيقة إيمانهم.

معرفة تطيب بها الطريق

عرّف ابن القيم الرجاء بقوله: «الرجاء حادٍ يحدو القلوب إلى الله والدار الآخرة، ويطيب لها السير». ينظر التعريف إلى الوجهة وإلى ما يحمل القلب عليها. قد ينتظر المرء لذة تشغله عن ربه، وقد يرجو المغفرة فترده إليه؛ تشابه التطلع، واختلف

المطلوب وما أثمره من عمل. من هنا تعرف الرجاء الذي يعمر العبودية: يرد حاجة صاحبه إلى الله، ويعينه على السير إليه.⁵ وتأمل قوله: «يطيب لها السير». يعرف الإنسان نفع عمل، ثم يحمله كعبء ثقیل لأن معناه غاب عنه. فإذا ذكر ما يرجوه عند الله، اتسعت رؤيته: آيات يفهمها، وخدمة والد يحتاجه، وكلمة مؤذية يكفها. تبدو الأعمال متفرقة في يومه، ويجمعها طلب مرضاة ربه. يطيب له حملها حين يعرف لمن يعمل، وإلى من يرجع بالعجز والتقصير وطلب القبول.

ولهذه الحياة في القلب معرفة تغذيها. يتعلم ما أخبر الله به عن نفسه، ويفهم وعده في النصوص، ويشهد افتقاره في عمله. الرحمة تبعث طلبه، والحكمة تهذب مطلوبه، والعدل يحفظه من الاغترار. وترده معرفة نفسه إلى الاستعانة كلما مالت إلى الاستغناء. تتعاون هذه المعارف؛ فينمو الرجاء مع البصيرة، ويجد الدعاء حاجات كان يخفيها إجمال الرغبة.

5 ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين في منازل السائرين، ج 2، تحقيق نبيل بن نصر السندي، دار عطاءات العلم ودار ابن حزم، ط 1441هـ/2019م، ص 259-265 و 267-271 و 280-284؛ التعريف والأنواع في ص 260. والاعتراض على قوة منزلة الرجاء من كلام الهروي الذي يناقشه ابن القيم، وليس خلاصة مذهب ابن القيم.

ويذكر ابن القيم من فوائد الرجاء زيادة المعرفة بأسماء الرب، وتجديد الافتقار والدعاء، والبعث على الشكر. تعرف ربك فترجوه، ويحملك رجاؤك على مزيد تعلم وسؤال وشكر. تلك صلة تتقوى أجزاؤها؛ يعطيها الشعور الصالح أثره، ويبقى أصلها معرفة وعبودية وفعلاً يوافق ما تعلمت.⁶

حين تعرف حاجتك

ربما قلت: أريد أن ينتهي هذا الضيق، ولم تعرف بعد أبواب حاجتك. ابدأ بسؤال الهدى والعافية، ثم انظر فيما يصلح حالك: توبة من فعل تعرفه، أو علم يرفع حيرة، أو معونة على أداء حق، أو رفقة تحمل معك عبئاً. تفصيل الحاجة يوضح دعاءك ويهدي سعيك، ويخرجك من انتظار مبهم إلى فعل يناسب موضع الألم.

6 ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين في منازل السائرين، ج 2، تحقيق نبيل بن نصار السندي، دار عطاءات العلم ودار ابن حزم، ط 1441هـ/2019م، ص 259-265 و 267-271 و 280-284؛ التعريف والأنواع في ص 260. والاعتراض على قوة منزلة الرجاء من كلام الهروي الذي يناقشه ابن القيم، وليس خلاصة مذهب ابن القيم.

وتستطيع معرفة الغاية مع بقاء الطريق مجهولاً. تعرف حاجتك إلى رزق يكفيك، وقد تجهل العمل الأصح لك. وتعرف نفع الصحبة، وقد تجهل من يهيئه الله لها. فليتسع رجاؤك عن وسيلة حسبتها أول الأمر الطريق الوحيد. وحين تتغير القدرة يتغير مقدار العمل، ويبقى الافتقار: ترجو الله في السعة وفي العجز، وتسأله صلاح العطاء وصلاح نفسك فيما منعك.

اللهم ارزقنا معرفة بك تفتح قلوبنا لرجائك، وبصيرة بحاجتنا تحملنا على سؤالك، وعملاً صالحاً نرجو به رضاك. واجعل تطلعنا إلى فضلك معيناً على ما أمرتنا، وشكرًا لما أوليتنا.

الفصل الثالث: الرجاء والتمني

للأمنية لذة تسبق العمل. يتخيل طالب العلم أنه فهم وأفاد، فيجد راحة الصورة، ثم يثقل عليه درس يحتاج إلى صبر. هنا يظهر السؤال الذي يكشف حقيقة طلبه: هل يحملني ما أتطلع إليه على الطريق، أم تكفيني صورته عن السير؟ قد تمنح النفس صاحبها بعض شعور الوصول، وهو ما يزال يؤجل البداية التي يعلم نفعها.

ومن بذر وسقى ثم انتظر الثمرة يختلف عن قادر ترك الأرض وقال: لعلها تنبت. يقرب هذا المثال صلة الطلب بالسبب؛ الزارع يبذل ما يستطيع، ويظل محتاجًا إلى فضل الله. وكذلك يرجو المذنب المغفرة فيتوب، ويرجو المتعلم الفهم فيتعلم، ويرجو المسيء إصلاحًا فيكف الأذى ويؤدي ما عليه. الرغبة الصادقة تجد في المقدور موضعًا للعمل، وتبقى الثمرة التي يسألها أوسع مما يملك.

والتمني لفظ يتسع لأحوال مختلفة. موضع الذم هنا رغبة يستعملها القادر بدلًا من العمل، أو طمع في مغفرة يصحبه تصميم على المعصية. أما محبة الخير وطلبه بصدق مع العجز عن بعض أسبابه، فيحتاج فهمها إلى حفظ قدر النية وحدود

الاستطاعة. هذا الفرق يمنع أن يصبح التحذير من الأمانى حكماً قاسياً على كل من قل عمله الظاهر.

النية التي حبسها العذر

قد يصدق المريض في إرادة طاعة ويحول مرضه دونها، ويبذل المحتاج ما يستطيع دون أن يبلغ مقدار الموسر. وفي خبر الرجوع من تبوك ذكر النبي ﷺ أقواماً بالمدينة شاركوا السائرين، وقال في بيان حالهم: «حبسهم العذر»؛ رواه البخاري (4423). يحفظ الخبر للنية الصادقة قدرها، ويذكرنا بما يغيب عن أعيننا حين ننظر إلى أعمال الناس.⁷

العذر المعتبر له واقعه، وقد يستطيع الإنسان دفع بعض ما يسميه عجزاً. والمراجعة النافعة تبدأ بما تعرفه عن نفسك: ما الذي أستطيعه فعلاً؟ وما الذي يمنعني؟ وهل أطلب عوناً يفتح طريق العمل، أم أبقى سبباً أقدر على تغييره؟ بهذا التفصيل تضع لكل عائق قدره، وتبقى البصيرة بحالك خادمة للعمل، دون أن تحملها إلى الحكم على قلوب غيرك.

7 البخاري، الصحيح، كتاب المغازي، حديث أنس بن مالك، رقم 4423.

قال النبي ﷺ: «من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه». للسؤال الصادق منزلة، وقد تبلغ نية صاحبه ما لم تبلغه صورة فعله. نقرأ الوعد في موضعه، ونطلب الله بما شرع؛ فصدق السؤال يستقيم مع حفظ حدود الشرع، ويختلف عن تمني الضرر أو التعدي أو طلب الموت بطريق محرم.⁸

وفي تمييز ابن القيم ثلاثة أحوال: طاعة يرجى ثوابها، وتوبة يرجى مغفرتها، وتمادي في الخطايا يرجى معه الفضل بلا رجوع. أثنى على الأولين وذم الثالث. يدخل التائب في الرجاء العامل من لحظة عودته؛ يكف عن ذنب، ويرجو مغفرة من عصى، ويبدأ الإصلاح بما ظهر له. وهذه معرفة تعين من أثقله ماضيه على عمل حاضر، بدل انتظار صورة كاملة لنفسه قبل الرجوع.⁹

8 مسلم، الصحيح، كتاب الإمارة، باب استحباب طلب الشهادة في سبيل الله تعالى، حديث سهل بن حنيف، رقم 1909.

9 ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين في منازل السائرين، ج 2، تحقيق نبيل بن نصار السندي، دار عطاءات العلم ودار ابن حزم، ط 1441هـ/2019م، ص 259-265 و 267-271 و 280-284؛ التعريف والأنواع في ص 260. والاعتراض على قوة منزلة الرجاء من كلام الهروي الذي يناقشه ابن القيم، وليس خلاصة مذهب ابن القيم.

قدرة تحتاج إلى تفصيل

في مثال من إنشاء المؤلف، يريد قارئ تعلم القرآن، ويشق عليه إيجاد وقت طويل متصل. قد يستطيع دقائق ثابتة وسؤال معلم عن موضع يشكل عليه؛ فتكون البداية على قدر حاله. وقد يمنعه مرض من القراءة، وتبقى له نية الخير والدعاء وما يقدر عليه من الاستماع. يختلف الفعل المقدور باختلاف الحال، وتفسد المراجعة حين نفرض مقداراً واحداً ثم نزن به الجميع.

وقدرة الإنسان نفسها تتفاوت بين أجزاء العمل. يعرف بعض الطريق ويحتاج إلى تعلم الباقي، ويستطيع بداية مهمة دون إتمامها الآن. فإن جمع العوائق تحت اسم عجز كامل، تعطلت خطوات في يده. وإن ألزم نفسه بمقدار ينهكها، عاد إلى لوم يضعف سعيه. فليتميز ما يمنعه المرض مما يحتاج إلى ترتيب، وما يؤخره التردد مما يحتاج إلى علم أو معونة. وطالب يعجز عن نفقة برنامج طويل قد يجد باباً آخر يناسب حاجته. إن وجده انتفع به، وإن انسدت الطرق المتاحة بقي ضيق رزقه عذراً عن تلك الصورة من التعلم. يساعده هذا النظر على استعمال الممكن، ويحفظه من تهمة يعلقها بنفسه أو يلقيها عليه مراقب يجهل تفاصيل حاله. صدق الطلب يحتاج إلى إنصاف كما يحتاج إلى جد.

ثم إن العمل قد يكون تركًا: إغلاق طريق إلى عادة مؤذية، أو إمساك اللسان عند الغضب، أو الكف عن أذى اعتاد صاحبه تبريره. هذه أفعال توافق حقًا عرفه العبد، ولو خلت منها قوائم الإنجاز الظاهرة. تتسع علامة الجد للفعل والترك، ولل سؤال الذي يكشف الحكم، ولل استعانة التي تفتح سببًا كان يعجز عنه وحده.

وتبقى بين الجهد والثمرة مسافة تحتاج إلى رجاء وصبر. قد تحسن العمل ويتأخر مطلوبك؛ فراجع مشروعية السبب وطريقته ومقدار قدرتك، دون أن تجعل تأخر النتيجة شهادة على فساد قلبك. القبول والأجور والمآلات إلى الله، نسأله فضله ونطلب ما ينفعنا بعلمنا المحدود.

حين تنزل رغبتك إلى صفحة تفهمها، أو سؤال تحرره، أو موعد تفي به، تعرف ما يحتاجه الطريق فعلًا. تبدأ بالمقدور، وتسأل العون فيما شق، وتحفظ للعدر الذي تعجز عن دفعه حقه. ويصير لما ترجوه أثر في يومك، وإن بقي من الثمرة ما تنتظره مفتقرًا إلى ربك.

الفصل الرابع: الأسباب ليست خصم الرجاء

اتصال تعرف وجوبه، أو خطأ تعرف موضعه، قد يبقى مؤجلاً وأنت تكرر سؤال التيسير. دعاؤك يفتح باب الاستعانة، والفعل الذي في يدك ينتظر أن تقوم به. يحتاج القلب هنا إلى معرفة تجمع رجاء الفضل وحمل المسؤولية؛ يطلب العون من ربه، ويسلك الطريق الذي عرف نفعه، ويقر بما يجهره حتى يجد من يبينه له.

قال رسول الله ﷺ: «أحرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز». تجمع هذه الجمل من حديث أبي هريرة في صحيح مسلم طلب النفع والاستعانة ومقاومة العجز الذي يمكن دفعه. احرص يبعث على العمل، والاستعانة تحفظ افتقار العامل، ومعرفة القدرة تعينه على بذلها. وفي تمام الحديث إرشاد إلى التسليم لما وقع بقدر الله بعد الحرص والاستعانة؛ فيراجع ما ينفعه، ويترك إعادة ماضٍ تزيد ألمه دون أن تصلح فعله.¹⁰

الطريق الذي يليق بالمطلوب

لكل حاجة سبب يناسبها. للتعلم سؤال ومراجعة وتدرج، ولإصلاح العلاقة إنصات واعتذار وأداء حق، ولطلب الرزق

10 مسلم، الصحيح، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله، حديث أبي هريرة، رقم 2664.

عمل وسعي ومشاورة. وقد يحسن المرء الدعاء ثم يؤجل خطوة يعلمها؛ فيتضح له موضع العمل حين يسمي حاجته ووسيلتها. القراءة توسع المعرفة، وتحتاج المهارة معها إلى تدريب؛ والعبارة اللطيفة تنفع العلاقة، ويبقى المال المستحق محتاجاً إلى أداء.

وما ترجوه من الله يُطلب بطريق مشروع. يستطيع الغش أن يدر ربحاً، وقد يجد القادر فرصة للتقدم بإضاعة حق غيره أو ادعاء معرفة يجهلها. صلاح الرغبة في النفع يحتاج إلى صلاح وسيلتها؛ واستقامة الطريق من حقيقة السعي الذي يرجو صاحبه التوفيق. فابدأ بمعرفة ما يحل لك، ثم انظر كيف تحسنه، كي تحمل معك حق غيرك أثناء طلب حقك.

في مثال منشأ للتقريب، تأخر موظف عن مهمة ثم قال: أرجو أن ييسر الله الأمر. أول ما يقدر عليه إبلاغ المسؤول بالحقيقة، وترتيب الأولويات، وطلب المعونة المناسبة. إخفاء التأخر يترك الآخرين ينتظرون على غير علم، وقد ينقل إليهم أثر خطأ يستطيع تخفيفه. رجاؤه يعينه على مشقة الصدق، وعلى فعل يحفظ الأمانة التي اتصلت بها مصالحهم.

وقد يبقى بعد ذلك قدر من العجز يحتاج إلى إنصاف. تعذر معلّم قريب قد يفتح البحث عن مادة موثوقة أو موعد للسؤال. وضيق القدرة عن أداء مال كامل يحتاج إلى معرفة

ما يلزم بحسب الحال، وإلى صدق البيان وبذل الواجب الذي تبين. تختلف أحكام الوقائع، ويبقى تعلم الحكم جزءاً من إصلاح الطريق؛ فلا تستبدل بهذا المثال جواباً لمسألة لم تعرف تفاصيلها.

زاد يعرف صاحبه حق الرحلة

روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون، ويقولون: نحن المتوكلون، فإذا قدموا مكة سألوا الناس، فأنزل الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾. [البقرة: 197]». يصل الخبر بين ترك الزاد وماله من سؤال الناس. بقيت الحاجة قائمة، وانتقل عبء تدبيرها إلى غير من ترك السبب.¹¹

وهنا تحمي المعرفة اسم التوكل من أن يصبح تزكية للتصرف. نراجع واقع ما فعلناه: هل تركنا سبباً مقدوراً ثم حملنا الآخرين تبعته؟ وهل حجت العبارة التي نحبها حاجة كان يمكن إعدادها؟ إعداد الزاد يحفظ للرحلة حقها، ويعين القلب على أن يحمل معها افتقاره إلى الله.

11 البخاري، الصحيح، كتاب الحج، باب قول الله تعالى: وتزودوا فإن خير الزاد التقوى، حديث ابن عباس، رقم 1523.

ويختلف هذا الترك عن حاجة نزلت بإنسان بعد سعيه، وعن معونة يطلبها في وقت مشروع. التعاون باب نفع، والعاجز له حاله، وموضع النظر في الخبر اتخاذ ترك المقدور منهجاً وتسميته توكلاً. احفظ هذه الحدود وأنت تنتفع بالدلالة، كي تعينك على تقويم نفسك دون قسوة على محتاج تجهل ما بذله.

سبب تعرف قدره

كل وسيلة تحتاج إلى ما يبين وجه نفعها. في العبادة نتبع ما شرع الله، وفي شؤون الخبرة نستفيد من المعرفة المناسبة والتجربة المنضبطة. وقد تجتمع عادة ونجاح في قصة مؤثرة، وتبقى صلة أحدهما بالآخر محتاجة إلى دليل. فالتتابع وحده لا يثبت أثراً خاصاً، ومعرفة السبب تحرس الرجاء من تعلق بوهم يشغل عن الوسيلة النافعة.

ثم يأتي ترتيب العمل. قد يزدحم واجب حاضر مع وجوه خير يمكن تأخيرها، وتميل النفس إلى ما تحب صورته. تطيل التخطيط لخدمة عامة وحق قريب ينتظر أداءه. سؤال الأولوية يعيد الجهد إلى موضعه: ماذا يلزمني الآن؟ وما الذي يحتمل التأخير؟ بهذا البيان يكون اختيار العمل وفاءً بالحاجة، وتقل فرصة استعماله مهرباً من مسؤولية ثقيلة.

وأحيانًا يكون حفظ الأمانة في إعلان حدودك. تسأل من يعينك على مهمة تجهلها، وتتعلم ما تحتاج إليه، وتبين ما تستطيع وما يعجزك. التحرر من صورة القادر دائمًا يفتح لك باب تعاون أصدق. تعرف قدرك، وتؤدي ما عليك، وتستعين بما أباح الله من تعليم الناس بعضهم بعضًا.

وللأسباب حدود تبقى بعد إحسانها؛ قد تتخلف النتيجة أو تأتي في صورة غير متوقعة. أنت تبذل سعي عبد مفتقر، وتسأل ربك النفع والعاقبة الصالحة. وحين تتبين الخطوة المناسبة لحاجتك، يجد الرجاء موضعه فيها: يحملك على أدائها، ويصحبك في مشقتها، ويبقي السؤال حيًا بعد تمامها.

الفصل الخامس: حسن الظن

يختار العبد طريقًا يرجو نفعه، ثم تتغير أموره على وجه لم يتوقعه. هل كانت ثقته معلقة بربه، أم بصحة تقديره؟ يفتح هذا السؤال بابًا لفهم حسن الظن: نعرف الله بما أخبر به عن نفسه، فنصدق خبره ونثق بوعدده ونرجو فضله، ونعلم أنه لا يظلم أحدًا. وتبقى خطتنا البشرية محتاجة إلى تعلم ومراجعة، مهما أحسنا ترتيبها.

وفي الحديث القدسي: «أنا عند ظن عبدي بي». سيأتي نصه وسياقه في باب الوحي، ونحتاج هنا إلى الأصل الذي يحفظ فهمه: معرفة الرب من وحيه أوسع من ظننا بعاقبة حادثة واحدة. قد يظهر خطأ الاختيار، وقد تبقى الحكمة التفصيلية خفية حتى آخر العمر. حسن الظن يستند إلى صدق الخبر وكمال العلم والرحمة، ويعين صاحبه على الاعتراف بما يجهله.¹²

وفي مثال توضيحي منشأ، تقدم رجل لعمل مباح، وأخذ بأسبابه، ثم فاته القبول. يستطيع أن يحزن وأن يسأل عن خلل يصلحه، ثم يعيد المحاولة أو يبحث عن طريق آخر. وعد

12 البخاري، الصحيح، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: «وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ»، حديث أبي هريرة، رقم 7405.

الله لم يكن تعيين هذه الوظيفة له؛ فتبقى ثقته بربه وهو يراجع عمله. وإذا جعل القبول وحده علامة الرضا، فقد حمل واقعة محدودة معنى تجاوز ما يعلم.

معرفة بربك وبنفسك

قد يشتد الرجاء مع اشتداد معرفة العبد بضعفه. موضع الثقة فضل الرب، وموضع المحاسبة تقصير النفس. يقول بصدق: أحتاج إلى العون، وربّي كريم أرجوه. وحين يتذكر ضعفًا في عمله، يحمله على الاستعانة والتصحيح. هذه الصلة تحفظه من استغناء يتكىء على صورة صالحة لنفسه، ومن يأس يجعل تقصيره حاكمًا على سعة الرحمة.

قرر ابن القيم في «الداء والدواء» أن الرجوع عن المعصية والإقبال على الطاعة من مواضع حسن الظن الصحيح، وحذر من اتخاذ الرحمة مستندًا للاغترار مع الإصرار. للمعرفة أثر في القرار: ترجو النجاة فتطلب أسبابها. وهذا الوعظ يعينك على محاسبة نفسك؛ أما سرائر الأفراد ومقدار ما تنالهم به المغفرة، فأمر إلى الله يتجاوز ما نراه من ظاهر أعمالهم.¹³

13 ابن قيم الجوزية، الداء والدواء، تحقيق محمد أجمل الإصلاحي، وتخرّيج زائد بن أحمد النشيري، دار عالم الفوائد، ط1، 1429هـ، ص 48-49؛ والعبرة المنقولة في ص 48.

وقد يطلب الإنسان من نفسه كمالاً يعجز عنه، ثم يستثقل الدعاء لأنه ما زال ناقصاً. صدق العبودية يقوم على معرفة الحاجة والعمل بمقتضاها: تقرر بتقصيرك، وتتوب وتتعلم وتستعين، وتسال القبول. تبدأ من الموضع الذي أنت فيه؛ فما تعرفه من خلل يفتح لك باب إصلاح، ويزيدك افتقاراً إلى من تطلب رحمته.

وجاء تعبير ابن القيم: «حسن الظن بالله هو حسن العمل نفسه». وفسره بأن حسن الظن بجزاء الله وقبوله يحمل على إحسان العمل، ثم فصل بين التائب المقبل والمصر المغتر. تقرأ الجملة مع بيانها فتظهر صلة المعرفة بالسلوك، ويبقى الحكم على القلوب في حد ما تملك علمه. انظر إلى العبارة التي تسوغ بها اختيارك: هل تقويك على الكف والرجوع، أم تستدعيها لتبقي ما عرفت خطأه؟¹⁴

ما يمر بالنفس وما تعتمد

للخاطر الذي يكرهه الإنسان حال تختلف عن اعتقاد يختاره ويعتمد عليه. قد تمر به وساوس ومخاوف وهو يدفعها؛ فيحتاج إلى ما يعينه على فهم حاله، وإلى رحمة تحفظه من

14 ابن قيم الجوزية، الداء والدواء، تحقيق محمد أجمل الإصلاحي، وتخرّيج زائد بن أحمد النشيري، دار عالم الفوائد، ط1، 1429هـ، ص 48-49؛ والعبارة المنقولة في ص 48.

اتهام كل اضطراب بأنه سوء ظن عقدي. الحديث هنا عن المعاني التي يرضاها القلب ويبني عليها موقفه من ربه. بهذا التفريق تبقى المحاسبة في مجالها، وتخف قسوة تحمل النفس ما لم تختره.

وحين تسأل الله، تجد لحسن الظن مقتضى معلوماً: تثق بسمعه وعلمه وكرمه فتدعوه، وبوعده للتائبين فترجع، وبأن الخير محفوظ عنده فتعمل وتسأل القبول. تتصل المعرفة بحاجتك الخاصة؛ ويصبح الرجاء معيناً على فعل تعرف وجهه، بدل عبارة عامة تمدّها النفس إلى كل اختيار تحبه. حين تبقى الحكمة خفية

قد يعرف المصاب بعد سنوات خيراً ترتب على ما أصابه، وقد تمضي حياته دون تفسير مفصل للحادثة. معرفته بعديل ربه وحكمته تبقى أوسع من هذا التفصيل. أما تعليق الطمأنينة بقصة دنيوية مفرحة نعهده بظهورها، فيجعل الثقة محتاجة إلى علم لا نملك ضمانه. يبقى له الدعاء والسعي وطلب العافية، ولألمه حق في الإنصات والمعونة.

وإذا سأل متألم عن سبب ما وقع، فتبين حاجته: قد يطلب جواباً، أو من يسمعه، أو من يحمل معه عبئاً. تستطيع تذكيره بما تعلم من عدل الله، ومعاونته على حق أو حاجة قائمة.

صدق البيان يصل إلى ما تعرفه ويقف عنده؛ فاختيار علة غيبية بغير دليل قد يزيد حيرته حين يعجز الواقع عن تصديقها.

وفوات مطلوب مباح نافع يبقى فواتًا يؤلم صاحبه؛ يحفظ صدقه في محبته وحد علمه بأسباب منعه. ثم يواصل طلب الخير، دون قصة تظلم من ارتبط به أو تزعم شره لتخفيف الألم. وعند العطاء يشكر وينتفع ويتعلم؛ فالنجاح يفتح مسؤوليات جديدة، ويحتاج إلى تصحيح وأداء حقوق.

راجع جملة تستعملها عن مستقبلك. إن جعلت رغبتك وعدًا معينًا، فردها إلى رجاء ودعاء. وإن جعلت ضعفك حكمًا دائمًا، فصف حالك بصدق وحدد موضع إصلاحها. ليبق حسن ظنك متصلًا بما تعرفه عن ربك، ومحاسبتك متصلة بما تقدر على تغييره من نفسك.

الفصل السادس: ما الذي نرجوه؟

نسأل تيسير العمل، وصلاح البيت، وشفاء المريض، وزوال الهم. تدخل حاجات اليوم إلى الدعاء لأنها تشغل القلب، ثم يفتح الوحي له مطلوباً أوسع: هداية ومغفرة وقبول وثبات وحسن عاقبة. يجمع الرجاء هذه الحاجات ويضع كلاً منها في قدرها؛ فنطلب خير حياتنا، ونتذكر ما يبقى بعد انتهائها، ونرجو صلاح ما نحصل عليه وصلاح أنفسنا فيه.

قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾. [البقرة: 201]. يبين السعدي أن حسنة الدنيا تشمل ما يحسن وقوعه للعبد من المصالح، وأن حسنة الآخرة تجمع السلامة والفوز. يضم الدعاء حاجات معاشك إلى خير أتم، فتسأل ما ينفعك هنا وما تنجو به هناك.¹⁵

وفي أصل هذا الطلب هداية القلب؛ فالطريق السهل يحتاج إلى وجهة صالحة. ثم تطلب مغفرة ما مضى، وصلاح ما بقي، وقبول العمل والثبات على الدين. تعرف تقلب نفسك وحاجتها إلى العون، وتلجأ إلى الغني الذي تسأله. وقد يهون عبء

15 السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تفسير سورة البقرة، الآية 201، في النص الإلكتروني للتفسير.

حاضر حين تعرف أن منه موضعًا للدعاء والعمل، وأن ما ترجوه يتجاوز مجرد انقضاء مشقته.

ونرجو رضا الله ولقائه. قال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾. [الكهف:110]. يصل ختام الآية الرجاء بصلاح العمل وإخلاص العبادة. يستحضر العبد لقاء ربه، فينظر فيما يقدمه وفي طريق أدائه: حق يحفظه، وقصد يصلحه، وطاعة يحسنها وهو سائل للقبول.¹⁶

محبوب تعرف قدره

تظهر أولوية الآخرة في اختيار قريب من يومك. تحب نجاح ولدك، وتحفظ الصدق أثناء معونته. وترجو رفعة مشروع نافع، فتؤدي حق العامل وتحفظ عدلك مع المنافس. قد تبطل هذه الحقوق بعض ما تريد، ويبقى أدائها من صلاح الطريق. بهذا يصبح مطلوب الآخرة معاشك حين تتزاحم الرغبات، ويعيد الواجب إلى الموضع الذي تعرف لزومه.

وتبقى المشاعر الطبيعية في قدرها: تفرح بمنفعة مباحة، وتتألم لفواتها، ثم تتعلم أن الخير أوسع منها. يظهر التعلق

16 السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تفسير سورة الكهف، الآية 110، في النص الإلكتروني للتفسير.

المفسد حين تحملك الرغبة على تضييع واجب أو ارتكاب محرم. انظر إلى المعنى الذي تعتمد عليه، وإلى القرار الذي تصنعه؛ فشدة المحبة وحدها تحتاج إلى هذا البيان قبل أن تحملها حكمًا على حالك كله.

وقد يكون المطلوب نافعًا في أصله، وتحتاج إلى طلب صلاح عاقبته. المال يعين على الطاعة وقد يشغل عنها، والمكانة تفتح نفعًا وقد تعرض صاحبها للفتنة، والفراغ يستعمل في الخير وقد يضيع. اسأل الله خير ما تطلب وحسن الانتفاع به. معرفتك بجهل المآلات توسع السؤال، وتزيد افتقارك إلى من يعلمها ويقدرها.

صلاح يجمع المتفرق

كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير، واجعل الموت راحة لي من كل شر». هذا دعاء مروى عن أبي هريرة في صحيح مسلم، يجمع صلاح الدين والدنيا والآخرة، ويوجه النظر إلى نفع الحياة والعاقبة.¹⁷

17 مسلم، الصحيح، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، حديث أبي هريرة، رقم 2720.

تأمل طلب الإصلاح. قد يتسع المال وتفسد طريقة كسبه، ويكثر العمل ويضيع به حق، ويزداد العلم ويحتاج معه القصد إلى عناية. عدد ما تملكه يخبرك عن جانب من حياتك، وسؤال الإصلاح يدخل إلى طريقة الكسب والاستعمال وأداء المسؤولية. فالنعمة التي رجوت حصولها تفتح بعد مجيئها سؤالاً عن خيرها وكيف تحفظ أمانتها.

وتقديم الدين يضبط المعاش، ويجمع حاجتك إلى الكفاية والاستقامة. الدنيا موضع عملك ومسؤولياتك؛ تأكل من حلال، وتقوم بحق أهلك، وتحفظ أمانتك، وتنفع بحسب استطاعتك. صلاح هذه الأحوال يدخل في الطلب، ويحتاج أن يصحبها حفظ أصل الدين. يفهم القلب بذلك كيف يجمع حاجاته في دعاء واحد، ثم يرتب الفعل حين تتزاحم.

وذكر المعاد يفتح ما وراء الوقت القريب. قد يعجل نفع وتؤدي عاقبته، وقد يشق أداء حق ويكون من الخير الباقي. تتغير بعض المفاضلات حين تستحضر الآخرة: تصدق ولو فاتك إعجاب، وترد حقاً ولو نقص مالك، وتكف عن انتصار للنفس طريقه ظلم. هذه مواضع يتصل فيها الرجاء بالمعاش، وتظهر فيها ثمرة الوجهة التي تسألها.

دعاء قريب وأوسع

إذا غلبت عليك حاجة، فابق صادقاً في سؤالها، واستعن بالدعاء الجامع لتذكر ما غاب. اسأل العافية وصلاح القلب فيها، والرزق وحسن استعماله، والتيسير وحسن العاقبة. تحتفظ بالقرب من حاجتك، ويتسع رجاؤك لوجوه خير تحتاجها معها. وقد تجد أن المطلوب الذي أغفلته يحفظ لك نفع ما كنت تلح في طلبه.

واقراً أعمالك في ضوء كلمة «أصلح»: عبادتك، وتدبير معاشك، واستعدادك لما بعد الموت. ربما كان الإصلاح إحسان عمل قائم، أو ترك زيادة أضرت بواجب، دون أن تضيف قائمة جديدة من المهام. التنظيم وسيلة تختار منها ما ينفع، والرجاء يعينك على ترتيب حياتك بما يلائم قدرتك وحقوق من حولك.

يسأل القلب أن تكون أيامه زيادة في الخير، ويستعمل ما بقي في توبة وطاعة ونفع. ويقرأ سؤال الراحة من الشر عند الموت مع النهي عن تمنيه للضر والاستعداد المشروع للقاء الله؛ فتجتمع النصوص في فهمه ويظل محسناً فيما يستطيع. اللهم أصلح لنا ما نطلب وما نختار، وارزقنا حسن الانتفاع بما أعطيت، وحسن العبودية فيما قضيت.

الفصل السابع: الرجاء والمحبة

إذا أحب العبد ربه، أحب أن يكون عمله مرضيًّا عنده، ورجا القبول والرضا والقرب. وقد يسمع عبارة تجعل طلب الثواب نقصًا، فيستحيي من دعاء علمه الوحي، أو يتوهم أن كمال المحبة يطفئ الرجاء. يحتاج هنا إلى العودة إلى وصف الله لعباده؛ فمنه يعرف ما يجتمع في القلب من المحبة والحاجة والخشية وطلب الفضل.

قال تعالى في وصف أنبيائه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾. [الأنبياء:90]. جمع لهم المسارعة والخشوع والرغبة والرغبة، وهم قدوة العابدين. ويشرح السعدي الرغبة بطلب ما عند الله، والرغبة بالخوف من عقابه. فالمعاني التي مدحهم الله بها تتعاون في العبادة، ويستضيء بها فهمنا لما يصلح القلب.¹⁸

18 السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تفسير سورة الأنبياء، الآية 90، في النص الإلكتروني للتفسير.

وناقش ابن القيم في منزلة الرجاء من «مدارج السالكين» قول صاحب «منازل السائرين» الذي يضعف هذه المنزلة. بيّن مراده وتعقبه، وقرر شرف الرجاء وضرورته للسائر؛ يحتاج العبد إلى مغفرة ذنبه وإصلاح عيبه وقبول عمله ودوام استقامته. تنمو معرفته بربه فيجد حاجته إلى هذه المطالب أشد حضوراً، ويسأل من أحبه أن يعينه على السير إليه.¹⁹

محبة تعرف فقر صاحبها

يرجو المحب الثبات لأنه يعرف حاجته إلى دوام الطاعة، والقبول لأنه يريد لعمله أن يكون مرضياً، واللقاء لأنه تعلق بربه. كل مطلب يفتح افتقاراً ودعاء؛ فالعبد يبقى محتاجاً كلما ازداد معرفة. أما صورة الكمال التي يتخيل بها أنه تجاوز السؤال، فتحجب عنه قدر نفسه وحاجتها المستمرة إلى من يعينها.

ويجتمع في رجائه طلب الجنة والنجاة من العذاب والرضا والقرب. هذه المطالب تتكامل في الوحي، ويتسع معناها بالمحبة. يبقى عليه أن ينقي قصده من المن والاستعلاء؛ فقد

19 ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين في منازل السائرين، ج 2، تحقيق نبيل بن نصار السندي، دار عطاءات العلم ودار ابن حزم، ط 2، 1441هـ/2019م، ص 259-265 و 267-271 و 280-284؛ التعريف والأنواع في ص 260. والاعتراض على قوة منزلة الرجاء من كلام الهروي الذي يناقشه ابن القيم، وليس خلاصة مذهب ابن القيم.

يتحدث عن طاعته كأنها دين له، أو يستند إلى كثرتها فيحاكم الناس ويطالب بالدنيا على شرطه. معرفة المنة لله ترده إلى سؤال الفضل، وتعينه على إحسان العمل الذي يرجو قبوله.

وفي مثال منشأ للتقريب، دعا رجل بإصلاح أمر ثم تأخر مطلوبه. بقيت في يده الصلاة وأداء الحقوق ومراجعة الأسباب، وبقي في قلبه ألم يسأل الله حمله والفرج منه. تظهر صلته بربه في هذه العبودية أثناء الانتظار. وإذا تحقق ما طلب، امتدت الحاجة إلى شكر النعمة واستعمالها في الخير؛ فيصعبه افتقاره في العطاء كما صعبه عند تأخره.

وطلب القبول يصحب المحبة قبل الفعل وبعده: يسأل المعونة على ما يحب الله، ثم يسأل قبول عمل يعرف نقصه. يحمل هذا السؤال إلى الدعاء والإحسان، ويحفظه من تتبع قهري للمشاعر يستدل به على القبول. قد يفرح بعمل صالح ويظل محتاجًا إلى تصحيح، وقد يرجو وهو وجل؛ فمراجعة ما علمه من العمل أقرب إليه من الشهادة لنفسه بحال غابت عنه.

طلب يستقيم مع التسليم

ومن الاعتراضات التي ناقشها ابن القيم أن الراجي يطلب مرادًا لنفسه، وقد يكون تقدير الله على غير ما يرجو؛ فكيف يجتمع الطلب والتسليم؟ قرر في الجواب أن الرجاء عبودية ودعاء وافتقار، وأن الله شرع لعباده أن يسألوه فضله. يتوجه العبد بالسؤال وهو معترف بحكم ربه؛ وتكون المنازعة حين يرفض ذلك الحكم أو يدعي التحكم فيه.²⁰

من يقول «يا رب اغفر لي واهدني» يسأل خيرًا أمر بطلبه. ومن يقول بلسان حاله «لن أعبد إلا إن أعطيتني مرادي» يعلق العبادة بشرط صنعه لنفسه. نرد المعنى الأخير إلى العبودية التي افتقدها، ونحفظ للأول صدق سؤاله. طلب الفضل المشروع يحتاج إلى دوام الفقر، وإلى عمل يستمر حين تتأخر المصلحة العاجلة التي كانت تشغل صاحبه.

20 ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين في منازل السائرين، ج 2، تحقيق نبيل بن نصار السندي، دار عطاءات العلم ودار ابن حزم، ط 1441هـ/2019م، ص 259-265 و 267-271 و 280-284؛ التعريف والأنواع في ص 260. والاعتراض على قوة منزلة الرجاء من كلام الهروي الذي يناقشه ابن القيم، وليس خلاصة مذهب ابن القيم.

وقد يضيق تصور الثواب فيصوره الإنسان منفصلاً عن الرضا والقرب، ثم يبني عليه أن طلبه يزاحم المحبة. يبين ابن القيم أن المحب يرجو لقاء محبوبه ورضاه وإقباله، وأن حياة قلبه تتصل بهذا الطلب. إذا فهمت مضمون الرجاء، رأيت كيف يجمع حاجتك إلى ما عند الله وحبك له، وكيف يدفعك هذا الجمع إلى الطاعة والوفاء.²¹

دليل تحفظ به المحبة قدرها

وفي طريقة ابن القيم فائدة عند النظر في عبارة مؤثرة: حفظ لصاحب القول فضله، وحرر مراده ما استطاع، ثم بيّن موضع اعتراضه. يستطيع القارئ أن يحب عالماً أو مربياً، ويجمع كلامه وسياقه، ويعرض المعنى على الدليل. يبقى له نفع الصواب، ويعرف موضع الخطأ دون أن يمحو به ما ثبت من فضل صاحبه.²²

21 ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين في منازل السائرين، ج 2، تحقيق نبيل بن نصار السندي، دار عطاءات العلم ودار ابن حزم، ط 1441هـ/2019م، ص 259-265 و 267-271 و 280-284؛ التعريف والأنواع في ص 260. والاعتراض على قوة منزلة الرجاء من كلام الهروي الذي يناقشه ابن القيم، وليس خلاصة مذهب ابن القيم.

22 ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين في منازل السائرين، ج 2، تحقيق نبيل بن نصار السندي، دار عطاءات العلم ودار ابن حزم، ط 1441هـ/2019م، ص 259-265 و 267-271 و 280-284؛ التعريف والأنواع في ص 260. والاعتراض على قوة منزلة الرجاء من كلام الهروي الذي يناقشه ابن القيم، وليس خلاصة مذهب ابن القيم.

وهذا الأدب يصلح النظر في النفس أيضًا. تسأل الله خير الآخرة بقلب يعرف فقره، وتظهر المحبة في وفائك حين تخف دوافع المصلحة القريبة: صلاة تؤديها، وصدق تحفظه، وأمانة ترعاها، ودعاء ترجع إليه. وقد يغيب عن دعائك مطلب محتاجه؛ مغفرة أو قبول أو ثبات. استحضاره يعيد إلى عمل يومك معنى أوسع، فيحمل التوبة والإحسان وترك الفتنة رجاء ما عند الله.

وحين تحضر في دعائك الجنة والنجاة والرضا والقبول، فأنت تسأل ما دل عليه الوحي وتفتقر إلى من ترجوه. تصل هذه الحاجة بمحبتك وخشيتك؛ وتجد المحبة في رجائك حياة، كما يجد الرجاء في محبتك وجهة يعمر بها القلب والطريق.

الفصل الثامن: تعريف يتحرك

تفهم معنى الرجاء، ثم تأتيك واقعة تثقل عليك فلا تعرف كيف تعمل به. قد بقي حق تؤخره، أو خطوة تعرف نفعها وتستثقل بدايتها. في هذا الموضع يحتاج التعريف إلى معرفة بحالك: ماذا ترجوه، ولماذا تطلبه، وما الذي تستطيع فعله؟ ينفعك المعنى حين يضيء قرارًا مخصوصًا، ويقربك من عمل أو سؤال يرفع ما التبس عليك.

وأربعة أسئلة تعين على ذلك: ما الخير الذي أرجوه؟ ولماذا أطلبه؟ وما السبب المشروع المقذور عليه؟ وكيف أحفظ العبودية إذا تغيرت النتيجة؟ يوضح الأول المطلوب، ويراجع الثاني الوجهة، ويفتح الثالث طريق السعي، ويحفظ الرابع الصلة بالله أثناء تغير الحياة. قد تكون الغاية نافعة، وتحتاج وسيلتها إلى إصلاح؛ وقد يظهر أن رغبة ظننتها حقًا تحتاج إلى تفاهم أو علم.

حين يصير المطلوب أوضح

في حالة تدريبية من إنشاء المؤلف، يريد أب قريبًا وثقة وتربية صالحة في علاقته بابنه. يراجع ما يطلبه: هل يعينه على فهم الابن ورعاية حقه، أم يقصد طاعة تريحه مع بقاء قسوة أو جفاء؟ قد يبدأ بوقت للإنصات، أو اعتذار عن أذى، أو

سؤال عن حاجة أهملها. يرجو نفع ذلك، ويعرف أن بناء الثقة يحتاج إلى زمن وفعل يصدق.

وللطرف الآخر إرادة وحقوق، فتحتاج المطالبة إلى معرفة ما يثبت منها. رغبة الأب في صورة واحدة لحياة ابنه تحتاج إلى هذا البيان، قبل أن يسمى كل مخالفة لها قلة بر. كل تطبيق في الكتاب يخدم واجبًا أو نفعًا مشروعًا ويحفظ حق المتعلقين به. هكذا يسبق السؤال عن عدل المطلوب السؤال عن سرعة الوصول إليه.

ثم تنظر إلى استطاعتك. عشر خطوات تتجاوز وقتك وقدرتك قد تعطل حتى البداية الممكنة. اختر مقدارًا تستطيع إتمامه أو تكراره، وعدله إذا ظهر مانع حقيقي، واستعن بما يناسبه. وقد مضى في الفصل الثالث الفرق بين العذر والتفريط؛ يفيدك هنا في حفظ حق المريض والعاجز، وفي تمييز ما تحتاجه من معونة عما تستطيع تركه من تهاون.

معنى صحيح يحتاج إلى استعمال صحيح

يحفظ القارئ أن الرجاء يصحبه العمل، ثم يقيس غيره بصحته وفراغه. ويعرف أن النتيجة تتجاوز قدرته، ثم يستعمل ذلك لإخفاء تقصير يستطيع إصلاحه. وقد يجعل تقديره الشخصي لحادثة جزءًا من وعد الله. تكشف هذه

الصور حاجتنا إلى معرفة النص ومعرفة الواقع معًا؛ فكل منهما يصحح موضع استعمال الآخر ويمنع تنزيلاً يظلم النفس أو الناس.

تفاصيل الحال جزء من الرحمة وتحري العدل. قد تحتاج إلى معرفة مانع مريض قبل نصحه، أو حكم حق قبل إعفاء صاحبه من أدائه. اسأل عما يؤثر في الجواب، واحفظ الخصوصية فيما يجاوز الحاجة. بهذا تتبين الخطوة المناسبة، وتعرف الكلام الذي يحتاج إلى بيان قبل أن تحمله حكمًا على الواقعة.

ولنقرب ذلك بمثال منشأ لشخص تأخر عليه حق مالي. يبدأ بتميز القلق الذي يجده من المال الذي استحقه غيره؛ الشعور يحتاج إلى رفق، والحق يحتاج إلى إجراء. ثم يتعلم طريقة الوفاء بحسب حاله، ويبذل ما يلزمه مما قدر عليه، ويبين عجزه بصدق. وبعد الاتفاق يعود إلى التنفيذ في موعد معلوم؛ فراحة الحديث الأولى تحتاج إلى أثر يصل إلى صاحب الحق. الرجاء يعينه هنا على سؤال الله العون، وعلى احتمال الخجل الذي كان يؤخره، وعلى العودة إلى باب التوبة والعمل. ويصحبه الصدق والأمانة والصبر وحسن التدبير. نعرف أثره في حمل القلب على الاستجابة، دون أن نجعل كل حركة اسمًا

آخر للرجاء. تتعاون أعمال القلب، ويتبين نفعها في مسؤولية أداها صاحبها أو شرع في إصلاحها.

ما تعرفه عن فعلك

عند المراجعة اسأل عن أمر يمكنك وصفه: تعلمت حكمًا، أو بدأت إصلاحًا، أو أديت حقًا. مقدار محبة الله لك وقبول عملك أوسع من ورقة متابعة. يكتمل فعل أحيانًا مع ضعف الشعور، ويشد الشعور ويبقى الفعل مؤجلًا. سجل ما علمته، واحمل سؤال القبول إلى الدعاء، كي تبقى الوسيلة خادمة لغرضها.

وإذا فاتت الخطوة، فاعرف سبب الفوات: هدف أكبر من القدرة، أو وقت غير مناسب، أو مشقة تحتاج إلى عون، أو تهاون تقدر على تركه. الجملة «أنا لا أصلح» تغلق هذا التفصيل، والجملة «كل شيء بخير» قد تستر خللاً معلومًا. وصف السبب يفتح تعديلاً محددًا، ويعطيك من نفسك معرفة أنفع من حكم عام يعاد كل مرة.

وقد يفيدك سجل صغير يذكر الفعل المقرر وما أُنجز وما نَعًا
 ظهر وخطوة تالية. أما أحكام مثل «رجائي ضعيف جدًا» أو
 «وصلت إلى اليقين»، فتجاوز ما تثبته هذه الورقة. وإذا
 استقرت العادة وزال غرض التسجيل، استطعت الاستغناء
 عنه؛ هو تنظيم اختياري تختار قدر نفعه، دون منزلة ورد
 شرعي أو مقياس للإيمان.

ومن الباب الأول احمل موقفًا واحدًا تعرف حقه وخطوته
 ووقت مراجعته. قد تكفيك معرفة تحفظها، وقد تنفعك
 كلمات تكتبها. يصحبك الرجاء إلى حياتك حين تعرف ما
 ستصلحه ولماذا تسأل الله العون عليه؛ فتظل المعرفة متصلة
 بعمل يناسب حالك.

الباب الثاني: باب الوحي المفتوح

للوحي في القلب أثر يتجاوز راحة العبارة إلى معرفة الرب
ومعرفة الطريق إليه. نجمع نصوص الرحمة والعمل والخوف،
ونقرأ كل نص بما يحفظ سياقه ودلالته.

الفصل التاسع: أولئك يرجون رحمة الله

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. [البقرة:218]. بعد إيمان وهجرة وجهاد يجيء الرجاء؛ بذل أصحاب هذه الأعمال ما بذلوا، وبقيت وجهتهم رحمة الله. يتعلم العامل من هذا الاجتماع كيف يحسن عمله، وكيف يبقى مفتقرًا إلى من وفقه إليه.

ويفسر الطبري رجاءهم بطمعهم في رحمة الله ودخول الجنة بفضله. هذا المعنى الظاهر موضع الاستدلال هنا، وأخبار سبب النزول التي ساقها تحتاج إلى بحث أسانيدها. تكفيها دلالة الآية وتفسيرها في فهم صلة العمل بالرجاء، دون نقل خبر لم يستكمل بحثه.²³

يحتاج القلب إلى المعنيين معًا: الرجاء يبعث إلى الطاعة، والطاعة تحتاج إلى الرحمة. المذكورون في الآية بذلوا، وظلوا راجين مع بذلهم. فإذا أخذت أثر العمل وأغفلت الافتقار، عرض لك العجب؛ وإذا ذكرت الفضل وأغفلت ما يلزمك، وجدت النفس في الكلام راحة تؤخر بها الفعل. اجتماع الداليتين يعينك على الطريق ويحفظ حاجتك فيه.

23 الطبري، جامع البيان، تفسير سورة البقرة، الآية 218، في النص الإلكتروني للتفسير.

بعد عمل طال زمنه

قد تكون لك سنوات تعليم أو خدمة، ثم تثقل عليك مراجعة خطأ حاضر. اعتدت أن تكون موضع اقتداء، فشق الاعتذار، أو وجدت في سابقتك جواباً تستدعيه حين ينصحك أحد. هنا يعيد رجاء الرحمة العمل إلى موضعه: نعمة تشكر الله عليها ومسؤولية تحسنها. يبقى الخير الماضي خيراً، والحق الحاضر يحتاج إلى أداء، والخطأ الذي ثبت يحتاج إلى إصلاح.

وللسابقة أثر نافع حين تزيدك معرفة بما احتجت إليه من توفيق حتى وقع العمل. تتذكر من علمك ومن أعانك، وما تيسر مما كان يعجزك وحدك؛ فيصير شكر ما مضى معيناً على حمل واجب اليوم. أما استعمالها لشراء صمت الناس عن تقصيرك، فينقلها عن هذا المقصد ويؤخر إصلاحاً ما زلت محتاجاً إليه.

ويقف المبتدئ في الجهة الأخرى أمام عمل السابقين فيستصغر البداية التي يملكها. ينتفع بقدوتهم حين تعينه على واجب يومه، دون أن يشترط لنفسه تاريخاً يماثل تاريخهم قبل أن يبدأ. يتعلم ما يحتاجه، ويحسن ما يستطيع، ويرجو ربه. تفاوت الأعمال يحفظ لكل إنسان حاله وقدرته، ويبقى سبباً للتعلم بدل أن يصير ذريعة إلى تعطيل المقدور.

خير تشكره وخلل تصلحه

في مثال تطبيقي منشأ، أتم شخص مشروعًا نافعًا، ووجد في ختامه نجاحًا ظاهرًا وتقصيرًا في بعض التفاصيل. يستطيع الاعتراف بالنفع، وشكر من أعانه، ومراجعة الخلل الذي عرفه، ثم سؤال الله القبول. هذه أمور لكل منها موضع؛ يصف ما تحقق بصدق، ويشهد فضل ربه، ويصلح ما بقي في يده من خطأ.

وقد يشق عليه جمعها لأن نفسه تميل إلى حكم واحد على التجربة كلها. إن استبشر أخفى النقص، وإن رأى نقصًا ألغى كل الخير. الرجاء يعينه على إنصاف أدق: يحفظ وقائع النفع، ويعرف قدر التقصير، ويستغفر ويسأل القبول للجميع. وحين يتعلق الخطأ بحق غيره، يصل أثر المراجعة إلى ذلك الحق، بدل أن يبقى حديثًا يريح صاحبه وحده.

بعد العمل أسئلة مختلفة تحتاج إلى أجوبة مختلفة. نجاح المشروع يمكن النظر فيه بمعايير ظاهرة. وجودة الفعل والقصد تحتاج إلى مراجعة ما يعرفه العامل منهما. ثم يرجو القبول الذي يتجاوز ما تحيط به حساباته. عدد المنتفعين يصف بعض الأثر، ويبقى العمل محتاجًا إلى حسن قصد وأداء حق ورحمة من الله. بهذا يعرف لكل جانب حده، وتستقيم إدارة المشروع مع عبودية صاحبه. وفي المثال المذكور، قد

يبلغ نفع المشروع عددًا كبيرًا، ثم يظهر أن شخصًا اعتمد على صاحبه لم تصله المعونة التي التزم بها. هذا حق يبحثه ويصلحه، ولو استبشر الناس بالنتيجة العامة.

ويصل تفسير الطبري الرجاء بالفضل والجنة؛ فيتسع أفق العامل عما يراه من نفع عاجل. قد يظهر له بعض أثر عمله، وقد يخفى عنه، وتبقى وجهته ما يرجوه عند الله. ثم يواصل ما عرف نفعه، ويسأل العلم فيما تغير من حاله. يشكره الناس فيحفظ للشكر قدره، وقد يغيب ثناؤهم فيبقى أصل المعنى الذي حمله على العمل.²⁴

رحمة يرجوها صاحب البذل

يقرأ القارئ قوله تعالى «يرجون رحمة الله» فيعرف أن حاجته تبقى بعد الطاعة. فرح بإتمام خير، وافتقار إلى قبول، واستعداد لواجب تالٍ؛ يجتمع ذلك في قلب يرجو. وقد ترى من نفسك عجبًا فتعود إلى معرفة المنعم، أو تقصيرًا فتطلب مغفرته، أو قوة على خير فتشكره وتستعين على دوامها.

24 الطبري، جامع البيان، تفسير سورة البقرة، الآية 218، في النص الإلكتروني للتفسير.

وحد الاستدلال هنا صلة الطاعة بالرجاء وبقاء الافتقار مع عظيم البذل. للوقائع وأحوال الأفراد أحكامها، ولما ورد من الجهاد ضوابطه؛ فلا نحول الآية إلى قائمة نحكم بها على مقامات الناس، أو ننقل تفاصيلها إلى أفعال معاصرة بمجرد التشابه في الاسم. ينفعك معناها فيما تبذله، ويحفظ لك حد العلم بما وراء الظاهر.

إذا انتهى عملك، بقي ما يستحق أن تحمله معك: خير تشكر التوفيق إليه، ونقص بان لك فتصلحه، وقبول تسأله مفتقرًا. اللهم اجعل ما وفقتنا إليه سببًا لمزيد من الحاجة إليك، واحفظنا من عجب يحجبنا عن فضلك، وأعنا على إحسان ما بقي.

الفصل العاشر: لا تيأسوا من روح الله

حين يطول انتظار محبوب، قد تصير الاحتمالات في النفس كأنها أخبار ثابتة: تأخر، إذن انتهى؛ وألم، إذن انقطع الخير. يحتاج القلب إلى ما يعيد للواقع حدوده، وللرجاء موضعه، وللسعي باباً يبحث عنه. في قصة يعقوب عليه السلام حزن صرح به، وتوجه إلى الله، وأمر للأبناء بفعل؛ ففتتسع بها معرفتنا بالصابر الذي يتألم ويسعى.

قال يعقوب لبنيه: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَاسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيَاسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾. [يوسف: 87]. جمع أمر السعي والنهي عن اليأس، مع حضور الألم في القصة. ويفسر الطبري التحسس بالتماس الخبر والتعرف إليه، وروح الله بفرجه ورحمته؛ فالمعنى هنا يقرأ في سياقه، ويختلف عن إطلاق الروح على النفس.²⁵

تحتاج هذه المعرفة إلى حفظ خصوصية الخبر. عودة يوسف إلى أبيه واقعة ثابتة؛ ننتفع بهديها في الرجاء وبذل السبب،

25 الطبري، جامع البيان، تفسير سورة يوسف، الآية 87؛ والسعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تفسير السورة نفسها، الآيتين 86-87، في النصين الإلكترونيين للتفسير.

ونقف عند حد ما أخبر به القرآن. القصة لم تعط كل فاقد وعدًا بعودة عين ما فقدته في الدنيا، وتبقى خصوصية الأنبياء وما آتاهم الله من علم ووحى محفوظة عند الاقتداء بهم. حزن يتوجه به صاحبه

سبق الأمر بالتحسس قوله تعالى على لسان يعقوب: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. [يوسف:86]. ثم جاء الأمر بالبحث. حفظ المشهد الحزن المصرح به والتوجه إلى الله والسعي؛ فمن قرأه بتمامه عرف كيف يصحب الرجاء ألمًا شديدًا، وكيف يبقى لفعل مقدور موضع أثناء الانتظار.²⁶

ويعقوب نبي أخبر عما يعلمه من الله، وفسر السعدي ذلك بأنه سيردهم عليه ويقر عينه بالاجتماع بهم. نحفظ دلالة النص وبيانه، ونستفيد من الشكوى والرجاء والسعي دون دعوى علم خاص لأنفسنا يماثله. الوقوف عند هذه الحدود يصون صدق المواساة؛ يعيننا الخبر على عبودية حاضرة، وتبقى المآلات الفردية إلى علم الله.

26 الطبري، جامع البيان، تفسير سورة يوسف، الآية 87؛ والسعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تفسير السورة نفسها، الآيتين 86-87، في النصين الإلكترونيين للتفسير.

قد يطول غياب عزيز، ويحتاج من ينتظره إلى من يسمعه ويحمل معه عبئًا. تستطيع تذكيره بسعة الرحمة، ومعاونته على سبب مشروع، والحضور معه بصدق. يجهل الناصح موعد الفرج وصورته، فيحفظ هذا الجهل بدل أن يملأه بوعده يريح السامع حينًا ثم يزيد حيرته. رفق المواساة يصل إلى حاجة المتألم التي تستطيع معونته فيها.

ومن هذا الرفق حفظ مقصود الكلام عند الألم. خاتمة الآية تبين خطورة قطع الرجاء من الله، وتعليم المعنى يحتاج إلى بيان مراد الشخص وحاله قبل أحكام الأفراد. قد يقول عبارة حزن ويحتاج إلى سؤال يوضح ما يقصد. نعلمه ونحذره من القنوط، ونحفظ للمواساة مقصدها، دون أن نحول لحظة وجع إلى اتهام لإيمانه.

خبر تبحث عنه وخطوة تتعلمها

التحسس طلب معرفة قد تخالف التصور الذي أحاط بالنفس. افصل ما وقع عما تخشاه، واسأل من يملك جوابًا، وتحرّر الوسيلة المناسبة. قد تفتح المعلومة بابًا نافعًا، أو تؤكد صعوبة الحال، أو تبين حاجة إلى تغيير الخطة. وفي كل ذلك معرفة تستطيع البناء عليها، وتختلف عن دوران داخل ظنون صنعها طول الانتظار.

وفي مثال تطبيقي منشأ، تعثر طالب في طريق تعلم سنوات، فظن أن عمره انتهى عنده. يستطيع السؤال عما بقي من فرص، ومراجعة اختياره وقدرته، وطلب توجيه ممن يعرف المجال. ربما نفعه الاستمرار بعد إصلاح، وربما بان طريق آخر أصح. رجاؤه بالله يتسع عن خطته الأولى، فيعيّنه على قرار يتعلم وجهه بدل الدفاع عن وسيلة ظهر خللها.

وقد يكون السؤال نفسه بداية السعي حين تجهل الفعل التالي. يتعلم الإنسان ما يحتاجه، ويبدل بحسب قدرته، وتتضح له أسباب لم يكن يعرفها. الخطوة الصغيرة تحمل معرفة أو تحفظ حقًا، دون اشتراط نتيجة كبيرة كي يعتد بنفعها. ومع ذلك تبقى الحقوق التي عليه في موضعها، ويحتاج ما غمض منها إلى بيان يرشده.

مساحة للحزن وموضع للعمل

قد يبقى الألم زمناً طويلاً، وتبقى معه صلة القلب بربه. صورة الطمأنينة التي يريد الآخرون رؤيتها قد تتجاوز حال المصاب؛ يكفي أن يصدق في دعائه ويأخذ بما يقدر عليه من الخير. حفظ شعوره يعينه على حمله، ومعرفة قدرته تعين من حوله على تقديم معونة تناسبها.

ويبقى له أهل وحقوق وواجب يوم، فيؤدي منها ما يستطيع، وقد يتسع المقدور مع الوقت. يشكر خطوة تيسرت، ويحفظ لمصيبته قدرها عند المقارنة بغيره. في هذا الاجتماع يستمد من الآية أصلاً يصحبه: طول المدة وحده لا يحكم بانقطاع الخير، وباب السؤال والسعي يبقى ما وجد له وجهًا مشروعًا. قد يكون المقدور في يوم شديد الحزن أداء حق صغير لأهلك، أو سؤالًا تطلب به عونًا على مسؤولية شقت عليك. تعرف ما فعلته وتشكر تيسيره، ثم تعود إلى السؤال فيما عجزت عنه؛ فيبقى للحياة فعل يناسب حالك دون إنكار للألم.

في الأمر الذي طال عليك، ميّز ما تعرفه مما تجهله، واطلب معلومة أو سببًا يمكن الانتفاع به. يحمل القلب حزنه إلى الله، ويسأله الفرج وخير العاقبة، ويجد في يومه موضعًا لفعل ما زال قادرًا عليه.

الفصل الحادي عشر: أنا عند ظن عبدي

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأٍ خير منهم، وإن تقرب إلي بشبر تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة».²⁷

يمضي الحديث من حسن الظن إلى الذكر والتقرب والإقبال، وفي كل موضع خبر بفضل الله. يذكر العبد ربه ويقبل عليه، فيعرف أن هذا الطريق باب يرجو به خيراً عظيماً. اقرأ المطلع مع بقيقته؛ تجد ما يحمل القلب إلى عبودية يعرف وجهها، ويعينه على البداية التي ربما أخرها انتظاراً لاكتمال أحواله كلها.

إقبال يجد له طريقاً

في مثال من يوم القارئ، تنبه شخص إلى أنه هجر الذكر زمناً. يسمع الحديث فيعرف باباً يرجع منه: ذكر مشروع يتعلم معناه وموضعه، واستحضار للحاجة إلى ربه، وإصلاح لما يستطيع من عمله. قد يبدأ وقلبه مشتت أو شعوره ضعيف؛

27 البخاري، الصحيح، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: «وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ»، حديث أبي هريرة، رقم 7405.

يستعين على الحضور، ويعود إلى المعنى، ويسأل أن ينفعه الله بما يقول.

ويجد في الخبر ما يهون عليه مشقة البدء. إقباله اليسير يرجو به فضل ربه، ويبقى محتاجًا إلى الاستزادة. كان ينتظر قوة كاملة ثم يعمل، فعرف الآن فعلاً يستطيع أدائه وهو مفتقر إلى المعونة. وحين يجد أثرًا نافعًا، يشكر ما تيسر؛ وإن تأخر انشراحه، بقي صدق الخبر وطريق العبادة أوسع من علامة شعورية ينتظرها.

وقد يبقى تقصير في باب آخر فيعالجه بالتوبة والعمل، ويحفظ الخير الذي عاد إليه. تتعاون هذه الأفعال؛ فالذكر يذكره بحاجته وحقوق ربه، والتوبة تصل المعرفة بترك الخل. وحين يبقى حق لغيره أو ظلم يعرفه، يحتاج تقربه إلى إصلاح هذا الموضع أيضًا. يضم اللسان والقلب والفعل إلى عبودية واحدة، بدل اكتفاء بكلمة يستريح إليها مع استمرار الأذى.

صدق الخبر وحد المطلوب

قد يقرأ الإنسان أول الحديث منفصلاً، ثم يحسبه وعدًا بأن كل صورة قوية في ذهنه ستتحول إلى واقع. يتخيل نجاحًا أو مآلاً أو شفاءً ويكرر التصور، وتبقى صلة ذلك بالمطلوب

محتاجة إلى دليل. الحديث يفتح باب معرفة الله وحسن الظن به، ويذكر العمل المشروع الذي يتوجه به العبد إليه. قوة التخیل وحدها لا تثبت وعدًا بحصول هذه الوقائع.

والمقادير المذكورة نتلقاها بألفاظها، وثبت ما أخبر به الله وما صح عن رسوله ﷺ على الوجه اللائق بجلاله، من غير تشبيه بخلقه أو اختراع كيفية لما لم يخبرنا بكيفيته. يتعظم القلب بالخبر ويرجو كرم ربه. أما تحويل العلاقة إلى حساب يضع له الإنسان وحدات، أو وعد بأن ذكرًا غير مقيد يضاعف ربحه بنسبة محددة، فيضيف إلى النص ما لم يثبت فيه.

ويظهر أثر «أنا عند ظن عبدي بي» في التوبة والدعاء وطلب القبول. يصدق العبد خبر ربه، ويعود إليه راجيًا؛ وحين يتأخر مطلوب دنيوي، يفهم حد ما وعد به وحد ما يتمناه. تبقى الحادثة الخاصة مجالًا للدعاء والصبر ومراجعة الأسباب، ويبقى الحديث أصلًا في معرفته بالرب الذي يسأله. يحفظ بهذا الفرق صدق الرجاء، ويتعلم ما يحتاجه من تدبير حياته.²⁸

28 البخاري، الصحيح، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: «وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ»، حديث أبي هريرة، رقم 7405.

وقد يبدأ تجدد هذه المعرفة بسؤال صغير: ما الذي أخبرني به النص، وما الذي أضفته إليه من رغبة؟ ينفعك هذا التفصيل حين يشتد تعلقك بنتيجة. تعرف المطلوب المشروع فتسأله، وتعرف السبب فتسعى، وترجو النفع والقبول. ويظل ما لا تعلمه محل افتقار، دون أن تحوله إلى شرط تلزم به نفسك أو وعد تنسبه إلى الوحي.

ذكر يعرف اللسان معناه

تلاحظ أحياناً أن لسانك يذكر وقلبك بعيد. ارجع إلى فهم ما تقول، وخفف شاغلاً تستطيع تخفيفه، وأحضر من المعنى ما تقدر عليه. حضور القلب يحتاج إلى اجتهاد متدرج؛ تبدأ بالمقدور، وتعالج الغفلة التي عرفت سببها. بهذا تجد بين انتظار كمال لا تملكه والرضا بالتفرق موضعاً للمعونة والمحاولة.

وحين تتعلم ذكرًا ثابتًا، تعرف معناه وموضعه قبل أن تجمع قائمة طويلة. قد تحتاج إلى فهم عبارة تقولها في يومك أكثر مما تحتاج إلى زيادة عدد الأعمال التي نظمته. تتقوى الصلة حين تستعين عند ضعفك، وتحمد عند نعمة، وتستغفر عند تقصير؛ فتلتقي الكلمة والحاجة التي يعيشها صاحبها، ويجد للنص أثرًا يعود إليه مرارًا.

وكلما اتضح معنى التقرب، بقي القلب أعرف بفقره. ما يرجوه فضل الله، وتوفيقه إلى الذكر نفسه نعمة تستدعي الشكر. يحسن عمله ويستزيد، دون أن يحدد من عند نفسه مقدار ما يستحقه. تمتد بذلك ثمرة الحديث من أول رجوع إلى دوام عبادة وتوبة وسؤال.

اللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، واجعلنا ممن يقبل عليك صادقًا ويرجو فضلك. ولتكن بدايتك ذكرًا ثابتًا تعرف معناه وموضعه، تؤديه وتسأل الله أن يحيي به قلبك؛ فإن الخبر الذي رجوت به فضله يدعوك إلى طريق تستطيع أن تبدأه اليوم.

الفصل الثاني عشر: مائة رحمة

ترى عطفًا من أم، أو رعاية لضعيف، أو رفقًا يخفف عن متألم؛ فينفعلك الموقف ويحرك في قلبك امتنانًا. ثم يخبرك الوحي بما يصل هذه الرحمة المشاهدة بفضل الله، وبخبر عن يوم القيامة لم يبلغه بصرك. يتسع النظر حين تقرأ الأثر على ضوء الخبر؛ فتذكر من جعل الرحمة بين خلقه، وترجو ما ادخر لعباده.

قال رسول الله ﷺ: «إن لله مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام، فبها يتعاطفون وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولدها، وأخر الله تسعًا وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة».²⁹

هذا اللفظ من صحيح مسلم يفتح للرجاء بابًا أوسع من أثر موقف جميل. أخبر النبي ﷺ عن التعاطف والتراحم في العالم، ثم عما أخر الله ليوم القيامة. كل إحسان تشهده يذكرك بأن فضل الله أوسع مما رأيته، وأن حدود تجربتك لا تحيط بما تنتظره من رحمته. تتغذى هذه المعرفة بخبر صادق، ويعين المشهد على استحضار دلالته.

29 مسلم، الصحيح، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه، حديث أبي هريرة، رقم 2752، رواية «إن لله مائة رحمة».

رحمة معدودة وصفة ثابتة

الرحمة المعدودة في هذا الحديث رحمة خلقها الله، أما صفة الرحمة القائمة به سبحانه فغير مخلوقة؛ وقد بين ابن باز هذا الفرق في شرح الحديث.³⁰ ونثبت ما أخبر به الرسول ﷺ بما يليق بالله. فالعدد يعود إلى الرحمة المخلوقة المذكورة، ويتنزه الله عن مشابهة خلقه؛ فلا نجعل صفته أجزاء تقاس بالمخلوقات، أو نخترع لما أخبر به كيفية لم يبينها.

ويبقى للخبر حد آخر في استعماله: عدد الرحمات يخبرنا بفضل الله، ويختلف عن حساب احتمالات نجاة شخص بعينه. يجمع العبد هذا الخبر مع نصوص الإيمان والتوبة والحساب، فيعمل ويستغفر ويحسن الظن. يحتاج في يوم القيامة إلى رحمة ربه، ويطلب النجاة مفتقراً؛ فما رجاه في أيام ضعفه معنى يبقى معه حين تنتهي الدنيا.

حين تزاحم القسوة نظرك

تكثر صور الظلم أمام الإنسان، فيكاد ما شاهده يستولي على تصوره للعالم كله. لهذا يحتاج إلى التذكير بالرحمة دون إنكار

30 عبد العزيز بن عبد الله بن باز، فتوى «هل الرحمة منها مخلوقة وغير مخلوقة؟»، في موقعه الرسمي؛ وشرحه لحديث «أنا عند ظن عبدي بي»، الدرس 51، عند حديث خلق مائة رحمة، في النص المكتوب المنشور على موقعه الرسمي.

للأذى. يبقى ظلم وقع محتاجًا إلى دفع وإنصاف، وتبقى وجوه تعاطف ورعاية حقيقة تعرفها بخبر الوحي وتشهد بعض آثارها. حفظ الأمرين يصون حق المتضرر، ويمنع الشر الجزئي من محو كل ما لم يشمل. ويبقى عدله ووعد حَقًّا، وإن خفيت عنك حكمة واقعة رأيت بعض تفاصيلها.

وعندما يتذكر المرء خبر الرحمة المدخرة، يتسع أفقه عن حاضر مؤلم. ربما غاب عنه إحسان في موضع، أو تعذرت معونة كان يرجوها من شخص، وتبقى معرفته بفضل الله أوسع من تلك الواقعة. ينتفع بمعنى الحديث في السؤال والعمل والرجوع، ويجد فيه ما يحمل ضعفه دون أن يدعي علمًا بكل حكمة أو عاقبة.³¹

والاستدلال بالمشهد يظل في قدره. تعرف إنسانًا رحيماً فتشكر إحسانه، وتذكر أن الله جعل بين خلقه الرحمة. أما معرفة صفات الرب وحكمه فتتلقى مما أخبر به، دون قياس يحيط بها من موقف جزئي. بهذا يكون الوحي أصل الرجاء، وتكون المشاهدة معيَّنًا على التذكر والتدبر.

31 مسلم، الصحيح، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه، حديث أبي هريرة، رقم 2752، رواية «إن لله مائة رحمة».

رفق ببلغ حاجة صاحبه

يرجو العبد الستر والمغفرة، ثم يجد في نفسه ميلاً إلى فضيحة من أخطأ. يحتاج في هذا الموضع إلى مراجعة ما يعلم من حق وحكم، وإلى حفظ كرامة من يعامله. وتبقى الرحمة متصلة بالعدل: ضعف شخص يدعوكم إلى إنصافه، والظلم المستمر يحتاج إلى الجهة القادرة على وقفه. الرفق يحفظ المقصود، ويستقيم مع حماية حق تعلقت به سلامة الآخرين.

في مثال تطبيقي منشأ، أخطأ متعلم في مسألة يسهل على معلمه فهمها. يبين المعلم موضع الخطأ، ويشرح بقدر الحاجة، ويحفظ للسائل فرصة الفهم وكرامته. وقد يحتاج التصحيح إلى حزم، فيجعله خادماً للإصلاح. تذكر حاجته هو إلى رحمة الله يعينه على معرفة الزيادة التي حملها الغضب أو الرغبة في إظهار التفوق.

وقد يحسن المعلم المادة ويغيب عنه الطريق الذي قطعه حتى تعلمها، فيستثقل سؤال مبتدئ. الرجاء يعيده إلى احتمال ضعف عرفه من نفسه يوماً، وإلى جدية تعليم تفتح معرفة. يحدد موضع الإشكال، ويترك للسائل وقتاً، ويصغي إلى ما بقي غامضاً. هذه الرحمة تزيد نفع التصحيح، وتحفظ للعلم قدره.

والمحتاج إلى خدمة له نظر في حاجته. كثرة السؤال قد تكشف ما يريد ستره، وعطية تختارها أنت قد تختلف عما ينفعه. فاسمع قبل القرار، وبين ما تستطيع، ودعه يصف ما يقبله بقدر الحاجة. يصير المعروف أقرب إلى مقصده حين يحفظ حق المنتفع به وخصوصيته، ويجد أثرًا يناسب واقعه. وإن كنت المحتاج، فاطلب معونة مباحة من طريقها المناسب بعفة وصدق، واشكر من أحسن. الحاجة تفتح باب تعاون بين الخلق؛ تحفظ كرامتك وحقوق معينك، وتأخذ بما تستطيع الانتفاع به. ثم تحمل خبر الرحمة إلى موضع من يومك: تعليم أو خدمة أو حديث في البيت، تختار فيه رفقا يؤدي حقًا ويخفف عن صاحب حاجة. وتبقى راجيًا ربك، مؤمنًا بما أخبر به من الرحمة والحساب والجزاء.

الفصل الثالث عشر: سبقت رحمتي غضبي

قد يعرف العبد ذنبه معرفة تؤلمه، ثم يظن أن هذا الألم قد عرّفه بكل ما يحتاج إلى معرفته عن ربه. يستحضر الحساب والعقوبة، ويستقبل الدعوة إلى التوبة كأنها تخص غيره. وحاجته في هذا الموضع أن يسمع من الخبر ما غاب عنه؛ فإن الخوف مهما اشتد يبقى شعورًا في قلبه، أما معرفته بالله فتؤخذ مما أخبر الله به عن نفسه.

قال رسول الله ﷺ: «لما قضى الله الخلق كتب في كتابه، فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي غلبت غضبي». هذا لفظ البخاري في الموضع المعزو هنا؛ وجاء التعبير بسبق الرحمة في روايات الباب أيضًا.³² نحفظ لكل رواية لفظها، فلا نركب من ألفاظها حديثًا ثم ننسبه إلى موضع واحد. ويتلقى المؤمن الخبر كما ورد، معظمًا ربه، من غير تشبيه أو ادعاء علم بكيفية ما أخبر به عن نفسه.

يفتح الحديث للقلب معرفة كان يحتاجها وهو يتذكر جنايته. فالذي عصيته هو الذي أخبرك بغلبة رحمته، والذي تخاف حسابه هو الذي دعاك إلى الرجوع. إذا اجتمعت المعرفتان،

32 البخاري، الصحيح، كتاب بدء الخلق، حديث أبي هريرة، رقم 3194؛ ومسلم، الصحيح، رقم 2751. لفظ البخاري هنا «غلبت غضبي»، ولفظ مسلم «تغلب غضبي».

أمكنك أن ترى الذنب على حقيقته، وأن ترى معه طريق التوبة. أما حصر النظر في العقوبة فقد يجعل المرء يهرب من السؤال والإصلاح، ثم يظن أن هربه أثر تعظيم، مع أن تعظيم الأمر يقتضي الاستجابة له.

خبر يردك إلى الطريق

وغلبة الرحمة لا تنفي العقوبة التي جاء بها الوحي. للرحمة دلالتها، وللوعيد دلالته، ومعرفة العبد بربه تتسع لهما. يقرأ المقصر الخبر فيجد ما يعينه على الرجوع، ويقرؤه المستهين بالمعصية مع النهي عنها فيعرف أن باب الرحمة مفتوح للتوبة، وأن اتخاذ البشارة ذريعة لاستبقاء الظلم يفسد فهمه لها. اختلاف حاجتنا إلى التذكير لا يغير صدق النص ولا يسوغ إسقاط بعضه.

وقد تسأل: كيف أنتفع بهذا الحديث وأحفظ نفسي من الاغترار؟ انظر إلى الفعل الذي تحملك عليه قراءته. إذا أعانتك على سؤال حكم تجهله، أو كف أذى، أو أداء حق، فقد وجدت لها أثراً نافعاً ترعاه. وإذا استعملتها لإسكات كل من ينبهك إلى تفريط، فارجع إلى ما فهمته منها. بهذه المراجعة تعرف موضع التصحيح في سلوكك؛ أما الحكم النهائي على إيمانك ومنزلتك عند الله فليس مما يمنحك إياه هذا النظر.

وقد يعوق الانتفاع عادة قديمة: لا تذكر الله إلا عند الخوف، ولا تدعو إلا بعد اشتداد اليأس، وكل كلمة عن تقصيرك تسمع فيها معنى الطرد. مثل هذه العادة تحتاج إلى أن ترد معرفتك إلى الخبر الصادق مرة بعد مرة. تتوب مفتقرًا إلى المغفرة، وتدعو راجيًا الكرم، وتعمل طالبًا القبول؛ فيصير الرجاء معنى تصحب به عبادتك، ويجد قلبك ما يرجع إليه عند عثرة جديدة.³³

ويكفيك في هذا التصحيح أن تتلقى ما ثبت وتعمل بمقتضاه. أما البحث عن تفسير لطف مخصوص لكل ما وقع في حياتك، فقد يحمك على تأويل أمور لم تعلم سببها. تستطيع أن ترجو رحمة الله وأنت تجهل حكمة حادثة، وأن تسأله العون وأنت تتألم منها؛ فصدق الخبر أوسع من قدرتك على تفسير أيامك.

رحمة الناصح

تصور شابًا عرف خطأ فعله، لكنه يؤخر سؤالًا نافعًا لأنه يتوقع توبيخًا فحسب. هذا مثال منشأ يبين كيف تؤثر طريقة البيان في الاستجابة. إذا وجد معلمًا يوضح الحكم، ويشرح طريق التوبة، ويحفظ كرامته، صار البدء بالإصلاح أيسر عليه. يبقى

33 البخاري، الصحيح، كتاب بدء الخلق، حديث أبي هريرة، رقم 3194؛ ومسلم، الصحيح، رقم 2751. لفظ البخاري هنا «غلبت غضبي»، ولفظ مسلم «تغلب غضبي».

الخطأ خطأ، ويجد صاحبه من يعينه على تركه بدل أن يزداد بعداً عن موضع التعلم.

وتحتاج البشارة هنا إلى أمانة. يبين الناصح ما شرعه الله، دون أن يشهد لهذا الشاب بمغفرة شخصية لا يعلمها. ويفسر له ما يحتاجه من الرجوع، دون أن يعده بزوال ألمه في المجلس. فقد تعيش كلمة النصيحة في قلبه طويلاً، ويعود إليها حين يضعف؛ فلا يصح أن تكون راحتها الأولى ثمرة وعد يعجز الناصح عن إثباته.

ومن الرحمة بالمتعب أن تعينه على حمل ما بقي في وسعه، وبالعامل أن تبين له ما يصلح عمله، وبالمخطئ أن تشرح له طريق التوبة. قرب الكلام من الحاجة يجعل البشارة صالحة للعمل. ولعل سؤالاً محدداً عن الحق الذي أخذه أنفع لصاحبه من موعظة واسعة لا يعرف بعدها ماذا يفعل.

وقد يحتاج السامع إلى وقت يفهم فيه ما سمع، أو إلى أن يعرض سؤاله بعبارة أقل وضوحاً ثم يتعلم كيف يبينه. فليتسع النصح لهذا التعلم، وليبق معه ما يدل على طريق الرجوع. فالرفق في حمله إلى البيان جزء من الرحمة التي يحتاجها، وهو أوثق من استعجال أثر وجداني نحكم به على نجاح المجلس.

ثم يراجع الناصح عدله: هل يذكر الرحمة لمن يحب وينساها لمن يبغض؟ وهل يريد بكلامه إصلاح المخاطب أم غلبته؟ خضوعه للخبر يقتضي أن يكون ميزانه أمانة البيان، وأن يقدر حاجة السامع بإنصاف. وحين تقرأ الحديث لنفسك، اختر تقصيراً أخافك حتى عطلك، وتعلم طريق الرجوع منه. اجمع العلم بخطورته والثقة بسعة رحمة ربك، ثم دع هذه المعرفة تبلغ الفعل الذي كنت تؤخره.

الفصل الرابع عشر: لا يدخل الجنة بعمله

إذا أحسن العبد عملاً، فماذا يرى وراء إحسانه؟ قد يرى اجتهداه وحده، فيفرح فرح من ضمن المآل، وقد يرى نقصه وحده، فيحسب أن سعيه كله ضاع. وبين هذين النظريين معرفة تضع العمل في موضعه: تبذل وسعك امتثالاً للأمر، وترجو رحمة الله في توفيقك وقبولك وثوابك.

قال رسول الله ﷺ: «لن يدخل أحدًا عمله الجنة». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «لا، ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة، فسدوا وقاربوا، ولا يتمنين أحدكم الموت: إما محسنًا فلعله أن يزداد خيرًا، وإما مسيئًا فلعله أن يستعذب».³⁴

تأمل اتصال أول الحديث بما بعده: نفي الدخول بالعمل يعقبه الأمر بالتسديد والمقاربة. فالعمل مطلوب، ووجهه يحتاج إلى إحسان، وصاحبه مفتقر إلى الرحمة. وحين يجمع المؤمن هذه المعاني، يزول توهم أن كثرة الطاعات تمنحه استغناء عن ربه، كما يزول توهم أن رجاء الرحمة يعفيه من الطاعة. كلما أحسن عمله عرف نعمة التوفيق إليه، وسأل الله أن يتقبله.

34 البخاري، الصحيح، كتاب المرضى، باب تمنى المريض الموت، حديث أبي هريرة، رقم 5673.

كيف يكون العمل سببًا؟

قد يشكل على القارئ أن القرآن ذكر دخول الجنة بسبب الأعمال، وأن الحديث نفى الدخول بها. وبين النووي وجه الجمع: التوفيق للعمل، والهداية إلى الإخلاص فيه، وقبوله، كلها من رحمة الله وفضله. يثبت العمل سببًا للنجاة، مع بقاء هذا السبب وما يرجى منه داخل الرحمة، مفتقرًا إليها من أوله إلى آخره.³⁵

ارجع إلى طاعة فرحت بها. عرفت حكمها بعلم يسره الله، وأديتها بقدره وهبك إياها، ووجدت لها وقتًا أو مالًا أو من يعينك. ثم بقيت حاجتك إلى قبولها. معرفة هذه النعم تحفظ لك حقيقة اختيارك وبذل وسعك، وتريك ما أحاط باجتهادك من فضل. وما دامت نعمة التوفيق قائمة، بقي للشكر موضع حتى بعد العمل الذي أحسنت أدائه.

ولذلك يثمر الحديث اجتهادًا مصحوبًا بالافتقار. تعرف واجبك فتتعلمه، وتقدر عليه فتؤديه، وتجد خللاً فتصلحه، ثم تحمل سؤال القبول إلى الدعاء. يخف بذلك عن النفس أن تعلن كمالها كلما أحسنت، أو تعلن فشلها كله كلما قصرت. فالعمل

35 النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى، عند شرح حديث مسلم 2816، في النص الإلكتروني للشرح.

يمكن مراجعته، والذنب يمكن التوبة منه، والفضل يسأل ممن وفق إلى الخير.

ويظهر هذا في صلاة المرء اليومية. يستعد لها ويتعلم ما يحتاجه لأدائها، فإذا فرغ منها رأى توفيق الله له وشكره، ورأى تقصيره واستغفره. فإن تبين له خطأ يحتاج إلى حكم، طلب العلم به. أما سؤال القبول فيبقى موضع افتقار؛ يحمله إلى الدعاء بدل أن يطالب نفسه بعلم غائب قبل الصلاة التالية. بهذه المعرفة يستمر العامل في إحسان عبادته، وتبقى حاجته إلى الرحمة مصاحبة للسعي الذي يستطيعه.

والتسديد طلب الصواب، والمقاربة بذل الوسع حين يقصر المرء عن الأكمل. يحتاج هذا المعنى إلى معرفة حال الفعل: للواجب حكمه، وللعجز حكمه، وللتقصير توبته. فمن تعمد ترك ما يلزمه لم يصح فعله بتسميته مقاربة؛ ومن بذل استطاعته احتاج إلى ما يعينه على الاستمرار والتحسين، بدل مطالبته بصورة كمال تتجاوز وسعه.

تصور، في مثال منشأ، إنساناً أراد خدمة محتاج فقدم ما يستطيع بصدق. ثم تبين له أن طريقته كانت تثقل على المستفيد، وأن خدمة أرفق كانت ممكنة. هنا يراجع الطريق، ويسمع الملاحظة، ويرجو قبول ما بذل. حسن القصد يعينه

على إصلاح أثر فعله، والنقص الذي ظهر له يفتح باب التعلم؛ فيحفظ الخير ويزيد إحكامه.

حق الفضل وحق الناس

وموضع الحديث صلة العبد بربه ودخول الجنة. أما العامل عند الناس، فله حق في الأجر المتفق عليه، ولا يملك صاحب العمل أن يمنعه إياه احتجاجاً بأن العباد مفتقرون إلى الرحمة. نقل الدليل من موضعه إلى العقود يوقع ظلمًا لا يدل عليه الحديث. كلما تبين متعلق الكلام، سلمت العبادة من أن تستعمل لإسقاط حق غيرك.

وهذا الفهم نفسه يعين من يخدم الناس على شكر من أعانه. يراعي حق المستفيد وكرامته، ويقبل التصحيح، ويحسن ما يقدر عليه؛ لأن رجاء القبول يتعلق بعمل يريد له أن يصح. ثم يحفظ الفرق بين الثناء الذي يسمعه وبين منزلته عند الله. قد يستبشر بكلمة طيبة، ويبقى علم السرائر والقبول لله.

ومن هنا يتسع نظره للأعمال الخفية. يرى من غيره عملاً قليلاً في ظاهر الناس، فيحفظ احتمال ما لا يعلمه من نيته وحاله وسائر أعماله. ويعرف من نفسه عملاً مشهوراً، فيشكر التوفيق إليه دون أن يجعله رقماً يحسب به درجته. احترام الخير يثمر تواضعاً للعاملين، بدل أن يصبح سبباً لتزكية النفس عليهم. ثم يأتي آخر الحديث ليبين قيمة ما بقي من الحياة: للمحسن فرصة أن يزيد إحسانه، وللمسيء فرصة أن يطلب العتبي بالرجوع. فرجاء الآخرة يدعو إلى اغتنام الزمن المتاح، ومعرفة نقص العمل تدعو إلى تداركه. إذا تعبت من المجاهدة فاسأل الله إتمام فضله، وارجع إلى ما تستطيع إحسانه اليوم. وإذا تفرح به، فليكن في فرحك شكر من يعرف أنه ما زال محتاجاً إلى الرحمة التي بدأ بها الطريق.

الفصل الخامس عشر: خوفًا وطمعًا

قال تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة:16]. في الآية قلب يدعو، وبدن يقوم من راحته، ومال يبذل مما رزق الله. هكذا يظهر الخوف والطمع في عبادة يعيشها أصحابها؛ يتجه القلب إلى ربه، وتجيبه الجوارح بما تقدر عليه.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد».³⁶ يجمع الخبر شدة العقوبة وسعة الرحمة، فيرد النفس إلى علم تحتاجه حين تستولي عليها معرفة أحد الطرفين. فالمؤمن يسمع ما يحفظه من الاغترار، ويسمع المذنب ما يفتح له رجاء العودة.

ونقرأ الحديث مع نصوص الإيمان والتوبة والوعد والوعيد. سعة الرحمة تقرر ما أخبر الله به من فضله، وشروط الإيمان والتوبة تحفظ أحكامها، والعقوبة تثبت بما ورد فيها. معرفة الرب تجمع هذه الأخبار، فلا يختار القلب منها ما يوافق حاله

36 مسلم، الصحيح، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه، حديث أبي هريرة، رقم 2755.

اليوم ثم يترك سائرهما. وقد يحتاج إلى معنى كان حاضراً في علمه وغائباً عن سلوكه.

لكل معنى أثره

إذا عرضت لك معصية، احتجت إلى ما يريك خطرهما حتى تكف عنها، وإلى رجاء خير مشروع يعينك على احتمال تركها. وإذا وقعت فيها، حملك الخوف على التوبة، وأعانك الرجاء على العودة وأنت تعلم جنايتك. وحين تقوم بطاعة، تعرف احتمال نقصها فتتعلم ما يصلحها، وترجو قبولها فتداوم عليها. يتعاون المعنيان في فعل مخصوص، ويختلف موضع الحاجة إليهما باختلاف ما تواجهه.

تصور صاحب أمانة مالية وجد فرصة للتصرف فيها بغير حق. حاجته عند الإغراء أن يذكر حرمة المال وعاقبة التعدي، وأن يرجو رزق الله من وجهه المشروع. فإذا أخطأ وأخذ المال، صار عليه أن يعرف طريق رده وأن يسعى فيه. خوفه يعينه على مواجهة تبعة فعله، ورجاؤه يمنعه من الهرب بحجة أن ما أفسده تجاوز الإصلاح. هذا مثال منشأ، تبين فيه ثمرة المعرفة بما يلزم صاحبه فعله.

وقد يغلب الخوف عند عرض المعصية، والرجاء عند ذكر الرحمة، وتتكامل آثار المعنيين في سير العبد. أما حساب

نسبة ثابتة لهما في كل لحظة، فيشغله بمراقبة انفعاله عن الاستجابة لما تبين له. في الآية قيام ودعاء وإنفاق؛ تستطيع أن تنظر إلى نصيبك من عمل مقدور، وأن تطلب العلم بما أشكل، دون أن تحول القلب إلى مسألة حسابية.

والخوف الذي يدعوك إلى كف الأذى لا يحتاج إلى أن يصحبك اضطراب دائم أو عجز عن النوم والعمل. كما أن رجاء الرحمة قد يبقى في قلبك وأنت حزين أو متعب. المقصود تعظيم الله ورجاء فضله وما ينتج عنهما من عبودية؛ أما الأعراض النفسية والجسدية فلها أسباب وأحوال، وليس للخطاب التربوي أن يجعلها وحدها حكمًا على الإيمان.

ماذا يحتاج السامع؟

قد نسمع أن إنسانًا يحتاج إلى الرجاء فنكثر له البشارات، مع أن سؤاله الذي يعطله أضيق من ذلك: هل تقبل التوبة ممن تكرر ذنبه؟ كيف يؤدي حقًا يخشى كشفه؟ هل شعوره بالألم يبطل رضاه؟ معرفة السؤال تعين على بيان المعنى المناسب. وقد تفتح كلمة دقيقة طريقًا بقي مغلقًا بعد صفحات من التذكير العام.

ويذكر خالد السبت في شرحه لباب الرجاء مراعاة حال المخاطب، مع جمع النصوص في مقام التعليم.³⁷ نستفيد من هذا في أنفسنا وفي نصح غيرنا، ونبقي باب الفهم والسؤال مفتوحًا. تقدير الحاجة يكون بما يظهر من كلام السامع وحاله، ويصح إذا تبين لنا غيره؛ فاختيار ما يشرح له لا يمنحنا علمًا بسريرته.

ومن ذلك أن يسمع الناصح مستمعًا مستهينًا بظلم يمارسه. هذا يحتاج إلى بيان حق المظلوم وعاقبة التعدي، ثم إلى طريق التوبة وأداء الحق. تبقى الرحمة باعًا على الإصلاح، وتبقى حاجة المتضرر إلى الحماية محفوظة. وربما احتاج الناصح إلى سؤال صاحب العلم عن الطريق الذي يرفع الضرر، بدل أن يجعل حسن نيته كافيًا لارتجال حكم أو تصرف. وينتفع المرء بالمراجعة نفسها حين يلتبس عليه ما يسميه خوفًا أو رجاءً. فإذا كان خوفه يحمل على تأخير التوبة، فلينظر فيما أدخله عليه من قنوط. وإذا كان رجاءه يهون ترك الواجب، فليتعلم ما فات فهمه من معنى البشارة. النظر إلى الأثر يحدد موضع العمل، مع بقاء الحكم على القلوب لله.

37 خالد بن عثمان السبت، شرح رياض الصالحين، باب الرجاء، درس «الحديث على آيات الباب»، المنشور في موقعه الرسمي بتاريخ 20 شوال 1428هـ، النص المكتوب.

ومن أمانة هذه المراجعة أن تبحث عن الفهم الذي صنع التعطيل. ربما ظننت أن الرجوع يحتاج إلى انشراح كامل، أو أن الاعتراف بالخطأ يقضي على كل خير مضى. تصحيح هذا الفهم يصل الخوف بالتوبة، ويصل الرجاء بالفعل الذي كان الوهم يحول دونه.

خذ فعلاً واحداً من يومك: أمراً يلزمك الكف عنه، أو خيراً ظهر لك وجهه وتأخر بدئه. اجمع له العلم بحكمه ورجاء المعونة على أدائه. وقد يبقى الخوف في نفسك بعد أن تبدأ، وقد يتأخر الانشراح؛ لكنك تكون قد بلغت بالمعنى موضعه الذي أضاءته الآية: قلب يدعو وجوارح تستجيب.

الفصل السادس عشر: عند الموت يحسن الظن

حين يضعف الجسد وتضيق القدرة على العمل، يحتاج القلب إلى خبر يحمل به ما يعجز عن حمله وحده. قد يستحضر المريض تقصيرًا قديمًا، أو يخاف من لقاء لا يملك وقته، فيجد في معرفة رحمة الله ما يعينه على الإقبال. ويبقى من حوله محتاجين إلى رفق يعرف قدر الساعة وقدر طاقته.

عن جابر رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ قبل وفاته بثلاث يقول: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن بالله الظن». رواه مسلم في باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت.³⁸ يتوجه هذا الأمر إلى القلب في موضع اشتداد حاجته؛ يرجو فضل ربه، ويصدق وعده، ويستغفر من تقصيره، ويأتي من الخير بما بقي في استطاعته. دعوى الاستحقاق تغيب عن هذا المقام، ويحل مكانها افتقار يرجو الرحمة.

وحسن الظن يتعلمه العبد قبل تلك الساعة أيضًا. يعرف ربه في أيام صحته، ويعود إليه بالتوبة، ويسأله في ضعفه؛ فتكون له معرفة يصحبها حين تعجزه قواه. وقد يداهمه التعب فلا يملك صفاء الفكر الذي كان يتصوره، أو يعجز عن طول الكلام

38 مسلم، الصحيح، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت، حديث جابر، رقم 2877.

الذي اعتاده. لذلك كان إصلاح معرفته وصلته بربه من عمل حاضره، قبل أن يحتاج إلى استحضاره في أشد أحواله.

كلمة بقدر الحاجة

من يجلس عند المريض يقدر حاجته إلى الرحمة وقدرته على سماع البيان. ربما نفعته جملة تذكره بوعد ثابت، وربما احتاج إلى من ينصت لسؤال لم يستطع عرضه. يتبع الزائر هذه الحاجة، ويدع طول الخطاب إذا أثقل السامع. للكلمة النافعة مقدارها، وللسكوت الرحيم مكانه، وحسن النية لا يغني عن معرفة ما يطيقه من أمامك.

تصور مريضًا سأل عن تقصير قديم. هذا مثال منشأ، قد يكون أرفق جواب فيه أن تبين له ما يستطيع من التوبة، وتعيّنه على أداء حق أو إبلاغ شخص يثق به بما يلزم. فإن أشكل حكم الحق، طلبت له من يحسن بيانه. تحفظ خصوصيته، وتقتصر من التفاصيل على ما يحتاجه السؤال، حتى يكون حرصك على الإصلاح عونًا له في حاله.

وتبقى البشارة مقيدة بما يعلم الناصح. يبشر برحمة الله، ويدعو بالعافية والمغفرة، ويبين طريق الرجوع، دون أن يشهد بغيب خاص بهذا المريض. الرؤيا أو الحركة أو الكلمة العارضة لا تمنحه حكمًا قطعيًا بالخاتمة. فالمواساة تستطيع أن تبلغ

القلب بصدقها، والزيادة على العلم قد تثقل عليه أو على أهله حين يبحثون عنها بعد ذلك.

وربما أراد الزائر أن يزيل الخوف كله قبل أن ينصرف، فطلب من المريض طمأنينة ظاهرة تدل على نجاح كلامه. لكن للمريض شعوره ووسعه وألمه. عليك أن تقدم ما تعرف من خير، وأن تحسن صحبتته، وأن تدعو له؛ أما استجابة نفسه في الساعة نفسها فليست مما تأمره به. وقد ينتفع بكلمة قليلة وهو يعجز عن بيان أثرها.

رجاء العافية والاستعداد

طلب العافية والاستعداد للقاء يمكن أن يجتمعا. يصلح المريض ما قدر عليه من أمانة أو حق، ويسأل الله الشفاء، ويأخذ بأسباب الرعاية المناسبة. حديث حسن الظن يعلم القلب كيف يرجو ربه؛ وأما قرارات العلاج فلها أهلها ومعلوماتها. لا يستخرج الزائر منه حكماً طبياً خاصاً، ولا يجعل مواصلة الرعاية ضعف رضا، ولا يقرر وحده انتهاء فرصها.

ويحتاج أهل المريض إلى الرجاء كذلك. قد يطلبون منه كلمات تطمئنهم، أو يكثرون السؤال عن حاله، وهو قد أثقله التعب. حسن القيام بحقه أن يخففوا هذا الحمل، وأن يجعلوا

خدمتهم ودعاءهم وحسن صحبتهم أصل حضورهم. يقبلون من كلامه ما يستطيع، ويحفظون راحته؛ فإن حاجتهم إلى الاطمئنان الحقيقية، لكنها لا تجعل ضعفه قادرًا على حمل طمأنينتهم كلها.

ومن الرفق أن ينتبهوا إلى أثر اختلافهم في حضرته. فقد يتنازعون مقدار الكلام أو طريقة الخدمة من شدة الحرص عليه، فتصل إليه مشقتهم. يرجعون إلى حاجته وإلى من يعرف حال رعايته، ويستعينون بما يوضحها لهم. هكذا يصير الرجاء بابًا لطلب العون على أداء حقه، بدل أن يكون طلبًا لانفعال يظهره لهم ليخف خوفهم.

ما يستطيع الصحيح اليوم

أما من يقرأ الحديث في عافيته، فله عمل معلوم قبل أن تأتي ساعة مجهولة. يرتب أمانة حتى يسهل أداؤها، ويبين حقًا حتى يحفظ، ويتعلم من العبادة ما يحتاجه. معرفته بالموت تبلغه هذه الأفعال، بدل أن تستغرقه في تصور كيفية خاتمة لا يملكها. يفي بما في وسعه، ويفوز زمن أجله وما غاب عنه إلى الله.

وقد يقدر المريض أيضًا على بعض هذا البيان، فيعان عليه بقدر طاقته. يبقى حقه في الستر والكرامة حاضرًا، ويؤخذ من كلامه ما يحتاجه حفظ الأمانة دون إلحاح يؤذيه.

ويتصل هذا الاستعداد بمعرفة يبينها في كل رجوع: إذا أخطأ تاب، وإذا ضعف سأل، وإذا عمل رجا القبول. فإذا ضاقت القدرة بقي معه أصل يرجع إليه.³⁹ نسأل الله أن يثبتنا عند لقاءه، ويختم لنا بخير. وللقارئ الآن حق يمكنه إصلاحه؛ فليكن رجاء حسن الخاتمة حاضرًا في حسن القيام به.

39 مسلم، الصحيح، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت، حديث جابر، رقم 2877.

الباب الثالث: الرجاء الصحيح

تختلف حاجة المطيع عن حاجة التائب، وقد تجتمع الحاجتان في عبد واحد. في هذه الفصول نتتبع رجاءً يصحب العمل، ويستبقي الافتقار إلى التوفيق والقبول.

الفصل السابع عشر: طاعة ورجاء

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ﴾ [فاطر:29]. يبين السعدي أن التلاوة تجمع قراءة الكتاب واتباعه، وأن هؤلاء يرجون ما عند الله من الرضا والثواب.⁴⁰ أعمال متعددة يصلها مقصد حاضر: يعبدون ربهم ويرجون فضله، فيبقى العمل متجهًا إلى ما يتجاوز نظر الناس إليه.

وتحتاج الطاعة المتكررة إلى هذا الرجاء. يؤدي الإنسان صلاة عرف وقتها، ويقرأ وردًا اعتاده، ويعطي نفقة تحمل مسؤوليتها، ثم يألف الصورة حتى يغيب عنه معناها. قد يفتش حينئذ عن عمل جديد يمنحه شعور البداية، مع أن العمل القديم يحتاج إلى تجديد القصد أو إصلاح خلل محدد. نعمة الدوام تستحق أن تعرف، وما ظهر من تقصير يستحق أن يصلح.

ابدأ بمعرفة ما تؤديه: هل تعلم من أحكام الصلاة ما يقيمها؟ وهل تتبع من الكتاب ما تقرؤه؟ وهل تنفق مالا مشروعًا في

40 السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تفسير سورة فاطر، الآية 29، في النص الإلكتروني للتفسير.

وجه نافع؟ رجاء القبول يفتح هذه الأسئلة، فيحمل القلب إلى التعلم والعمل. وقد يكون تحسين تفصيل واحد في عبادة ألفتها سنوات أنفع لك من توسيع برنامج تطوع قبل معرفة ما يلزمك.

حين يغيب الثناء

قد يخدم المرء أهل بيته ولا يسمع شكرًا، أو يقوم بنفع عام لا يعرف الناس صاحبه. حاجته إلى التقدير مفهومة، وله أن يبين حقه بوضوح وأن يصلح طريقة التعاون مع من حوله. ويبقى له رجاء أجر الله في الخير الذي يؤديه؛ فيحفظ العمل من أن يصبح معلقًا على مقدار ما يسمع من مديح. وقد يكشف غياب الثناء حاجة في العلاقة تستحق معالجة تناسبها، دون أن يتحول إلى إذن بإضاعة واجب.

وقد تأتيه كلمة شكر فيفرح بها. يعرف النفع الذي حصل ويشكر من وفق إليه، ثم ينظر فيما يحفظه وفي حق من أعان عليه. هذا النظر يوسع فرحه: يصبح سروره متصلًا بالخير الذي وصل إلى صاحبه، ويخف انشغاله بأن يبقى هو وحده موضع الحاجة. ومن احترام عمله أن يعتني بآثره بعد أن يهدأ ثناء الناس عليه.

ويظهر ذلك حين تجد للمهمة من هو أصلح لها. ربما ثقل على نفسك تسليمها إليه، مع أنك تستطيع مواصلة بذل الوقت فيها. فإن رجوت أجر الله في نفع الناس، أمكنك أن تسهم في الانتقال بأمانة وأن تفرح باستمرار الخير على يد غيرك. يتغير نصيبك من العمل، ويبقى لك فيه قصد صالح وحق تؤديه؛ كتعليم ما تعرفه أو تسليم ما يلزم لإنجاح المهمة.

سرًا وعلانية

ذكرت الآية الإنفاق في الحالين، فيبقى لكل منهما ما يناسبه. قد يكون للإعلان مصلحة في التعليم أو تشجيع الخير أو توثيق أمانة، وقد يكون الإخفاء أحفظ للقصد وكرامة المستفيد. معرفة وظيفة التصرف تعين على اختياره. فلا يضيع توثيق لازم طلبًا لصورة الإخفاء، ولا يتخذ الإعلان وسيلة للمن والأذى.

تصور قائمًا على خدمة عامة نشر تقريرًا عن المصروفات ليطمئن أصحاب الحقوق. هذا مثال منشأ، تتبين فيه حاجة الناس إلى المعرفة. إعلان الحساب يؤدي تلك الحاجة، بينما تعداد العطايا لإذلال المستفيدين يوقع عليهم أذى. وقد تتشابه صورة النشر، فيحتاج صاحب العمل إلى أن يعرف ما

يريد به وما يترتب عليه، ويحفظ حقوق من ذكرهم وخصوصيتهم.

ويحفظ القارئ في نظره إلى الآخرين حد العلم بالظاهر. يتعلم السؤال عن وظيفة تصرفه هو، ويقدر أثر الإعلان أو الإخفاء في العمل، دون أن يجعل إحدى الصورتين حكماً قطعياً على سريرة صاحبها. وبذلك يبقى المعنى باعثاً على تصحيح القصد والسلوك، ويقل ما تدخله المقارنات من خصومة لا تنفع العمل.

نعمة الدوام

تجتمع في يومك حقوق أهل وتعلم وعبادة وخدمة، ولكل منها صفته وحكمه. رجاء ما عند الله يحفظ ما يصل هذه الأعمال، حتى تفهم تكرارها على أنه مواضع لإحسان جديد، ويظل قصد الآية حاضراً في تنوع السعي.⁴¹ أما مقارنة ظاهر حياتك بظاهر حياة غيرك، فقد تغيب عنك ما يحمله من واجبات وما يخالفك فيه من أعذار.

ارجع إلى حق يومك: ما الذي ألزمه الله؟ وما الذي تستطيع إحسانه؟ وأي نافلة تقدر على حفظها دون إضاعة أصل؟ إذا

41 السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تفسير سورة فاطر، الآية 29، في النص الإلكتروني للتفسير.

فتر نشاطك، فأد الواجب واستعن بالله، ونظم مقدار التطوع على قدر وسعك. الفرائض تبقى على حكمها، وما يشرع من رخص يعرف بدليله؛ فلا تختصرها طلباً لتجديد الشعور.

اختر طاعة تتكرر في حياتك، وانظر إلى موضع واحد يمكن تحسينه. قد تحتاج إلى علم، أو إلى ترتيب يرفع مشقة عن غيرك، أو إلى تجديد قصد غاب مع الألفة. تحفظ ما صح من عملك وتشكر دوام التوفيق إليه، وتسأل القبول من الله. عندئذ يبقى للعمل معنى تعرفه، وإن لم يره أحد أو يسمع لك عليه ثناء.

وإذا أردت متابعة التحسين، فسجل ما تغير في الفعل نفسه: حكم تعلمته، أو حق حفظته، أو طريقة صارت أرفق. هذه معرفة بما عملت، ويبقى تقدير القبول والثواب لله.

الفصل الثامن عشر: توبة ورجاء

ربما خاف المذنب أن يسمي خطأه باسمه؛ لأنه لا يرى وراء الاعتراف إلا الرفض. فيطيل الدفاع عن فعل يعرف قبحه، أو يؤخر التوبة حتى تكتمل صورة يتخيلها للتائب: هدوء لا يعكره خاطر، وعادة تبدلت كلها، وأثر للذنب قد زال. وحاجته أن يعرف فضل من يرجع إليه، وأن يعرف من الرجوع ما يستطيع البدء به الآن.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لله أشد فرحًا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها، ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك؛ أخطأ من شدة الفرح».⁴²

ضاعت عن الرجل أسباب نجاته ثم عادت، فجاء المشهد النبوي بما يعرفه السامع من شدة الفرح بعد اليأس. ونتلقى الخبر عن فرح الله بتوبة عبده على الوجه اللائق به، من غير

42 مسلم، الصحيح، كتاب التوبة، باب في الحز على التوبة والفرح بها، حديث أنس، رقم 2747.

تشبيهه بخلقه أو ادعاء كيفية. يعرف المذنب عظمة فضل ربه على التائب، فيجد ما يعينه على الاعتراف والرجوع. هذه المعرفة تحرره من حاجته إلى تزيين الذنب. يستطيع أن يقر بأنه فعل ما لا ينبغي، وأن يرجو المغفرة وهو يواجه الحقيقة. وربما كان قبل ذلك يؤخر التوبة لأنه يتوهم رفضها، ثم يرى في طول التأخير دليلاً جديداً على بعده. الخبر الصادق يقطع هذا الدوران، ويدله على باب يرجع منه إلى ربه بدل أن يستمد معرفة الرحمة من شعوره بالذنب وحده.

قرار حاضر

تقتضي التوبة الإقلاع عن المعصية، والندم عليها، والعزم الصادق على عدم العودة، وإصلاح ما تعلق بحقوق العباد على وجهه المشروع. والعزم قرار تتخذه الآن؛ تقصد الترك وتستعين بالله عليه، وتقطع ما استطعت من أسباب العثرة. أما ضمان عصمة نفسك في مستقبل لا تعلمه، فليس مما تملكه حتى تجعله شرطاً للبدء.

وقد يطول إصلاح بعض الآثار، فيتصور المذنب أن طول الطريق يمنع أصل الرجوع. لكن التوقف عن المعصية والندم والعزم أعمال حاضرة، ويأتي معها القيام بما يلزم من إصلاح الحقوق. يبدأ بما وجب عليه، ويطلب العلم بالطريق الصحيح،

ويعالج ما يستطيع؛ فيصير طول الإصلاح سببًا للاستمرار فيه، بدل أن يجعله حجة لإبقاء المعصية قائمة.

والطريق إلى أداء حق قد يحتاج إلى سؤال. تحب أن ترفع الضرر، وتخشى أن تزيده باعتراف مرتجل أو نشر لما ستره الله. هذه حاجة إلى بيان، وليست إذنًا بابتلاع المال أو استمرار الظلم طلبًا لتجنب الإحراج. تسأل سؤالًا يحفظ خصوصية أصحابه، وتتعلم ما يلزمك، ثم تؤدي الحق على وجهه. ويأتي تفصيل هذا الباب في الفصل الحادي والعشرين. تصور شخصًا اعتاد التساهل في نقل كلام الآخرين ثم تبين له أذاه. هذا مثال منشأ، يبدأ الرجوع فيه بالتوقف والندم وتصحيح ما يستطيع من كلام نشره. وحين يشته عليه ما يلزمه لأشخاص معينين، يطلب العلم به. يكون اهتمامه برفع الضرر أصدق من اهتمامه ببناء صورة للتائب أمام الناس، ويعرف موضع عمله في الأثر الذي أحدثه.

ما يصدق الرجوع

وقد تظهر دمة مع الندم، وقد يرجع إنسان صادقًا وتبقى عينه جافة. شكل التأثير لا يضيف إلى التوبة شرطًا لم يدل عليه الدليل. ينظر المرء إلى قصده وما يتبعه من عمل، ويشكر

الله إذا رق قلبه؛ ثم يقوم بما بقي عليه، دون أن يجعل رقة الساعة شهادة بأن جميع الحقوق قد أدت.

ومثل ذلك التنظيم الذي يستعين به: يغير صفة، ويرتب وقته، ويقلل أسباب العثرة. هذه وسائل نافعة بحسب الحاجة، لكنها قد تتحول في خياله إلى مشهد كامل يجب أن يقع في ليلة. فإذا تأخر بعضه ظن أن التوبة لم تبدأ. يرجع حينئذ إلى واجبه الأقرب، ويستعين بما يخدمه من ترتيب، ويقدر ما يحتاج إلى وقت دون تأخير أصل الإقلاع.

خبر الفرح بالتوبة يعين القلب على هذا الصدق. فالقلب الذي عرف باب الرحمة يستطيع أن يدع دفاعه عن الخطأ، وأن يحتمل مشقة إصلاحه؛ لأن الاعتراف لم يعد في فهمه نهاية الطريق.⁴³ وإذا بقي حياؤه من الذنب، أثمر تواضعًا وشكرًا للستر ورفقًا بالمبتلى. يحفظ لسانه عن التفاخر بما كان، ويقتصر من البيان على ما يحتاجه الإصلاح أو التعليم المشروع.

43 مسلم، الصحيح، كتاب التوبة، باب في الحز على التوبة والفرح بها، حديث أنس، رقم 2747.

ثم تتبين آثار رجوعه في اختيارات صغيرة: يغلق بابًا كان يفتحه، ويعدل كلمة اعتاد إطلاقها، ويتخلى عن تبرير كان يحفظه. يحمل هذه الأعمال إلى الله راجيًا، ويسأله الثبات، ويشكر نعمة العودة. فالخبر الذي طمأنه إلى فضل ربه قد بلغه إلى موضع يمكنه أن يصدق فيه اليوم.

استغفر ربك وأنت تبدأ هذا الرجوع، واسأله توبة نصوحًا ومعونة على إصلاح ما تعلق بك من حقوق. دعاؤك يصحب العمل، ويذكرك بأن نعمة العودة تحتاج إلى شكر وحفظ ومجاهدة.

الفصل التاسع عشر: المقصر الذي يرجع

تبت ثم عدت؛ فهل تكشف العثرة الجديدة أن كل صدق سبقها كان وهماً؟ بهذا السؤال قد ينتقل المذنب من معرفة خطئه إلى إغلاق باب الرجوع على نفسه. يحتاج إلى أن يفرق بين عزم صادق أعقبه ضعف، وبين قصد للمعصية استبقاه وهو يتحدث عن التوبة. كما يحتاج إلى معرفة تعينه على تغيير السبب الذي تتكرر منه العثرة.

عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ فيما يحكي عن ربه عز وجل، قال: «أذنب عبد ذنباً، فقال: اللهم اغفر لي ذنبي. فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنباً، فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب. ثم عاد فأذنب، فقال: أي رب اغفر لي ذنبي. فقال تبارك وتعالى: عبدي أذنب ذنباً، فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب. ثم عاد فأذنب، فقال: أي رب اغفر لي ذنبي. فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنباً، فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، واعمل ما شئت فقد غفرت لك». وفي

رواية هذا الموضع بيّن عبد الأعلى ترده أقل ذلك في الثالثة
أو الرابعة.⁴⁴

يتكرر في الخبر علم العبد بربه ورجوعه إليه: يعرف المغفرة
ويعرف الأخذ بالذنب، ثم يطلب المغفرة بعد كل عثرة. ويبيّن
النووي أن خاتمة الحديث متعلقة باستمرار التوبة كلما وقع
الذنب. فمن فصلها عن هذا الرجوع وجعلها إذنًا مفتوحًا
بالمعصية، فاتته العلاقة التي يقوم عليها الخبر. يسمع المؤمن
سعة الرحمة، ويعرف معها جدية ما يلزمه من الإقلاع.

44 مسلم، الصحيح، كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة،
حديث أبي هريرة، رقم 2758؛ والنووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، شرح
الحديث في الباب نفسه، في النص الإلكتروني للشرح. قوله «اعمل ما شئت» مع استمرار
التوبة، وليس إباحة للإصرار على الذنب.

العزم والخوف من الضعف

قد تقصد ترك الذنب وأنت تعرف ضعف نفسك، فتخاف أن تعود. خوفك من العودة يختلف عن الرضا بها أو ترتيب أسبابها. الأول يدعوك إلى الاستعانة والوقاية، والثاني يحتاج إلى تصحيح القصد نفسه. المطلوب عزم حاضر تعمل بمقتضاه، دون أن تطلب لنفسك ضماناً لمستقبل لا تملكه ثم تؤخر التوبة لأنك تعجز عن تقديمه.⁴⁵

وانظر إلى ما بقي تحت يدك من أسباب الخطأ: هل أنت مستعد لتغييره؟ قد يحتاج بعضه إلى وقت أو مساعدة، فتبدأ بطلبها. وقد تعجز عن بعض الحال، فتفرق بين عجزك عنه وبين اختيارك إبقاء ما تستطيع تغييره. بهذا يصير السؤال قريباً من واقعك، ويظهر لك ما يمكنك فعله بدل الدوران في اتهام عام للنفس.

45 مسلم، الصحيح، كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة، حديث أبي هريرة، رقم 2758؛ والنووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، شرح الحديث في الباب نفسه، في النص الإلكتروني للشرح. قوله «اعمل ما شئت» مع استمرار التوبة، وليس إباحة للإصرار على الذنب.

ولا يجعل تكرر الذنب للتائب حدًا من عند نفسه تنتهي عنده فرص الرجوع. فقد بيّن النووي أن قبول التوبة لا يغلق بتكرر الذنب إذا تجددت حقيقة التوبة.⁴⁶ يعرف المرء هذا فيعود صادقًا، ويعرف خطر التلاعب فيصحح عزمه؛ تبقى سعة الرحمة باعثًا على العودة، وتبقى مسؤوليته عن فعله قائمة.

معرفة تكتسبها من العثرة

تصور إنسانًا يتكرر منه أذى في النقاش حين يغضب. هذا مثال منشأ، يستطيع صاحبه بعد الكف والاعتذار أن يراجع اللحظة التي سبقت أذاه: متى ارتفع صوته؟ ومتى عرف أنه يحتاج إلى السكوت أو تأجيل الكلام؟ ثم يتعلم ما يعينه، ويصلح أثر ما صدر منه. قد يكشف له هذا النظر حلقة مبكرة يستطيع قطعها في خلاف قادم.

وربما اعتاد اعتذارًا يسكن به شعور الذنب دون أن يغير طريقة النقاش. فإذا عرف ذلك، صار رجوعه القادم فرصة لصدق أدق: يعتذر ويعمل على السبب معًا. وقد يتعلم طريقة

46 مسلم، الصحيح، كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة، حديث أبي هريرة، رقم 2758؛ والنووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، شرح الحديث في الباب نفسه، في النص الإلكتروني للشرح. قوله «اعمل ما شئت» مع استمرار التوبة، وليس إباحة للإصرار على الذنب.

للتحقق قبل اتهام غيره، أو يضبط أمانة يتكرر تفريطه فيها، أو يسأل من يعلم كيف يعينه على سلوك مؤذ شديد التكرار. واختيار مساعدة أمينة من أسباب السعي الممكنة. يحفظ صاحبها سره، ويقدر حاجته، ويرجع فيما يحتاج إلى خبرة إلى أهلها. الرجاء يصحب هذا الطلب؛ فحاجتك إلى الله باقية وأنت تتعلم وتأخذ بالسبب. أما ارتجال علاج من نص وعظي، فقد يعجز عن فهم الحال التي تحتاج إلى معرفة مختصة.

مراجعة تحفظ الجدية

قد يخفف الإنسان عن نفسه بمقارنة ذنبه بما يفعله غيره، أو يبالغ في وصف نفسه بالهلاك حتى يغيب سؤال الإصلاح. في الحالتين ينتقل النظر من فعل معلوم إلى حكم واسع لا يبين الخطوة التالية. أقر بما وقع منك، وجدد توبتك، وحدد ما يمكن تغييره؛ فسجل الناس لا يحمل عنك مسؤوليتك، وذم النفس كله لا يصلح ما أفسدته.

واجعل مراجعتك أوسع من سؤال «هل أخطأت؟» وحده. اسأل أيضًا: هل بادرت إلى الكف؟ وهل أصلحت ما يلزمك؟ وما السبب الذي عرفته الآن؟ هذه الأسئلة تحفظ المعرفة النافعة دون أن تهون الذنب. وقد تجد تقدمًا في بعض جوانب المحاسبة مع بقاء حاجة إلى جهد في غيرها، فتأخذ كل جانب بما يصلحه.

إذا أردت ترتيب ذلك، فاكتب لنفسك ثلاث حلقات سبقت خطأ متكررًا، واختر أقدم حلقة تستطيع تغييرها. وحدد ما فعلته بالفعل، وما لا تزال تحتاج فيه إلى معونة. احتفظ بالسجل خاصًا، واستعن بمن تثق بعلمه وأمانته عند الحاجة. ولتكن هذه المراجعة عونًا على توبة تجدها، حتى تصير كل عودة أصدق معرفة بضعفك وما يلزمك وبسعة رحمة ربك.

الفصل العشرون: العامل يخاف الرد

قالت عائشة رضي الله عنها: سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ﴾ [المؤمنون:60]، قالت عائشة: أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: «لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون، وهم يخافون أن لا يقبل منهم، أولئك الذين يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون».⁴⁷

يكشف السؤال والجواب معنى يحتاجه العامل: قد يخاف وهو يؤدي الطاعة؛ يعرف عظمة من يقدم إليه، ويعلم حاجته إلى الإخلاص والإحسان، فيرجو القبول ويخشى الرد. وفي ختام الحديث تظهر ثمرة هذا الوجل: المسارعة في الخيرات. فالخوف حاضر في عملهم، والعمل مستمر معه، ومن اجتماعهما يفهم المقام.

وقد يظن من لا يعرف هذا الفرق أن كل خوف بعد العبادة شهادة على وقوع معصية فيها، أو أن الطاعة الصادقة تمنحه طمأنينة تقطع بالقبول. لكن العمل له أحكام تعرف، والقبول

47 الترمذي، الجامع، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة المؤمنون، حديث عائشة، رقم 3175؛ صححه الألباني في صحيح الترمذي، رقم 3175.

يسأل من الله. يبذل العبد ما يستطيع من إحسان، ثم يقف موقف السائل المفتقر، ويستقبل ما بقي من الخير بعزم جديد.

صحة العمل وسؤال قبوله

للعمل صحة في أحكامه الظاهرة، وللعامل سؤال في قبوله عند الله. يمكن أن يؤدي العبادة على وجهها، ويظل يسأل ربه القبول. قلقه وحده لا يقتضي أن يعيدها، كما أن غياب شعور يتوقعه لا يثبت بطلانها. وإذا عرض شك في شرط أو ركن، طلب حكمه ممن يعلم تفصيله؛ فلكل مسألة ما يبينها، ولا يجمعها حكم تربوي واحد.

تصور رجلاً تصدق ثم لاحظ أنه أحب ثناء من رآه. هذا مثال منشأ، يقدر صاحبه على مجاهدة الميل ومراجعة القصد والاستغفار مما علمه من خلل. ويستطيع أن ينتفع بما ظهر له في عمل قادم. أما إصدار حكم قاطع على جميع صدقاته من شعور واحد، فيتجاوز ما عرفه؛ وكذلك إهمال ما يحتاج إلى إصلاح يفوت عليه معرفة نافعة.

ويحفظ في مراجعته الفرق بين خاطر يعرض ويكرهه، وقصد يختاره ويرضاه ويستقر عليه. فقد يتوهم أن خوفه من الرياء رياء جديد، ثم يجعل استعاذته منه تهمة أخرى، حتى ينقطع عن الفعل. المراجعة النافعة تتجه إلى قصد يعرفه، وخلل ظهر

له، وعمل يستطيع إحسانه. يتعلم ويستعين بالله ويمضي فيما شرع له.

ما الذي تبحث عنه بعد الطاعة؟

سؤال القبول اعتراف بأن الفضل لله. أما طلب شهادة ظاهرة تقطع به، فقد يدفع الإنسان إلى مراقبة دموعه ومنامه وما يحدث له بعد العبادة. يتخيل علامة ثم يؤول الوقائع على قدر ما توقع، وإذا غابت العلامة عاد إلى القلق. الحديث يبين المسارعة مع الخوف، دون أن يكلف العامل بهذا التفتيش.⁴⁸ وقد يحب أن يرى نفسه شديد الوجل، فيكثر لومها ليحفظ هذه الصورة. ينتقل حينئذ اهتمامه من العمل إلى هيئة المحاسب في نظر نفسه. فإذا وجد المراجعة تعيد الشعور ذاته دون علم أو إصلاح، رجع إلى سؤال أنفع: ما الذي تبين لي ويمكنني تصحيحه؟ يكفيه من النظر ما يزيده صدقاً وامتنالاً، ويعينه على الخير الذي يستقبله.

ومقدار الألم بعد العبادة لا يجعل القبول معلوماً. فقد يشد لوم النفس ويقل العمل، وقد يرجع الإنسان إلى ربه بقلب مفتقر ثم يواصل واجبه وهو أهدأ. نأخذ من الحديث أثر

48 الترمذي، الجامع، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة المؤمنون، حديث عائشة، رقم 3175؛ صححه الألباني في صحيح الترمذي، رقم 3175.

الوجل في المسارعة، ونحفظ للأعراض النفسية أسبابها وحاجتها إلى فهم مستقل؛ فلا يصبح القلق الشديد غاية تربوية أو شهادة بمحبة خاصة.

ولعل العامل يحتاج في يومه إلى مراجعة قصيرة واضحة، بدل جلسة طويلة يعيد فيها اتهام نفسه. يرى ما علم من تقصير فيستغفر ويصلح، ويرى ما وفق إليه فيشكر، ويسأل القبول. ثم يعطي العبادة التالية حقها من الاستعداد. بهذا يتوزع اهتمامه بين الماضي الذي يمكن تدارك شيء منه والحاضر الذي ما زال قادرًا على عمله.

حين تسمع نقدًا

من يرجو قبول عمله ينتفع ببيان نقص فيه، وإن ثقل أول سماعه. يسأل عن الجزء الصحيح من النقد، وعن الإجراء الذي يزيد العمل إحسانًا. يأخذ ما ثبت، ويحفظ ما صح من الخير السابق؛ لأن ظهور حاجة إلى تحسين لا يلزم منه أن كل ما مضى باطل.

وله أيضًا أن يرفض الإساءة ويحفظ كرامته. قبول الحق لا يجعل الإهانة شرطًا لتعلمه، وسوء أسلوب الناقد لا يزيل صحة ملاحظة ثبتت. يفصل الأمرين، فيحسن الاستجابة لما

ينفعه، ويمنع أن تصبح الخصومة في الأسلوب سببًا لإبقاء خلل عرفه في العمل.

ويظل للآخرين حد فيما يقولون عن عبادته. يقدرّون بيان حكم معلوم أو خطأ ظاهر، أما القطع بقبوله أو رده فمن الغيب الذي لا يملكونه. وهذا الحد نفسه يحفظ العامل حين ينصح غيره: يبين ما يمكن إصلاحه، ويذكره بالافتقار، ويترك العلم بالسرائر لله.

اسأل الله أن يتقبل ما قدمت، واعتن بخلل علمته، ثم أعط الخير التالي نصيبه من وقتك. فالوجل الذي صحب أهل الطاعة في الحديث كان حاضرًا وهم يسارعون؛ وليكن سؤالك عن القبول باعثًا على هذه المسارعة التي تستطيعها.

الفصل الحادي والعشرون: بعد الذنب

قد يخف عن المسيء ألم ذنبه بعد الاستغفار، ويبقى على المتضرر أثره: مال لم يرد، أو معلومة أفسدت سمعته، أو عمل تعطل، أو ثقة انكسرت. لذلك يحتاج الرجوع إلى أن يبلغ المظلمة نفسها. فصاحب الحق يعيش ما أحدثه الفعل، وربما كان ينتظر إجراء يصلحه بينما ينتظر المعتذر كلمة تطمئنه. قال رسول الله ﷺ: «من كانت له مظلمة لأحد من عرضه أو شيء فليتحلله منه اليوم، قبل أن لا يكون دينار ولا درهم». وفي تمام الحديث بيان أخذ الحقوق يوم القيامة.⁴⁹ يعيد استحضار الحساب إلى إصلاح المظلمة جديته: ما تعرفه من حق يؤدي، وما يشكل طريقه يسأل عنه، وخرج اللقاء يحتاج إلى احتمال ما يلزم منه للوفاء.

ابدأ بتحديد الفعل: ماذا صدر منك؟ ومن تضرر به؟ وأي أثر ما زال قائماً؟ وما الذي تقدر على إصلاحه الآن؟ إذا وضحت المسؤولية، صار الاعتذار والوفاء أقرب إلى الصدق. أما الاعتذار العام الذي يطلب نسيان الماضي، فقد ينهي الحديث دون أن يبين لصاحب الحق ماذا تغير فيما أصابه.

49 البخاري، الصحيح، كتاب المظالم، باب من كانت له مظلمة عند الرجل فحلها له هل يبين مظلمته، حديث أبي هريرة، رقم 2449.

الفعل الذي يتبع الكلام

تصور إنساناً نقل معلومة أضرت بعمل زميله. هذا مثال منشأ، يلزمه فيه أن يكف عن تكرارها، وأن يصحح ما يستطيع في موضعه المناسب، وأن يتحمل ما عليه من تبعة. يكتب اعتذاراً خاصاً، لكن المعلومة قد تبقى منشورة يراها الناس؛ فيحتاج أثرها العلني إلى إصلاح يناسبه، بقدر الحق والقدرة والعلم بالطريق.

وقد تتشابك المسؤوليات فيسأل أهل العلم أو الجهة المعنية بما يحفظ حقوق أصحابها. فالمظالم المالية والغيبة والإتلاف والأذى المستمر تتفق في وجوب الرجوع وأداء ما يلزم، وتختلف في تفاصيل الطريق. وقد يوقع كشف بعض الأمور ضرراً جديداً؛ لذلك تثبت الأصول، ويطلب البيان في التطبيق المشكل بدل ارتجال طريقة واحدة لجميع المظالم.

وحين تتعدد الحقوق، ينفع سجل خاص يميزها بقدر الحاجة: مال، وتصحيح معلومة، واعتذار، وسؤال عن حكم. تعرف به ما أدّيت وما بقي، ويحفظ خصوصيات الناس. وقد تحتاج إلى جهة تقدر على ضبط الوفاء أو إلى عالم يبين الحكم؛ فالرجاء يحملك على طلب طريق يصلح الحق، ولو كان تعلمه أشق من اعتذار يريحك سريعاً.

ويحتاج الكلام نفسه إلى صدق. تعترف بالمسؤولية التي تعرفها، وتبين ما ستصلحه، وتحفظ ما لا يحق لك كشفه. أما قول «إن كنت قد تضايقت» فقد يجعل موضع المشكلة شعور المتضرر، ويغفل الفعل الذي صدر منك. يتناسب البيان مع المسؤولية، دون تصغير مراوغ أو توسيع مصطنع يوقع التزاماً لم يتبين.

ثم يصدق الكلام إجراء يقلل تكرار الأذى. من أخطأ في نقل معلومة يراجع طريق التحقق، ومن فرط في أمانة يجعل لها ضبطاً يناسبها، ومن آذى في نقاش يغير طريقة دخول الخلاف. وقد يطمئن صاحب الحق إلى فعل يمكن مراجعته أكثر من وعد عاطفي واسع يعجز المعتذر عن الوفاء به.

حق المتضرر في اختياره

العفو له فضله، وطلبه يبقى طلباً ممن يملكه. فلا تضغط على المتضرر بأن تربط حبه لرحمة الله بسرعة مسامحته لك، ثم تجعل تأخره قسوة. ربما احتاج إلى فهم ما وقع وإلى أن يرى تصحيحاً يحفظه من عودته. حقه لا يزول لأنك ندمت، وحاجته إلى الاطمئنان لا تقاس بسرعة زوال حرجك.

وقد يعفو في أمر، ويبقى محتاطًا في تعامل لاحق. تحمل هذا الاحتياط بإنصاف؛ فالاعتذار لا يمنحك سلطة على ثقته أو يعيد القرب السابق بكلمة. تعمل فيما تملكه من وفاء، وترجو أن يصلح الله ما بينكما، وتدع للثقة ما تحتاج إليه من فعل وزمن. هذا من تحمل تبعة الخطأ، ومن حفظ اختيار صاحبه.⁵⁰ وإذا صار الاعتذار قصة ترويتها طلبًا للثناء، فراجع ما يحتاجه الإصلاح فعليًا. قد تقتضي الأمانة بيانًا أو توثيقًا، فيقتصر على موضع الحاجة ويحفظ الخصوصية. أما جعل المتضرر جزءًا من صورتك الأخلاقية الجديدة، فقد يجدد عليه أذى كنت تترجو إزالته. تستطيع أن تؤدي حقه وأن تطلب الإخلاص دون جمهور يشهد لك بالشجاعة.

الممكن الذي يلزمك

ربما عجزت عن إعادة كل ما فات، وبقي عليك ما تستطيع أدائه الآن. تعرف هذا المقدار وتقوم به، وتسأل عن غيره. صعوبة الكمال لا تسقط الممكن الواجب، كما أن غضب صاحب الحق لا يبيح لك أن تعده بما تعرف عجزك عنه

50 البخاري، الصحيح، كتاب المظالم، باب من كانت له مظلمة عند الرجل فحلها له هل يبين مظلمته، حديث أبي هريرة، رقم 2449.

لتسكنه مؤقتًا. يحتاج الإصلاح إلى وعد صادق يوازي فعلًا مقدورًا، وإلى بيان حدود ما تملكه.

وقد لا تظهر نتيجة الإصلاح بسرعة، فيغريك التعب بالعودة إلى سؤال راحتك وحدها. ارجع إلى الحق الذي حددته: هل رددت المال؟ هل صحت المعلومة؟ هل توقفت عن الأذى؟ هذه أفعال يمكن معرفة حالها، بينما الثقة والشعور بالاطمئنان لهما طريقتهما الذي لا تفرضه على الطرف الآخر.

اختر حقًا تعرف تعلقه بك، وحدد ما يمكن أدائه وما يحتاج إلى سؤال وخطوة تالية. اجعل سجل ذلك خاصًا، واحفظ أسماء أصحابه وتفاصيلهم. وحين يبلغ رجاؤك هذا الموضع، يصير في حياتهم عدلاً يلمسونه، وفي توبتك وفاءً تستعين بالله عليه.

الفصل الثاني والعشرون: السبب والتفويض

مضى الأمر على غير ما أردت؛ فما الذي بقي في يدك؟ قد تملك مراجعة قرار، أو أداء حق، أو تغيير وسيلة، لكنك لا تملك إعادة الماضي ليقع على الصورة التي تمنيتها. معرفة هذا الفرق تحفظ ما بقي من قدرتك، وتعين قلبك على أن يحمل من العثرة علمًا ينفعه بدل أن يبقى أسيرًا لنتيجة فاتت.

جمع حديث «أحرص على ما ينفعك» بين السعي والاستعانة والتسليم لما يقع.⁵¹ وقد تقدم ما يدل به على منزلة السبب؛ والمقصود هنا أن يبلغ هذا الفهم ما بعد بذله. تحرص على العمل وتحسن طريقه، فإذا وقع ما خرج عن قدرتك سلمت الأمر لله، ثم رجعت إلى مجال الفعل الذي بقي لك. مسؤوليتك عن السعي معلومة، أما السلطان على جميع نتائجه فليس مما أوتيت.

51 مسلم، الصحيح، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله، حديث أبي هريرة، رقم 2664.

مراجعة الأُمس

في المراجعة تسأل عما كان متاحًا من معلومات، وما أغفلته من سبب، وما يحتاج إلى تصحيح في المرة المقبلة. أما الاستغراق في مطالبة الواقع بأن يعود كما أردت، فيعيد عليك الخسارة دون أن يضيف علمًا. يحفظ تمام الحديث قلبك من هذا الاستغراق، وتبقى لك فائدة التعلم من قرارك والعمل بما ظهر.⁵²

وقد تأتي نتيجة سيئة مع أن الطريق كان معقولًا حين اتخذته. لم تكن تعلم جميع ما ظهر بعد ذلك؛ فراجع قرار الأُمس بمعلوماته، وأضف ما تعلمته إلى قرار الغد. وإذا ثبت تقصير، أقر به وأصلحه. تستطيع الاعتراف بالخسارة دون اختراع تقصير لم يتبين، كما تستطيع الاعتراف بتقصير حقيقي دون الجزم بأنه يفسر كل ما خسرت.

وما علمته من ذنب في الطريق تستغفر منه وتتوب، وما تعلمته من ضعف في التقدير تصلحه بالعلم. تأخذ كل خلل بما يناسبه، ويبقى رجاؤك معينًا على مواجهة المسؤولية.

52 مسلم، الصحيح، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله، حديث أبي هريرة، رقم 2664.

والتفويض يشمل ما تجهل سببه. قد يتأخر مطلوبك، فتبحث عن تفسير يريحك أو يخيفك؛ لكنك لا تعلم أن التأخر شهادة برفضك عند الله، ولا تعرف منه مقدار اختبار مخصوص لصدقك. تؤمن بحكمة ربك، وتقر بجهلك بالتفصيل، وتراجع ما في وسعك من عمل. هذه المعرفة المحدودة تكفي لخطوة مسؤولية، وإن لم تمنحك تفسيرًا لكل الماضي.

غاية باقية وطريق يتغير

ربما اخترت خطة ودافعت عنها وأنفقت فيها زمنًا، ثم تبين أنها تحتاج إلى تعديل. قد يثقل التغيير لأنك ربطت الخطة بصورتك عن نفسك؛ كأن مراجعتها تنقض كل ما أحسنت من قبل. ردها إلى حجمها: هي تقدير تتعلم من تجربته. تحفظ ما بقي صالحًا، وتصلح ما ظهر خلله، وتسال العون على الأمر التالي.

تريد نفع متعلمين، ثم يتبين أن موعد الدرس يعجزهم عن الحضور. الغاية باقية، والموعد قابل للتغيير. وتريد كفاية أسرتك، ثم تضيق مهنة اعتدتها؛ فتسال أهل الخبرة عن الطريق الذي يلائم قدرتك ويحفظ الحقوق. الرجاء بالله يصحب مراجعة الوسيلة، ولا يجعل تقديرك الأول معصومًا من التصحيح.

وتصور أسرة تسعى إلى إصلاح خلاف، ثم تجد أن الحوار الثنائي يعيد الأذى. هذا مثال منشأ، قد تحتاج الأسرة فيه إلى وسيط أمين أو جهة تحفظ الحقوق. طلب المعونة يفتح سبباً مناسباً بدل الاستمرار في طريقة ظهر ضررها. يبقى رجاء الإصلاح حاضراً مع مراعاة السلامة والعدل، ويتحدد الفعل بما يعرفه أهله من الحال.

وهنا يفيد التفريق بين الصبر على مشقة الطريق وبين إبقاء وسيلة مؤذية. قد تحتاج إلى احتمال كلام صادق يبين مسؤوليتك، وقد تحتاج إلى تغيير كيفية اللقاء لأنها تزيد الضرر. تسأل عما يصلح الحق، وتستعين بمن يقدر على بيان الطريق. فالتفويض يعينك على احتمال ما لا تملكه، ويصحب اجتهادك فيما ما زال قابلاً للإصلاح.

الاستبشار والاستعداد

قد تظهر علامة خير فتفرح بها، وتتوقع نفعا على قدر ما تعرف من الأسباب. تستبشر وتسأل الله التيسير، ويبقى كلامك على حد الرجاء والتقدير البشري. أما القطع بالغيب أو ضمان نتيجة بعينها، فيجاوز ما أعطتك إياه العلامة. تستطيع أن تبقى دافئ الرجاء واضح العبارة، وأن تترك لما لا تعلمه مكانه.

والاستعداد لاحتمال آخر يمكن أن يحفظ حقًا أو يقلل ضررًا. ترتب الأسرة ما قد تحتاجه، ويحفظ العامل وقته وماله، ويضبط صاحب الأمانة حسابه. هذه أعمال مسؤولية تصحب الدعاء، ويؤخذ منها ما يناسب الحاجة ضمن المشروع، دون استرسال في احتمالات يشغل المرء عن أصل حياته.

وقد يكون أنفع ما تفعله بعد التعثر أن تعين سؤالًا واحدًا بقي بلا جواب، ثم تطلب له البيان. وربما كان عليك حق تؤديه قبل خطة جديدة، أو وسيلة تبين بوضوح أنها تحتاج إلى تغيير. تحديد هذا المقدار يردك إلى خطوة تعرف وجهها، ويخفف حاجتك إلى حسم كل المجهول دفعة واحدة.

يحمل العبد من الماضي العلم الذي نفعه والحق الذي بقي عليه، ويسأل الله أحسن الأسباب لما يستقبل. اللهم أعنا على بذل ما في وسعنا، وارزقنا التسليم لك فيما قضيت. وما خرج عن قدرتنا نفوضه إليك، ونحن نتعلم كيف نحسن العمل في الذي أبقيته في أيدينا.

الفصل الثالث والعشرون: العمل قبل الثمرة

بدأت عملاً نافعاً، ثم تأخرت ثمرته. تعلمت فلم يرسخ ما تعلمت، أو سعيت إلى إصلاح عادة فبقي منها ما يؤلمك، أو اعتذرت ولم تعد الثقة سريعاً. في هذه المسافة تحتاج إلى معرفة ما يطلبه الانتظار: دوام في أصل صحيح، أو تحسين طريق، أو استكمال ما يلزم، أو صبر على ما لا تملك تعجيله.

ومن أدب الدعاء ألا يتركه صاحبه لاستبطاء الإجابة. قال رسول الله ﷺ في بيان الاستعجال: «يقول: قد دعوت وقد دعوت، فلم أُرِ يستجيب لي، فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء». وورد قبل ذلك النهي عن الدعاء بإثم أو قطيعة رحم.⁵³ تدعو بمطلوب مشروع وتستمر، وتعرف أن وقت الإجابة ليس مما تفرضه على ربك.

ويحتاج تنزيل هذا المعنى على حياتك إلى تمييز الدعاء عن خطتك العملية. الدعاء عبادة تداوم عليها، والوسيلة يراجع نفعها بحسب ما يظهر من معلومات. قد يكون بقاء أصل السعي صحيحاً، وتحتاج طريقته إلى إصلاح؛ فلا يحميها

53 مسلم، الصحيح، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب بيان أنه يستجاب للداعي ما لم يجعل فيقول دعوت فلم يستجب لي، حديث أبي هريرة، رقم 2735.

طول الانتظار من النقد، ولا يمنح تكرارها وحده وعدًا بالنجاح.

ماذا تفعل في زمن الانتظار؟

تصور متعلمًا يقرأ دون أن يفهم، ثم ينسى معظم ما قرأ. هذا مثال منشأ، يستطيع صاحبه تقليل المادة واختبار فهمه وسؤال ما أشكل وتخصيص وقت للمراجعة. وقد يتأخر رسوخ التعلم، لكنه صار يعرف من جودة وسيلته أكثر مما عرفه من مجرد عدد الصفحات. يستفيد من هذه المعرفة دون أن يجعل حصيلته شهادة بمحبة الله له أو حكمًا نهائيًا على قدرته.

وللمعلم انتظار آخر: يريد أثرًا طيبًا في طلابه، فيراجع عدله وحسن بيانه واتساق قوله وفعله. ومن يريد إصلاح علاقة يراجع إنصاته ووفاءه بما وعد. هذه جوانب يستطيع أصحابها العمل عليها؛ أما تحول الطرف الآخر في موعد يحدونه له، فليس مما يقدرّون على ضمانه. يبقى الرجاء باعًا على النصح المشروع، مع حفظ اختيار الآخرين وحدود الضغط عليهم.

وقد ينتظر صاحب حق إجراء، فيستكمل المستندات التي تلزمه ويتابع في وقته. وفي هذا المثال يظهر عمل قريب داخل انتظار لا يستطيع اختصاره متى شاء. يفيد أن يعرف

من أهل الخبرة ما ينقص الخطوة وما يحتاج إلى وقت؛
 فزيادة الجهد في غير موضعه قد تشغله دون أن تزيد صلاح
 الوسيلة.

قراءة المؤشرات

قد يكون أول ما تكشفه المراجعة خطأ لم تكن تنتبه إليه.
 بدأت تنظر في كلامك فلاحظت مقاطعات كثيرة، فخشيت
 أنك صرت أسوأ. ربما زاد الخطأ، وربما اتسعت معرفتك به؛
 يحتاج الأمر إلى نظر في الفعل نفسه. اسأل عما تغير بالفعل،
 وما كنت تفعله دون انتباه، وما استطعت إصلاحه بعد أن
 عرفت. بهذا تحفظ الاحتمالات حتى تتبين، بدل اعتماد
 تفسير مريح أو مخيف من أول ملاحظة.

وفرّق بين جودة الفعل وحصول النتيجة. في التعلم تستطيع
 متابعة مقدار الفهم وطريقة المراجعة، وتبقى للرسوخ مدة
 تختلف بحسب العمل وحال صاحبه. وفي الخدمة تعرف ما
 أنجزت وما احتاج إلى إصلاح، وقد تتأخر بعض آثاره عنك.
 اختيار مؤشر مناسب يعينك على المراجعة، دون أن يحول
 المؤشر إلى وعد بأن كل زيادة في الجهد تختصر الانتظار.
 وإذا عرفت ما عليك وأديته، فلا يلزم أن تتفقد النتيجة كل
 ساعة. اجعل للمتابعة وقتًا يناسب الحاجة، وارجع إلى سائر

حقوقك. ما زالت لك عبادة وأهل وعمل وشكر في الأيام التي لم يظهر فيها مطلوبك؛ والرجاء يعينك على أن تتسع حياتك لها، بدل أن يجتمع انتباهك كله عند باب تنتظر فتحه.

التصحيح الذي قد يبدو توقفاً

ربما أنفقت في وسيلة زمناً فثقل عليك تركها، فأردت زيادة الإنفاق لتثبت أن الماضي كان صائباً. لكن نفع القادم يقدر بما يصلح له، لا بمجرد ما مضى. إذا ظهر خلل الوسيلة، فاسأل أهل المعرفة، ووازن ما بقي من كلفة ونفع، واحفظ الحقوق المتعلقة بتغييرها. الرجاء بالله يتسع لتصحيح المسار بعد طول السعي.

وقد تحتاج إلى تخفيف مقدار التطوع أو التعلم أو الخدمة ليتناسب مع القدرة. تعالج التعب الحقيقي، وتستشير فيما يحتاج إلى بيان، وتبقي لكل واجب حكمه وما يجب عليك فيه بحسب استطاعتك. دوام الإنهاك ليس معيار صدق، كما أن مجرد الرغبة في الراحة لا يبين وحده ما يلزم تركه أو استمراره.

فليكن المقدار الذي تختاره قابلاً للمتابعة، حتى تعرف أثر التعديل وتراجع ما ظهر فيه من حاجة.

ومن الدقة أن تحدد سبب التوقف أو التعديل قبل اتخاذها. هل ظهر خلل يمكن إصلاحه؟ أم طرأ عجز يحتاج إلى ترتيب آخر؟ أم أنك تطالب العمل بثمره أسرع من طبيعته؟ قد تختلف الإجابات، ويتغير معها القرار. إنصاف هذه الأسئلة يحفظك من تهوين كل عثرة ومن اعتبار كل استمرار فضيلة. اختر عملاً بطيء الثمرة، وحدد له مؤشراً يتعلق بجودة فعلك وآخر يتعلق بنتيجته. راجع الأول في وقت قريب، وأعط الثاني مدته المعقولة بحسب طبيعة العمل، دون مهلة مصطنعة أو وعد غيبي. بهذا يبقى للانتظار علم وعمل ودعاء يصحبه.

الفصل الرابع والعشرون: لا وعد خاص

ستشفى قريبًا، وسيعود ما فقدت، وستجد هذا العام عوضًا بعينه؛ قد يقولها الناصح ليخفف عن مبتلى، لكنها تحمل إليه موعدًا وصورة لم يعلمهما. وربما سكن السامع في لحظة الكلام، ثم خالفت الأيام ما وعد به، فبقي مع ألم المصيبة وألم انتظار ربطه الناصح بالله. لذلك تحتاج الرحمة في المواساة إلى أمانة في العبارة.

الوعد الذي جاء به الوحي حق، يصدق كما ورد ويفهم بشروطه وسياقه. وأما تعيين عطاء دنيوي لشخص أو وقت لحصوله، فيحتاج إلى دليل يدل عليه. نية إدخال السرور لا تمنح علمًا بالغيب، وتأثر السامع لا يصحح نسبة لم تثبت. يقدر الناصح أن يبشر بما علم، ويبقى واسع الرجاء فيما يجهل تفصيله.

وفي حديث الاستجابة الذي تقدم حث على دوام الدعاء وتحذير من الاستعجال، دون أن يمنح الداعي حق تحديد المدة.⁵⁴ نذكر سعة فضل الله وما ثبت من أجر الصبر والعمل، ونعين على الأسباب. وإذا فصلنا صور إجابة الدعاء احتجنا إلى توثيق ألفاظها في موضعها؛ فالقصة المؤثرة أو الجملة المشهورة لا تغني عن ثبوت الخبر ودلالته.

ماذا تقول هذه العبارة؟

قولك «أَسأل الله أن ييسر لك» دعاء، وقولك «أرجو لك التيسير» رجاء، وقولك «تدل المعطيات التي نعرفها على فرصة جيدة» تقدير بشري يحتاج إلى بينته وحدوده. أما قولك «وعدك الله بهذه النتيجة في هذا الموعد» فنسبة وعد إلى الله. قد تتشابه حرارة هذه العبارات في مجلس المواساة، ويختلف ما تدعيه كل واحدة ومصدر صدقها.

يحفظ وضوح الكلام هذا الفرق للسامع. إن كنت تدعو فاجعل العبارة دعاء ظاهرًا، وإن توقعت بحسب خبرة فبين حدها وقابليتها للخطأ، وإن نقلت وعدًا شرعيًا فاحفظ لفظه وما يدل عليه وشروطه. هكذا يعرف المحتاج أين تنتهي معرفتك، فلا

54 مسلم، الصحيح، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب بيان أنه يستجاب للداعي ما لم يجعل فيقول دعوت فلم يستجب لي، حديث أبي هريرة، رقم 2735.

يحمل رجاءك الشخصي على أنه خبر من الوحي، ولا تجربة ناجحة على أنها قانون لكل مبتلى.

وفي مثال للمواساة، تستطيع أن تقول للمريض: أسأل الله لك العافية، وأنا معك فيما تحتاج إليه من عون. وتقول لمن تعثر: ما زالت أسباب يمكن مراجعتها، ونرجو لك الخير. يبلغ الكلام قلب صاحبه بالرحمة التي فيه، ويبقى قادرًا على الرجوع إليه إذا تأخرت النتيجة؛ لأن الدعاء لم يتبدل إلى ضمان.

وقد تكون المواساة خدمة قبل أن تكون شرحًا: تقضي حاجة، أو تحفظ خصوصية، أو تعين على ترتيب أمر، أو تسمع السؤال. لا يتوقف نفعك على تفسير سبب المصيبة؛ فكثير من تفاصيل الحكمة غائب عنا. تعرف عدل الله ورحمته، وتقر بأنك لا تعلم هذا التفصيل، ثم تؤدي ما في يدك من حق ومعونة.

التجربة وحدها لا تعين الوعد

قد يحكي إنسان أنه دعا الله ثم فرج عنه في اليوم نفسه. نحمد الله على فضله عليه، وتبقى مدة تجربته خاصة بما وقع له. وقد يذكر عملاً صالحاً داوم عليه، فيرغب الناس في أصله المشروع. أما القطع بأنه السبب الخاص لما حصل، ثم وعد

الآخرين بالنتيجة نفسها، فيحتاج إلى علم زائد لا تمنحه الحكاية وحدها.

وحين تنشر التجربة، يراها قراء لم يعرفوا ظروف صاحبها. قد يحذف الناقل زمن السعي أو المعونة أو اختلاف الحال، فتصير خاتمتها في أعينهم معادلة مختصرة. من الأمانة أن تذكر حدود ما تعلم، وأن تبقي التجربة تجربة، وتقدم النص الثابت بما يدل عليه. فاختلاف الأسباب والأقدار لا يحسمه حذف التفاصيل التي كانت تحيط بالقصة.

ويمتد هذا إلى عنوان يعد بفرج خلال أيام، أو يعلق نتيجة معينة بعدد غير ثابت من عمل. كثرة الانتشار لا تثبت الإضافة. قبل النقل اسأل عن أصل النص وثبوته، ثم عن دلالة على الوقت والشخص والصورة المذكورة. قد تكون العبادة مشروعة، وتبقى الزيادة التي علقت عليها النتيجة غير ثابتة؛ فينتفع القارئ بالأصل مع حفظ حد الاستدلال.

معونة تستطيع الوفاء بها

تستطيع أن تمنح من تحب وعدًا تملكه على قدر استطاعتك: تسألون معًا من يبين الطريق، أو تتابع حاجة محددة، أو تدعو له وتؤنسه. بين له ما تقدر عليه، وأدّه؛ فيجد مودة لا تنتهي لأن النتيجة تأخرت، ومعونة يستطيع أن يعرف موضعها. وقد

يكون صدق هذا الحضور أثبت في قلبه من تفسير واسع لا دليل عليه.

وإذا تعذر عليك بعض ما عرضت من عون، فأخبره بما تغير دون أن تستبقي وعدًا تعلم عجزك عنه. أمانة المواساة تشمل نسبته إلى الله، وتشمل ما تلزم به نفسك أمام الناس. يظل للكلمة دفؤها حين يعرف صاحبها أنك تحترم حاجته وتصدق في حدود قدرتك، وأن تأخر المطلوب لا يخرجك من صحبتك ودعائك.

قبل إرسال كلمة مواساة، اقرأها على احتمال تأخر النتيجة: هل يبقى معناها صادقًا؟ أبق فيها الدعاء والرجاء والخبر الثابت وما تملك من عون. ليجد من يقرأها رحمة تصحبه بعد المجلس، وصدقًا يحفظ صلته بالله مما لم يقله الله ولم يعلم الناصح وقوعه.

الباب الرابع: بين الخوف والرجاء

يلتفت القلب إلى الرحمة وإلى الحساب، ويحتاج في كل حال إلى ما يصحح سيره. يعرف المخاطب حاجته، ويستعين بالنصح الذي يجمع العلم والرفق وحفظ الحقوق.

الفصل الخامس والعشرون: جناحان

قد يرجو العبد قبول عمله، ثم يخاف أن يكون قصّر فيه، فيحسب أن أحد الشعورين يناقض الآخر. والذي جمعهما هو معرفته بربه وبنفسه؛ عرف فضل الله فطمع فيه، وعرف حاجته إلى إحسان العمل فخشي ما يفسده. يمضي إلى الطاعة من بين هاتين المعرفتتين، يرجو العون والقبول، ويتعاهد ما أمر به.

ومن هنا ينفع تشبيه الخوف والرجاء بجناحي الطائر؛ إذ يقرب حاجة القلب إليهما في سيره. وقد يحمل بعض الناس الصورة على حساب المشاعر، فيطلب نصفًا من الخوف ونصفًا من الرجاء، أو يفتش كل ساعة عن مقدار ما يجده. وإنما المقصود اجتماع الخشية والرغبة في العبودية. صورة الطائر تعين على فهم هذا الاجتماع، وأما مقادير الانفعال وتوزيع الأوقات فلا تؤخذ منها.

ويقرر ابن تيمية، في كلامه على دعاء العبادة ودعاء المسألة في مجموع الفتاوى، أن العابد الذي يريد وجه الله والنظر إليه يبقى راجيًا خائفًا؛ يرجو مطلوبه ويخاف فواته. ويناقش توهم قصر الخوف والرجاء على مقامات العامة. فرفة

المطلوب تزيد صاحبه معرفة بحاجته إلى ربه، وتبقى معه الرغبة والرغبة وهو يسأل ويعبد.⁵⁵

ما يجمعه فعل واحد

رجل يراجع أمانة قبل أن يسلمها إلى صاحبها. يريد أن يؤديها على وجه يرضي الله، ويخشى أن يترك فيها نقصاً يضر غيره. يرجو فيتم، ويخاف فيتثبت؛ وقد اجتمع المعنيان في مراجعة واحدة. ولو وقف ينتظر أن يتميز له شعور كل منهما، لأُخّر العمل الذي يظهر فيه أثرهما.

ويشرح خالد السبت هذه الملازمة من جهة المطلوب؛ فالذي يرجو الخير يخاف فواته، والذي يسأل النجاة من الشر يرجو حصولها. ويبين أثر ذلك في الدعاء والعمل.⁵⁶ فقد يكون العبد هادئاً وهو راج خائف، وقد يكون مضطرباً لأمر آخر. يدلنا على معنى قلبه ما يقصده وما يستعين بالله عليه، مع بقاء العلم بسريرته لله.

55 ابن تيمية، مجموع الفتاوى، جمع عبد الرحمن بن محمد بن قاسم وابنه محمد، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، 1425هـ/2004م، ج10، ص240-243.

56 خالد بن عثمان السبت، أعمال القلوب، دار ابن الجوزي، ط1، 1438هـ/2017م، ج2، قسم الرجاء، ص53-116؛ وللتصنيف والدرجات ص97-99، ولأسباب تنمية الرجاء ص100-105، ولثمراته ص106-112.

فإذا قلت: كيف أرجو القبول وأخاف على عملي؟ فانظر إلى جهة كل منهما. رجاؤك متعلق بفضل الله وصدق وعده، وخوفك متعلق بما يقع منك من تقصير. تصدق أن الله لا يضيع أجر المحسنين، وتجتهد أن تحسن. وحين يظهر نقص تصلحه، وحين ييسر الله خيرًا تشكره. بذلك يبقى الوعد باعًا على العمل، ويبقى الخوف معينًا على تجويده.

وقد تستعمل النفس أسماء هذه العبادات لتستر أمرًا أغفلته. تقول إن أملها كبير، ثم تؤجل أمانة معلومة أو تبقي خبرًا كاذبًا نشرته. تجد للرجاء موضعه حين تستعين به على التصحيح، وللخوف موضعه حين تكف عن العودة إلى الأذى. مقدار الراحة الذي تشعر به بعد الكلام عن الرحمة لا يسد حقًا بقي في يدك.

حاجة تتغير ومعرفة تبقى

في أول التعلم قد يحمل الحماس صاحبه على نقل ما لم يتحقق منه. يحتاج عندئذ إلى خشية تحفظه من القول بلا علم، وإلى بيان يعلمه كيف يتثبت. فإذا انكشف خطؤه، احتاج إلى رجاء يعينه على الاعتراف والتصحيح، بدل أن يهرب من الناس أو يهجر العلم كله. تتغير موضع الحاجة، وبقيت العبودية جامعة في الحاليين.

ومثله من يتساهل قبل المعصية، ثم يقسو على نفسه بعد وقوعها. يستحضر الرحمة حين يحتاج إلى الكف، ويستحضر العقوبة حتى يعوقه ذكرها عن التوبة. لو أخذ كل معنى في موضع نفعه، لحذر قبل الفعل، ورجا وهو يصلح أثره. ما تعلمه عن نفسه هنا يعينه على تغيير ترتيب اختياراته، دون أن يقضي به على كل تردد أو تأخر.

ولهذا يحتاج صاحب الطبع الحذر إلى سماع ما يفتح له الرجاء، ويحتاج من اعتاد التفاؤل إلى تذكر ما يحفظ مسؤوليته. تستريح النفس إلى ما يوافق عاداتها، ثم قد تجعل هذه الراحة دليلاً على كفاية فهمها. وسماع النصوص التي أغفلتها يوسع معرفتها، ويدلها على قدر من العمل كان محجوباً عنها.

تأمل حجة تتكرر عند اختيارك. إن كنت تجد لكل واجب ثقل عبارة تعفيك منه، فاسأل عن صحة تلك الحجة. وإن كنت تجد لكل طريق إصلاح حكماً بأنه لن ينفعك، فارجع إلى ما عرفت من رحمة الله. هذه مراجعة لقول تستعمله وقرار تستطيع تغييره؛ وقد تنتهي إلى جهل يحتاج تعليمًا، أو عجز يحتاج معونة، أو تفريط يحتاج توبة.

ثم امض إلى ما تبين لك. الإفراط في مراقبة مقدار الخوف والرجاء قد يستنفد القوة التي تحتاج إليها للأداء. تعاهد

قصدك حين يلزم التعاهد، واستعن بالله، وأحسن ما في يدك.
قد تنشغل بالعمل عن وصف شعورك، وقلبك يريد الخير
ويرجو فضل ربه.

وتبقى المحبة حاضرة في هذا السير: ترجو رضا من تحب،
وتخشى ما يبعدك عنه، وتأنس بطاعته حين يوفقك إليها.
تشبيهه الجناحين يشرح جانبًا من عبودية القلب، ويظل خادمًا
له؛ فلا يحصر أعماله، ولا يحمل حكمًا زائدًا على ما جاء به
الوحي.

اختر قرارًا يشغلك اليوم. سمّ الخير الذي ترجوه، والمحظور
الذي تحذر منه، ثم عيّن فعلًا يجمع الأمرين. قد يكون جوابك
مراجعة أمانة، أو تصحيح نقل، أو كف أذى. وهناك تجد
للخوف والرجاء أثرًا تستطيع رعايته.

الفصل السادس والعشرون: نبئ عبادي

قال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٠﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾. [الحجر: 49-50].

يسمع المؤمن الخبرين من ربه، ويقبل ما يعلمانه إياه. يعرف المغفرة والرحمة فيرجو، ويعرف العذاب فيحذر أسبابه. وقد تضيق النفس بأحد الخبرين حين يأتي بخلاف ما استراحت إليه؛ فتتجاوز آية الرحمة لأنها تحسب نفسها محرومة، أو تتجاوز الوعيد لأنها تريد تأجيل واجب. وعند هذا الموضع يبدأ أدب التلقي: أن يحملها النص على تصحيح ما ظنت.

ويبين السعدي أثر المعرفة بالمغفرة والرحمة في رجاء العبد، وأثر العلم بالعقوبة في حذره. تتصل المعرفة بالإقبال على الله واجتناب ما يسخطه، مع سعة باب التوبة.⁵⁷ وحين تفهم هذا الاتصال، يتغير سؤال القراءة: ماذا يعلمني ربي، وما العمل الذي يقتضيه هذا العلم؟

قد يقرأ مذهب خبر المغفرة، فيجد قوة على الاعتراف بما فعل وتركه. وقد يقرأه آخر، فيطلب منه راحة يبقي معها الذنب. النص واحد، لكن وجه استعماله مختلف. الأول استجاب

57 السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تفسير سورة الحجر، الآيتين 49-50، في النص الإلكتروني للتفسير.

للدعوة إلى الرجوع، والثاني أضاف إلى الوعد إذناً بالتأخير. فمن نفع العلم أن يكشف للقلب هذه الإضافة التي صنعها من عنده.

ويقع مثل ذلك في الوعيد. يسمعه إنسان فيكيف عن ظلم يقدر على تركه، ويسمعه نادم فيحسبه حكماً نهائياً على مصيره. يعرف الأول ما حذر منه، ويحتاج الآخر إلى معرفة طريق التوبة الذي لم يُغلق عنه. جمع النصوص يرد كل خبر إلى دلالته، ويحفظ للعبد مسؤوليته وأمله معاً.

خبر في سياقه

ينبه السعدي في تفسير هذا الموضع إلى ما سبقه من ذكر الجنة والنار، ثم إلى أوصاف الله التي تبعت الرغبة والرغبة.⁵⁸ تأتي الآيتان في تعليم متصل؛ الجزاء حق، والرب الذي أخبر به غفور رحيم، وعذابه أليم. ومن عرف هذا الاتصال، حمل بشارة المغفرة على السعي إلى أسبابها، وحمل التحذير على الإقلاع عما يوجب العقوبة.

وقد بدأ الخبر بالمغفرة والرحمة، ففتح للعبد باب الإقبال. ثم جاء خبر العذاب ببيان جاد يعرفه من يحتاج إلى الحذر. لكل

58 السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تفسير سورة الحجر، الآيتين 49-50، في النص الإلكتروني للتفسير.

منهما أثره الذي ينبغي أن يبلغه القلب. يستطيع التائب أن يخاطب نفسه بمعناهما: فعلت ما يلزمني تركه، وربّي غفور رحيم يدعوني إلى الرجوع. يعرف الفعل فيتحمل تبعته، ويعرف ربه فيطلب مغفرته.

وإذا وقفت على وعد، فاقرأ ما حوله، واعرف المخاطب وما علق عليه الوعد. وإذا وقفت على وعيد، فافهم الفعل المتوعد عليه، واحفظ الفرق بين بيان الحكم وبين تنزيله على شخص معين. ثم ارجع إلى تفسير معتبر فيما أشكل. قد يكفي هذا القدر من التثبت لإزالة خوف صنعه سوء الفهم، أو طمأنينة بنيت على إطلاق لم يدل عليه النص.

حين تبلغ غيرك

ربما سألك إنسان: هل بقي لي باب توبة؟ يحتاج إلى بيان هذا الباب بدليله. وربما احتج آخر بالمغفرة على ظلم يستمر فيه؛ يحتاج إلى كشف فساد حجته. تعرف من السؤال موضع الحاجة، فتختار بياناً يفي بها. وقد يكون جوابك قصيراً، مع حفظ سائر المعاني التي يقوم عليها الفهم الصحيح.

ولهذا يكفي أحياناً حديث عن الرحمة دون أن تلحق كل جملة فيه بتخويف، ويكفي تحذير مخصوص دون أن تختمه بعبارة تذهب بأثره. يحفظ التعليم في مجموعه ما جاء به الوحي،

ويؤدي الكلام في مقامه غرضًا معلومًا. فإذا صار التوازن قفلة تتكرر آليًا، أثقل العبارة وربما أضعف المعنى الذي يحتاج إليه السامع.

وتحتاج العناوين القصيرة إلى هذه الأمانة أيضًا. قد يكون متن الكلام منضبطًا، ثم يعد عنوانه كل قارئ بمغفرة خاصة، أو يجعل كل مصيبة عقوبة معينة. يقرأ الناس العنوان وحده، فيأخذون منه حكمًا لم يدل عليه المتن. راجع العبارة المنفردة، واحفظ فيها حدود ما تعرفه؛ وعد الوحي حق، وحال الشخص الذي تنزل عليه الوعد تحتاج إلى علم.

ومن دقة النقل معرفة السؤال الذي أجاب عنه العالم. الكلام الذي يعالج إصرارًا على المعصية قد يزيد نادمًا قنوطًا إذا نقلته إليه مبتورًا. والكلام الذي يواسي محتضرًا قد يساء استعماله عند صحيح يخطط لذنوب. تستطيع أن تحفظ ألفاظ النقل، ثم تخطئ الموضع الذي يبين معناه. فاقراء المقام كما تقرأ العبارة.

تصحيح تؤديه لله

إن تبين لك أنك حذفته سياقًا مؤثرًا، فأعده. وإن أطلقت عبارة تحتاج قيدًا، فبينه لمن سمعها. وإن استخرجت نتيجة زائدة، فتراجع عنها. خوفك من القول بغير علم يحمل هذا

التصحيح، ورجاؤك في نفعه يعينك على إعلانه. واعتراك بقصور فهمك يحفظ حرمة الوحي من أن ينسب إليه استعجالك.

قد يشق عليك التصحيح بعدما انتشر كلامك، لكن بقاء الوهم أشد أثراً على من وثق بنقلك. بيّن موضع الخطأ بقدر واضح، ووجه القارئ إلى السياق الذي يصلحه. ثم تعلم من هذا الموضع كيف تستقبل النص قبل أن تبادر إلى استعماله. اختر آية أو خبراً اعتدت نقله منفرداً، واقرأ سياقه اليوم. حدّد ما دل عليه، وما كنت تضيفه إليه. فإذا اتضح لك معنى أغفلته، فدعه يغير قولاً أو عملاً؛ عندئذ يبلغ خبر ربك منك الموضع الذي نزل لتتعلمه وتستجيب له.

الفصل السابع والعشرون: لكل حال دواؤها

قد يأتيك اثنان بالخطأ نفسه؛ أحدهما يعرف الحكم ويستهيئ
بأثر فعله، والآخر نادم يحسب أن التوبة لن تنفعه. يحتاج
الأول إلى ما يوقظ مسؤوليته، ويحتاج الثاني إلى ما يرد إليه
رجاء العودة. يحمل الناصح إلى كليهما حقًا واحدًا، ويختار من
البيان ما يعين كلاً منهما على العمل به.

وقد نبه خالد السبت، في شرح باب الرجاء، إلى اختلاف
موضع التذكير بحسب حال المخاطب، مع الجمع بين الخوف
والرجاء في التعليم العام.⁵⁹ ويعرف الناصح من حال صاحبه
ما يظهر في كلامه وفعله وما يبينه عن حاجته. بهذه المعرفة
المحدودة يحسن البيان، ويترك العلم بالسرائر لله.

تبدأ النصيحة النافعة بإنصات يسبق الجواب. ماذا فهم من
المسألة؟ وأي شيء يعوقه عن الإصلاح؟ قد تكتشف أن ما
ظننته عنادًا جهل، أو أن طلبه الذي حسبته سؤال حكم كان
استغاثة بمن يعينه على التنفيذ. كلما اتضح السؤال، استطعت
أن تضع العلم في موضع ينتفع به صاحبه.

59 خالد بن عثمان السبت، شرح رياض الصالحين، باب الرجاء، درس «الحديث على آيات
الباب»، المنشور في موقعه الرسمي بتاريخ 20 شوال 1428هـ، النص المكتوب.

في صحيح البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ ومعاذ رديفه على الرحل قال: يا معاذ بن جبل. قال: لبيك يا رسول الله وسعديك. قال: يا معاذ. قال: لبيك يا رسول الله وسعديك. ثلاثًا. قال: ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله صدقًا من قلبه إلا حرمه الله على النار. قال: يا رسول الله، أفلا أخبر به الناس فيستبشروا؟ قال: إذا يتكلموا». وفي ختام الرواية: «وأخبر بها معاذ عند موته تأثمًا».⁶⁰

بشارة عظيمة، وصدق القلب مذكور في لفظها. وموضع الخشية أن يسمع المرء نتيجة الوعد ثم يغفل عما علق عليه؛ فيظن أن لفظًا يجري على لسانه يغنيه عن صدق الشهادة وما تقتضيه. حين تعلمه البشارة بمعناها، تحمله على الإيمان والعمل، وتمنع هذا الفهم الذي يستخرج منها راحة مع التفريط.

وقد وصل إلينا الخبر محفوظًا، ومعه إخبار معاذ عند موته تأثمًا. يجتمع في الرواية التحذير من اتكال قاصر وأداء العلم؛ فلا يستقل الواعظ بحجب ما يجب تعلمه، أو بتغيير حكم

60 البخاري، الصحيح، كتاب العلم، باب من خص بالعلم قومًا دون قوم كراهية أن لا يفهموا، حديث أنس بن مالك، رقم 128.

يخشى ألا يقبله سامعه. إنما يتعلم كيف يؤدي البيان بأمانة، وكيف يراعي الأثر الذي قد يتركه عند من يفهم نصفه.

ما الذي تعنيه بالعجز؟

قال شاب إنه لا يستطيع إصلاح تقصيره. قبل أن تحته أو تطمئنه، أسأله عما يقصد. إن كان يجهل أول خطوة، احتاج إلى تعليم واضح. وإن كان يعرفها ويؤجلها بلا مانع، احتاج إلى محاسبة رحيمة وفعل محدد. وإن كان يعتقد أن الله لن يقبل توبته، احتاج إلى تصحيح هذا الاعتقاد. وقد تجتمع عنده أكثر من حاجة، فيأخذ من البيان ما يعالجها.

وربما خاف أثر التصحيح، أو كانت وسائله خارج قدرته. السؤال المحدد يمنعك من حث عاجز على ما يعجز عنه، كما يمنعك من إعفاء قادر من واجب تبين له. وتستطيع أن تعرف موضع الحاجة دون أن تطلب حكاية الذنب كلها؛ يكفيك من التفاصيل ما يتوقف عليه الحكم أو طريق الإصلاح.

احفظ له ما ستره الله. أسأل عن نوع الحق ومقدار القدرة واستمرار الضرر، حين تحتاج المسألة إلى ذلك. أسماء الناس وما لا يؤثر من الماضي قد يفتحان باب أذى دون أن يزيذا فهماً. يستطيع المنصوح أن يتعلم أداء واجبه، ويبقى ماضيه خارج حديث المجلس.

بيان يفتح وجه العمل

قد تقول للحائر: أصلح علاقتك بالله، فيصدق المعنى ولا يعرف من أين يبدأ. إن كان يسأل عن صلاة فاتته أو حق أخذه، فبيّن ما تعلمه من الطريق، وأحله في تفاصيل الحكم إلى من يحسنها. المعنى العام يقوي الإرادة، والبيان الخاص يدلها إلى الفعل. وبالجمع بينهما ينتقل سامعك من التأثير إلى معرفة ما يلزمه.

ويختلف مقدار الكلام باختلاف الحاجة. ربما كفت آية وخطوة واضحة، وربما احتاج المتعلم إلى تفصيل يجيب عن اعتراضه. اختر قدر البيان الذي يستطيع فهمه والانتفاع به؛ فإن استعراض أبواب كثيرة قد يحجب أول واجب عنه، كما قد يتركه الاختصار المخل مع شبهة لم تُحل.

وإذا تشابك حكم أو ظهر ضرر مستمر يحتاج إلى خبرة، فدل على من يحسن معالجته. تستطيع أن تحيله وتبقى معه في الرفق والدعاء والمساعدة الممكنة. صدق حرصك يظهر أيضًا حين تعرف حدود علمك، وتعيّنه على الوصول إلى بيان لم تملكه.

ثم احفظ للنصيحة مقصدها بعد أن تؤديها. قد يأخذ صاحبك بالمعنى ويختار وسيلة مباحة أخرى، أو يسأل من هو أعلم منك، أو يحتاج إلى وقت لإصلاح تتعدد خطواته. افرح بما يظهر من خير، واترك طلب السلطان على مساره. الله هو الذي ترجوه أن ينفعه، وطاعته لك ليست مقياس صلاحه.

قبل نصيحتك المقبلة، عيّن سؤالاً يساعدك على الفهم، ومعنى صحيحاً يحتاجه السامع، وفعلاً مقدوراً يتصل به. وبعد الكلام تحقق من أنه فهمك. قد يحفظ ما قلت ويمضي إلى عمل هادئ؛ يكفيك أن تؤدي الأمانة، دون أن تطلب دمة أو وعداً كبيراً تشهد بهما أثر كلماتك.

الفصل الثامن والعشرون: في الصحة

تستقبل غداً برحاء واسع، ثم تنظر في يومك فتجد واجباً تستطيع بدئه وقد أجلته. تقول: أتعلم حين يهدأ العمل، وأصلح هذا الحق حين تستقر الظروف، وأتوب حين تنتهي المرحلة. تمر مرحلة وتأتي أخرى، وتبقى البداية في الموضع نفسه. يحتاج أملك في المستقبل إلى فعل يصدقه فيما بين يديك.

وقد تقدم في حديث البخاري أن بقاء العمر فرصة للمحسن كي يزداد خيراً، وللمسيء كي يرجع.⁶¹ ومن نفع الصحة أن يأخذ العبد بهذه الفرصة على قدر استطاعته. قد تتعدد شؤونه ويطول إتمامها، لكنه يعرف خطوة يقدر عليها الآن. وبأدائها يصير رجاؤه للمستقبل متصلاً بما منحه الله في الحاضر.

61 البخاري، الصحيح، كتاب المرضى، باب تمنى المريض الموت، حديث أبي هريرة، رقم 5673.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس، الصحة والفراغ». رواه البخاري.⁶²

قد تكون النعمة حاضرة، ويغيب الانتفاع بها. تعرف ما يلزمك، وتملك وقتًا وقدرة، ثم تصرفهما فيما لم تكن لتختاره لو سألت نفسك بهدوء عما تريد من يومك. يوقظ الحديث هذا الموضع؛ فقد تنقصك ساعة تحول فيها علمك بالحق إلى أداء، وقد تنقصك إرادة تخص هذه الساعة به.

وربما ازدحم يومك بأعمال تخف على نفسك، وبقي العمل الأثقل مؤجلًا. تنتقل بين رسائل كثيرة، وتطيل البحث عن طريقة تنظيم مناسبة، ثم تجد الأمانة التي لزمك منذ الصباح على حالها. انظر إلى ما أثمرته الحركة، وعيّن للواجب وقتًا محفوظًا. كثرة ما شغلك تشرح تعبك، وأداء ما لزمك يبين أين انتفعت بقدرتك.

ومن ذلك حساب مالي بينك وبين قريب اختلطت تفاصيله. تستطيع جمع المستندات، ومعرفة ما بقي مجهولًا، والسؤال عن المقدار، ثم بدء التسوية. ربما طال الإتمام، لكن كل خطوة

62 البخاري، الصحيح، كتاب الرقاق، باب ما جاء في الرقاق وأن لا يعيش إلا عيش الآخرة، حديث ابن عباس، رقم 6412.

تحفظ شيئاً من النسيان وسوء الفهم. انتظار ظرف مثالي قد يزيد العمل صعوبة، ويثقل على صاحب الحق الذي ينتظر بيانه.

يومك الذي تعيشه فعلاً

ليس لكل إنسان فراغ واسع وصحة كاملة. قد يعمل ساعات طويلة، أو يرفع قريباً، أو يحمل مسؤولية يغفل عنها من يقارنه بغيره. يبدأ اغتنام النعمة بمعرفة القدرة الموجودة فعلاً، ثم حسن استعمالها. وربما كان أداء حاجات أهله أعظم ما يتاح له من الخير في ذلك اليوم، وإن قلّ نصيبه من تطوع يكثر عند سواه.

فاحفظ في خطتك ما لزمك قبل الزيادة التي تختارها. قد يدفعك التأثير إلى أعمال كثيرة، فتستنزف قوتك، ثم تقصر في حق أهلك أو تعجز عن الاستمرار. الحماس يعينك على البداية، والعلم بالأولويات يحفظ وجهتها، والتنظيم يهيئ لك البقاء. اختر زيادة نافعة تستطيع رعايتها بجوار التزاماتك الحقيقية.

واختبر خطتك في يوم عادي. البرنامج الذي يحتاج إلى غياب كل شاغل قد يبقى أمنية، بينما تعيش أنت بين شؤون لا تنقطع. إن تعثر تطوع اخترته، فاعرف السبب وعدل المقدار

أو الوقت. وأما واجب تبين لك، فابحث عن طريق أدائه، واستعن بمن يعينك فيما يثقل؛ ففشل وسيلة معينة يدل على حاجتها إلى مراجعة.

وقد يفتح لك الله عملاً قليل الظهور، وثيق الصلة بما استؤمنت عليه. نفقة تؤديها، أو أمانة تضبطها، أو خدمة تتكرر في البيت. يحتاج القلب إلى رجاء يحمل صبره على هذا التكرار، حتى لا يهون عليه الخير لأنه لم يأت في صورة إنجاز كبير يراه الناس.

قدرة تهئ ما بعدها

من اغتنام الصحة أن تحفظ بها ما قد يصعب حفظه حين تضيق. تتعلم حكمًا تحتاجه، وترتب مستندات أمانة، وتبين مسؤولية مشتركة لمن يعنيه أمرها، وتبني عادة نافعة. تقلل هذه الأعمال تقصيرًا متوقعًا، وتيسر الاستمرار إن تغيرت حالك. تؤدي السبب الذي ظهر نفعه، وتبقى مفتقرًا إلى الله في أثره وفيما يأتي بعده.

وقد يكون بيان الأمانة جزءًا من أدائها؛ يعرف من يشاركك مسؤولية أين يجد ما يحتاجه، وكيف يعينك إذا شق عليك العمل. تؤدي ذلك بقدر الحق والخصوصية، دون أن تجعل الاحتياط للمستقبل انشغالًا يبتلع الحاضر. بين العمل الممكن

والقلق على كل احتمال مساحة تصلح فيها ما تراه وتدعو فيما غاب عنك.

وتشكر العافية باستعمالها، وتحفظ نفسك من اتخاذها شهادة على منزلتك. قد يفوقك مريض أو عاجز في صدق وصبر تعلم منهما وأنت لا تعلم سريره. حسابك النافع متعلق بما وهب لك وما تؤدي به؛ فاعرف النعمة واشكرها، ودع المقارنة فيما لا تحيط به.

ومن شكر القوة أن تحمل بها ما شق على والديك، وتقضي حاجة مريض، وتعلم من يحتاج وقتًا أطول. تفتح لك القدرة باب خدمة، ويحتاج من تخدمه إلى عون يصون كرامته. ستبقى أنت محتاجًا إلى فضل الله في كل حال؛ وحسن إحسانك اليوم يذكرك بهذه الحاجة.

ابدأ بواجب مؤجل تعرف أول خطوة فيه، ثم اختر تطوعًا يناسب قدرتك بعده. أدّ الأول، واضبط الثاني، واسأل الله الثبات. بذلك يكون في يومك جواب عملي للنعمة التي أصبحت تملكها.

الفصل التاسع والعشرون: في المرض والاحتضار

كان يقوم بعمله المعتاد، ثم صار يتعب قبل إتمامه. يسمع حركة الناس من حوله، ويتذكر قدرته الماضية، فيؤلمه ما فاته. يحتاج المريض في هذا الموضع إلى معرفة ما يبقى في استطاعته، وما تغير حكمه بعذر معتبر. على هذه المعرفة يعبد ربه في حاله الحاضرة، ويجد للعمل صورة تناسب ما يستطيع.

وقد مضى حديث حسن الظن عند الموت، ونحتاج هنا إلى أثره عند تغير القدرة.⁶³ يستحضر العبد رحمة الله، ويسأل العافية، ويتعلم أحكام عبادته بحسب حاله. بالعلم يعرف الرخصة التي شرعت له، ويؤدي الواجب الذي يقدر عليه. وقد تعينه استشارة أهل الاختصاص في قدرته ورعايته على فهم حاله، إلى جانب سؤال أهل العلم عن حكم عبادته.

بشارة لمن حيل بينه وبين عاداته

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله

63 مسلم، الصحيح، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت، حديث جابر، رقم 2877.

صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إذا مرض العبد أو سافر، كتب له مثل ما كان يعمل مقيمًا صحيحًا». رواه البخاري.⁶⁴

تتعلق البشارة بعمل كان العبد يفعله، ثم عرض له المرض أو السفر. ما أداه في أيام القدرة معلوم عند ربه، وقد أخبره النبي صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذا الفضل حين يعوقه العذر. يستطيع أن يستحضر الخبر وهو يرى غيره يقوم بما اعتاد، فيرجو عطاء الله، ويخفف عن نفسه الحساب الذي يقيس الخير بمقدار الحركة وحدها.

وكان يساعد فصار محتاجًا إلى المساعدة، أو يقرأ طويلاً فصار يتعب سريعًا. يبقى له فيما يستطيع من ذكر ودعاء وعبادة بحسب حكم حاله أبواب يتعلمها ويعمل بها. يجمع رجاء الفضل وأداء الممكن، ويحفظ لنفسه عذرها فيما عجزت عنه؛ فقد تغيرت القدرة، وإعادتها لا تكون بمجرد قرار يلوم به نفسه.

ويحفظ للخبر دلالاته. القادر الذي يتعمد تعطيل الطاعة يحتاج إلى تصحيح اختياره، ولا يلحق نفسه بمن منعه عذر. ومن بدأ العمل الصالح في مرضه يبقى له باب التوبة والعبادة وسائر

64 البخاري، الصحيح، كتاب الجهاد والسير، باب يكتب للمسافر مثل ما كان يعمل في الإقامة، حديث أبي موسى الأشعري، رقم 2996.

الرجاء الذي دلت عليه النصوص. تخصص هذه البشارة عادة سبقت العذر، وتظل أبواب الخير الأخرى مفتوحة لمن لم تكن له تلك العادة.

لكل حال ما يلائمها

أكثر المرضى في علاج يرجون أثره، أو في مرض ممتد يتعلمون العيش معه. يستقبلون أيامهم بالعبادة والرعاية وشؤون الحياة الممكنة. أما حضور الموت فله حاجة أشد إلى حسن الظن والتذكير برحمة الله. تعرف الفرق، فتخاطب المريض في واقعه؛ ربما احتاج إلى خدمة تساعد على مواصلة يومه، وأنت تحمل إليه كلام وداع لا يقتضيه حاله. وقد عرض خالد السبت أقوال العلماء في الخوف والرجاء، ومنها تقوية الرجاء عند اقتراب الموت، وعرض بقاء اجتماعهما واختلاف الحاجة بحسب المقام.⁶⁵ يبقى الحساب حقًا، وتبقى الرحمة مرجوة. وعند المحتضر تختار من التذكير ما يقوي حسن ظنه، وتحفظ من حقوقه ما تستطيع مساعدته على أدائه، دون إثقاله بتعداد يزيد حزنه.

65 خالد بن عثمان السبت، أعمال القلوب، دار ابن الجوزي، ط1، 1438هـ/2017م، ج 2، قسم الرجاء، ص 53-116؛ وللتصنيف والدرجات ص 97-99، ولأسباب تنمية الرجاء ص 100-105، ولثمراته ص 106-112.

وفي المرض يجتمع الدعاء وطلب العافية والأخذ بالأسباب. قد يحتاج صاحبه إلى شرح هادئ، أو صبرة قصيرة، أو معونة في شأن عملي. القرار الطبي يرجع إلى المعرفة اللازمة بحاله؛ والبيان الإيماني يعينه على الصلة بربه وسط الرعاية التي يحتاجها، ويحفظ له حقه في طلبها.

رحمة تظهر في المعاملة

اسأل المريض عما ينفعه. قد يريد سماع آية أو دعاء، وقد ينتفع بمجلس قصير، وقد يكون مرهقاً يحتاج السكون. معرفتك بهذه الحاجة جزء من حسن الصبرة. تستطيع أن تؤدي خدمة هادئة تعينه على عبادته وراحته، ثم تترك له مساحة يكون فيها مع ربه دون رد طويل يرضي الزوار. ويحتاج إلى حفظ كرامته وخصوصيته كذلك. تستأذنه فيما يمس شأنه، وتحفظ خبر مرضه من التداول الذي لم يرضه. بكاؤه يخبرك بألمه، ولا يمنحك حكماً على إيمانه. ومعرفة إصابته لا تبيح تعيينها عقوبة مخصوصة. قرب إليه المعونة التي يحتاجها، ودع ما غاب عنك لعلم الله.

وإذا استطاع ترتيب أمانة أو إصلاح حق، فأعنه بما يلائم قدرته. يحفظ من يثق بهم مراده، ويعينونه على تبليغ ما يلزم أصحاب الحق معرفته، دون ضغط أو تغيير لما أراد. وتحتاج

التفاصيل المالية والوصايا إلى حكم صحيح؛ فدل على من يحسن بيانه، واحفظ لها قدرًا من التثبث يليق بأثرها.

ربما بلغ به التعب أن يصعب عليه التعبير عما يريد. يستمع إليه المرافق بقدر ما يتاح، ويكرر السؤال عند الحاجة برفق، ويحفظ ما فهمه من التبديل. كلمات الرجاء تنفعه، وأداء هذه الأمانة يجعل الرحمة التي يسمع عنها حاضرة في معاملته أيضًا.

وإن ذكرت له خيرًا تعلمه من عمله، فاذكره على وجه تقوية حسن الظن، مع الدعاء له. تذكر المعروف الذي شهدته، وترجو له فضل الله؛ والقبول والمنزلة عنده سبحانه. قد تكون هذه الكلمة الصادقة أرفق به من موعظة طويلة، لا سيما إذا وصلت معها خدمة يحتاجها.

اللهم أحسن عاقبتنا، وارزقنا في العافية شكرًا وفي البلاء صبرًا، واجعل حسن ظننا بك عونًا على ما تحب. وإن صاحبت مريضًا، فاسأله عن خدمة يحتاجها، وأحسن أداءها على قدر ما يريد ويستطيع.

الفصل الثلاثون: يؤتون ما آتوا

انتهى العمل، وجاء وقت النظر فيه. قد يرى صاحبه ما أحسن فيستغني عن التعلم، وقد يرى نقصاً فيقضي به على جهده كله. وبينهما مراجعة تشكر الخير، وتعرف الخطأ، وتستخرج منه عملاً مقبلاً. وقد بين حديث عائشة أن وجل أهل الطاعة يصحب مسارعته في الخيرات؛ فخوفهم على العمل يبقوهم طالبين للقبول، عاملين بما يستطيعون.⁶⁶

ابداً بما تعلمه: أمر أديته على وجهه، وخطأ ظهر بدليل، وأمر بقي مجهولاً. تفرق بينها فتحفظ للمراجعة حدودها. قد تنقبض بعد العمل، وقد يشني الناس عليك؛ لكل منهما أثر تشعر به، أما حكم صحة الفعل فيحتاج علماً به، وقبوله ترجوه من الله.

ثلاثة أسئلة بعد الأداء

هل أدت العمل على الوجه المطلوب؟ وهل أحسنت ما تستطيع تحسينه؟ وهل قبله الله منك؟ يتعلق الأول بشروط الفعل وأركانه أو التزاماته، والثاني بإتقان الأداء بحسب نوعه، والثالث بفضل الله وتقدير النفس. تعلم ما يصح الأولين،

66 الترمذي، الجامع، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة المؤمنون، حديث عائشة، رقم 3175؛ صححه الألباني في صحيح الترمذي، رقم 3175.

وتدعو وتفتقر في الثالث. بهذا يظل سؤال القبول باعثًا على الإحسان، دون أن يحمل إليك حكمًا بالغيب.

ومن أدى عبادة ثم طرأ عليه شعور بعدم الرضا، يرجع في صحتها وما يعرض من شك إلى العلم بأحكامها. ومن سلم عملاً إلى الناس ثم ظهر عيب أخل بما التزم، يصلحه بقدره. صدق النية يحتاج إليه، وصحة الفعل وأداء الحقوق يحتاج إليهما أيضًا. فإذا جمع هذه المطالب، عرف السؤال الذي ينبغي أن يوجهه، والعلم الذي يطلبه لجوابه.

وقد يصح أصل العمل وتبقى فيه فرصة للتحسين. تجد بعد تعليمك عبارة غامضة، أو بعد خدمة ترتيبًا أتعب المستفيد، أو بعد إنفاق طريقة أحفظ لكرامة المحتاج. تشكر ما يسر الله، وتتعلم ما يحسن أدائك المقبل. معرفة هذا التفصيل تحفظ الخير الذي مضى، وتفتح أمامك موضعًا جديدًا للإحسان.

حين يجتمع الشاء والتنبية

قدم شخص درسًا، فأثنى بعض الحاضرين عليه، ونبه آخر إلى خطأ في نقل. يستطيع أن يشكر من شجعه، ثم يتحقق من التنبية ويصحح ما ثبت. وقد يؤلمه أن يراه الناس مخطئًا بعدما أحسنوا الظن به؛ وهنا يعينه رجاء القبول على تقديم الحق على راحة صورته عندهم.

اقبل الكلمة الطيبة بقدر ما تعلم، واحمد الله على التيسير. قد ينتفع إنسان بما قدمت، وتصدق شهادته على هذا النفع، ثم يبقى في العمل نقص لم يره. إذا أعطيت ثناءه هذه الحدود، سلم لك أثره النافع، وبقيت مستعداً لسماع الملاحظة التي تحتاجها.

والناقد أيضاً قد يصيب في التنبيه ويخطئ في تفسير قصدك. خذ التصحيح الذي ثبت، واحفظ علم سريرتك من حكمه الذي لم يحط به. وقد يسيء عبارته مع صحة المعلومة؛ فتعالج الإساءة بعدل، وتنتفع بالحق الذي دل عليه. تحمل النفس هذا الفصل بين الأمرين حين يكون مطلبها إحسان العمل والقبول عند الله.

وربما استعنت بأمين يرى ما يغيب عنك. أسأله عن شيء يمكن ملاحظته: صحة المعلومة، أو وضوح الشرح، أو عدالة المعاملة. تعينك شهادته على فعل علمه، وأما مقامك وإخلاصك فلا يملك الإحاطة بهما. السؤال المحدد يصون حدود علمه، ويجعل جوابه قابلاً للاستخدام.

إصلاح على قدر النقص

إذا ظهر خطأ، فاعرف أثره ومن بلغه، ثم اختر ما يصلحه. معلومة تُصحح حيث يحتاج سامعها إلى البيان، وحق يؤدي

إلى صاحبه، ومهارة تتعلمها قبل تكرار العمل. قد يكفي تعديل موضع، وقد يلزم تدقيق أوسع. تجمع بذلك حفظ ما صح وأداء ما يجب إصلاحه، دون أن تهدر الجميع بسبب بعضه. وللمراجعة مقدار يناسب شأنها. في عمل بسيط قد يكفي قرار وتصحيح واضحان، وفي أمانة عامة يلزم أهل اختصاص وسجل يمكن الرجوع إليه. المبالغة في الأول تستنزف القوة، والتعجل في الثاني قد يضيع حقًا. الرجاء يعينك على احتمال معرفة النقص، والخوف يدعوك إلى إتمام التثبت الذي يلزم. وقد يغريك الاعتراف نفسه حين تجد الناس يمدحون تواضعك. راجع ما أثمره: هل بلغ من يحتاج إلى البيان، وهل أصلح الخطأ؟ نقص لم يتعلق به حق ظاهر قد لا يحتاج أن تجعله حديثًا عامًا، وخطأ انتشر يحتاج إلى بيان يصل إلى موضع أثره. يحدد واجب الإصلاح قدر الإعلان، وتبقى رغبتك في المدح مما تجاهد نفسك عليه.

ثم أنه المراجعة إلى فعل. إعادة اليوم مرارًا دون قرار قد تزيد الألم وتضعف القدرة على العمل. ومتى احتجت إلى بيان حكم أو استشارة أهل عملك، فاطلبهما في موضع الحاجة، حتى يكون قرارك قائمًا على معرفة. حين تعرف ما ستغيره، ابدأ فيه، واستغفر ربك فيما قصرت، واسأله القبول فيما وفق. تنتهي مراجعة اليوم ويبقى أثرها في أداء الغد.

دُون بعد عمل مهم خيرًا تحمد الله عليه، ونقصًا ثبت وعرفت سبيل إصلاحه، وأمرًا بقي مجهولًا تحتاج بيانه أو تترك حكمه لله. تكفيك هذه المعرفة ما لم يقتض العمل تقويمًا أوسع. وبها تعود إلى الطاعة أقرب إلى الإحسان، وأعرف بحاجتك إلى فضل ربك.

الفصل الحادي والثلاثون: خوف لا يقنط

قد يقول العبد: أخطأت مرات كثيرة، إذن لا فائدة من الاستغفار. قد تبدو هذه العبارة لصاحبها غاية المحاسبة، وفيها انتقال من شيء يعلمه إلى حكم لا يملكه. يعرف خطأه وتكراره، ثم يقضي من عنده بأن الرجوع لن ينفعه. ولو أبقى اعترافه في حدوده لقال: أخطأت، وأحتاج إلى توبة صادقة تعالج ما أعادني إلى الخطأ.

وللخوف الصالح وجهة يحمل إليها صاحبه: يتقي ما يضره، ويطلب ما ينجيه. إذا سمع الوعيد، عرف جسامته ما فعل وبادر إلى ما أمر به تجاهه. أما إذا فهم أن باب التوبة قد أغلق عنه، احتاج فهمه إلى تصحيح؛ عظم الجناية يطالبه بجدية العودة، ولا يثبت أنه استثنى من الدعوة إليها.

وقد سبق بيان النهي عن اليأس في يوسف 87، وعموم النداء في الزمر 53 مع سياق الإنابة.^{67، 68} يجمع القارئ النصوص، فيعرف مسؤوليته ويعرف أن الرجوع مشروع ما دام وقته باقياً. وبصدق تصديقه لخبر ربه يستطيع أن يحمل خوفه إلى عمل، حتى وإن بقي ذكر الجناية مؤلماً.

ما تفعله بما خفت منه

اسأل بعد سماع التحذير: ماذا يلزمي الآن؟ قد يكون كفاً قبل الوقوع، أو توبة بعده، أو رد حق، أو تعلم حكم. لكل واحد طريق تطلبه. وإذا بقي تصور العقوبة كبيراً، ولم تتبين لك خطوة، فاطلب البيان الذي يدلك عليها. قد تحتاج إلى معرفة أصلحتها كلمة واضحة، قبل أن تحتاج إلى مزيد من صور التخويف.

67 ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير سورة الزمر، الآية 53، في النص الإلكتروني للتفسير.

68 الطبري، جامع البيان، تفسير سورة يوسف، الآية 87؛ والسعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تفسير السورة نفسها، الآيتين 86-87، في النصين الإلكترونيين للتفسير.

ويبين خالد السبت أن اليأس قد ينشأ من تعاظم الذنوب في نفس صاحبها وضعف معرفته بسعة المغفرة، حتى يترك الإنابة.⁶⁹ يعرف الجناية معرفة تشغله، ويغيب عنه الخبر الذي يدعو إلى الرجوع. فإذا جمع صدق الاعتراف وصدق التصديق، وجد لكل منهما أثرًا؛ اعتراف يمنعه من الدفاع عن الذنب، ورجاء يعينه على تركه وإصلاح ما لزمه. وربما اشترط على نفسه أن يعلم، قبل التوبة، أنه لن يخطئ بعدها أبدًا. المستقبل غائب عنه، وعزمه الحاضر في يده. يصدق في الإقلاع والندم والعزم، ويطلب أسباب الثبات وهو يعرف ضعفه. وهذا يختلف عن تخطيط مستتر للعودة؛ فالتائب يريد الترك ويستعين عليه، ويحتاج إلى فضل الله في تنفيذ ما أراد.

وقد تبدأ التصحيح قبل أن تسكن نفسك. تتعلم ما جهلت، وتكف أذى، وتؤدي حقًا، وتطلب العون فيما يتعذر عليك. حينها يكون للخوف عمل ينفعك، ويبقى سؤال القبول في الدعاء والافتقار. معرفة الطريق تتيح لك السير فيه، ولو لم تحمل إليك طمأنينة كاملة منذ أول خطوة.

69 خالد بن عثمان السبت، أعمال القلوب، دار ابن الجوزي، ط1، 1438هـ/2017م، ج 2، قسم الرجاء، ص 53-116؛ وللتصنيف والدرجات ص 97-99، ولأسباب تنمية الرجاء ص 100-105، ولثمراته ص 106-112.

قد تصبح أوصاف النفس القاسية مألوفة على اللسان. يقول إنه فاسد أو مضيع أو قاس، ثم يعود إلى يومه دون معرفة ما سيغيره. وصف المشكلة يحتاج إلى فعل يتصل بها. إن قسوت على أهلك، فعين تصرفاً تكف عنه ومعاملة تحسنها. وإن ضيعت أمانة، فاعرف ما يلزم رده أو ضبطه. عندئذ تصير للكلمة مسؤولية تؤديها.

وربما ألف الإنسان هذه الأوصاف حتى استثقل العبارة الدقيقة؛ لأن الدقيقة تلزمه بخطوة، والعامّة تترك له أن يحزن دون أن يحدد واجبه. ردّ كلامك إلى ما تعلمه من فعل وأثر وقدرة. قد تجد خطأ واحداً يصلح اليوم، أو حقاً يحتاج إلى سؤال، أو سبباً للعثرات تستطيع تغييره. هذه المعرفة أقرب إلى نفحك من قضاء واسع على حياتك كلها.

ويحتاج الناصح إلى هذا الضبط أيضاً. إذا عدد العقوبات أمام نادم، فليبين معها سبيل الرجوع الذي يحتاجه. يحفظ جدية الحكم، ويكمل أثره بمعرفة ما يجب فعله. وربما رأى صاحبه قد بدأ إصلاحاً ظاهراً، ثم أعاد عليه أسوأ لحظاته ليبقيه خائفاً؛ فتثقله الإعادة عن رعاية الواجب الحاضر.

احفظ ما يلزم من احتياط وحقوق، وأعن على الخير الذي ظهر. وإذا ظهر خلل جديد، فتحدث عنه بدليله. يبقى للماضي أثر فيما يلزم إصلاحه، دون أن يصير تفسيراً جاهزاً لكل

تصرف. يتقوى المنصوح حين يعرف أن الخطوة الصادقة لها موضع، وأن النصيحة تعينه على مواصلتها.

ألم يحتاج إلى عدل ورحمة

قد يؤمن إنسان بسعة الرحمة، ثم يثقل عليه ألم أو اضطراب لا يزول بموعظة. أسأله عن مراده، واحفظ له حق العون، ودل على أهله عند الحاجة. بيان حكم القنوط شيء، وتعيينه في شخص يشكو ضيقه شيء يحتاج إلى معرفة لم يملكها كل سامع.

والحزن قد يبقى مع الرجاء. يتوب المرء ويدعو ويؤدي ما عرفه، ثم يتألم كلما ذكر فعله. بطء سكون النفس لا يخبرنا بقبول التوبة أو ردها؛ كما أن سرعة الراحة لا تقوم مقام أداء ما لزمه. أعنه على الحق الممكن، وفرق بين اعتقاد يصرح به وشعور يشكو ثقله.

إذا قست عبارتك على نفسك، فقل بقدر ما تعلم: هذا ذنب أخاف أثره، وهذه توبة أرجو قبولها، وهذا حق عليّ أن أؤديه. تجد في هذه المعرفة موضع خوفك ورجائك وعملك. واسأل الله قلبًا يعرف التقصير، ويستجيب حين يدعى إلى الرجوع.

الفصل الثاني والثلاثون: رجاء لا يجزئ

الله غفور رحيم؛ خبر يستريح إليه القلب، وقد يحمله إلى توبة كان يتردد فيها. وربما استعمله صاحبه ليسكت من يطالبه بحق يستطيع أدائه. الخبر حق في الحالين، والنتيجة الثانية صنعها مستعمله. من معرفة المغفرة أن تطلبها بطريقها، وتجد فيها عوناً على إصلاح ما لزمك.

وقد قرر ابن القيم الفرق بين حسن الظن والاعتذار مع الإصرار، ومضى موضعه.⁷⁰ ويظهر الفرق هنا في قرار معلوم: هل استعنت بالرجاء على مواجهة الخطأ، أم اتخذت كلام الرحمة عذراً لتأجيله؟ تراجع بذلك حجة استعملتها وخطوة في قدرتك، وتحفظ أحكام الباطن من أن تجعلها أداة لقياس الناس.

حين يبقى الحق معطلاً

أخطأ مسؤول في توزيع مستحقات، ثم تبين له الخطأ. يستطيع التحقق والتصحيح والاعتذار عما يلزم. فإذا طلب من المتضرر سعة صدر دائمة، وحدثه عن الرحمة، وبقي الحق معطلاً، حمل صاحبه تبعه خطأ لم يصنعه. رجاء المسؤول في

70 ابن قيم الجوزية، الداء والدواء، تحقيق محمد أجمل الإصلاحي، وتخريج زائد بن أحمد النشيري، دار عالم الفوائد، ط1429هـ، ص 48-49؛ والعبرة المنقولة في ص 48.

مغفرة الله يعينه على أداء أمانته، وتظل للمظلوم حاجته وحقوقه.

وقد تتعلق النفس بالمكسب الذي حصل من الخطأ، وهي تريد أن تزول تبعته. يرجو صاحبها مغفرة ذنبه، ويريد مع ذلك إبقاء ما أخذه بغير حق. يحتاج إلى معرفة حكم ما أخذ وما يستطيع رده، ثم أداء ما لزمه. ويسأل الله من الحلال والفضل ما يغنيه؛ فإن تصحيح الوجهة يبلغ المال والمعاملة كما يبلغ دعاءه واستغفاره.

وهنا قد تظهر كلفة الإصلاح: مكسب يتركه، أو كلام يصححه بعد أن أثني عليه، أو وسيلة اعتادها ثم يكف عنها. يرجو أن يعينه الله على احتمالها. مقدار المشقة لا يعطيه علماً بالقبول، لكنه يعرف الواجب الذي يؤديه، ويحفظ طلب الراحة من أن يعطل حقاً يستطيع إصلاحه.

التوبة التي تستدعيها قبل المعصية

قد يدخل خبر قبول التوبة في تخطيط الفعل نفسه. يعرف طريقاً إلى مال محرم أو أذى، ثم يقول إنه سيصلح كل شيء بعده. يستدعي اسم العودة ليطمئن إلى بدء ما ينبغي أن يكف عنه. وقد شرعت له العودة لترك الشر، فتحتاج هذه الحجة إلى أن يراجع اتجاهها قبل أن يعمل بها.

اسأل عندئذ: ما الذي يجعل الترك الآن أثقل من إصلاح آثار الفعل بعده؟ قد تكتشف أنك تؤجل كلفة الطاعة إلى وقت تتخيله أيسر. لا تعلم كيف تتغير رغبتك، ولا مقدار الضرر الذي يحدث، ولا ما يبقى لك من عمر. وأمامك الآن طريق للكف، تعرفه وتستطيع طلب المعونة عليه.

كل أذى تتعمد إضافته يزيد ما تحتاج إلى إصلاحه، وربما أدخل في أثره من لم يخطر لك. يحملك صدق الرجاء على النجاة من هذه الزيادة ما دام الترك مقدورًا. تبدأ بالتوبة من القصد الذي استبقيته، وتزيل من الأسباب ما يمكنك إزالته، وتتعلم الحكم الذي يحفظ اختيارك.

وإن وقعت، بقيت مدعواً إلى التوبة والإصلاح. سوء تخطيطك السابق ذنب يحتاج إلى رجوع، وليس دليلاً على أن الرجوع صار مستحيلاً. تختلف حاجة النصيحة قبل القرار وبعده: تحذرك أولاً مما تريد فعله، وتعينك بعده على تركه وأداء تبعته. يبقى الفعل معلوم الحكم، ويبقى باب العمل بما أمرت به حاضراً.

اعتذر شريك عن تصرف أضر بحساب مشترك، ثم ضاق بطلب مراجعة الحساب. أراد للكلمة الطيبة أن تؤدي وحدها وظيفة إجراء يحفظ المال. يستطيع أن يصحح فهمه؛ يقبل التحقق المشروع، ويبين ما يعرف، ويسهم في منع التكرار. يصبح

الاعتذار بداية تعاون على الإصلاح، ويعينه الرجاء على تحمل ما يتطلبه هذا التعاون.

وقد يريد المخطئ أن يمنحه صاحب الحق راحة قبول الاعتذار فوراً. فإن تحفظ، اتهمه بالقسوة. للمظلوم أن يعفو أو يطلب حقه بطريق مشروع، وقد يحتاج إلى احتياط يمنع تجدد الضرر. تؤدي أنت واجبك، ويحفظ هو اختياره؛ فلا تجعل مشاعره امتحاناً يثبت لك صدق إصلاحك أو بطلانه. ولا يزال أثر النصيحة محتاجاً إلى علم. قد يشق بيان حق أو يشتبه طريق رده، فتطلب ممن يحسن الحكم ما يرشدك. صدق رغبتك يظهر في حمل السؤال إلى البيان، ثم في العمل بما عرفت. بذلك تصير الراحة التي تطلبها من الرحمة عوناً على المسؤولية، بدل أن تبقي الضرر خارج نظرك.

وفي النصيحة يظل الحكم بقدر ما ظهر. قد يتساهل إنسان مع معرفته بالتحريم وضعف إرادته وهربه من الحرج؛ فلا يستقل هذا التساهل بإثبات استحلاله أو أمنه من العقوبة. يبين الفعل الذي يحتاج إلى إصلاح، ودع علم الباطن لله. ومن عرف ضعف إرادته طلب عوناً يبلغه التصحيح، دون أن يكتفي بإعادة العذر الذي وصفه. تبقى النصيحة جادة عادلة حين تصل إلى موضع الخطأ دون اتهام يجاوز دليلها.

اختر عبارة تطمئنك وتكررها، ثم انظر في الواجب الذي يبقى عليك بعدها. احتفظ بخبر الرحمة الصحيح، وصحح استنتاجاً يؤجل الحق، وأدّ خطوة مقدورة اليوم. للرجاء الذي يقويك على الإصلاح أثر أبقي من راحة تنتهي ويبقى وراءها من ينتظر حقه.

الباب الخامس: أوهام الرجاء

قد يستعمل المرء كلمة الرجاء وهو يؤخر ما يستطيع، أو يستخرج من رخائه حكمًا على منزلته عند الله. تكشف مواضع هذا الخلط، حتى يكون رجاءه معينًا على صدق المعرفة وحسن العمل.

الفصل الثالث والثلاثون: أمانى المفاليس

خرج من مجلس عن الرحمة أخف قلبًا، ثم عاد إلى التفریط الذي جاء يشكو منه. انتفع بالتذكير، ووجد أثرًا يحتاج إليه؛ لكن قرارًا قديمًا بقي ينتظر. وقد يكرر المجالس طلبًا لطمأنينة جديدة، حتى تصير الراحة التي يجدها عوضًا عما عرف أنه يستطيع فعله. موضع النظر هو هذه الصلة بين ما سمع وما بقي في يده.

وقد ميّز ابن القيم في «الداء والدواء» بين حسن الظن المصحوب بأسباب النجاة والاعتذار مع الإصرار.⁷¹ يفيد هذا التفریق في سؤال النفس عن حجتها: أيفتح رجاؤها طريق الطاعة، أم تستعمله لتبرير تركها؟ أما سرائر الناس فيبقى علمها لله؛ فقد يخفى عذر أو عمل أو مجاهدة عمن ينظر إلى ظاهر تأخرهم.

وفي «الروح» قال ابن القيم: «وأما الأمانى، فإنها رؤوس أموال المفاليس»، ثم بيّن الفرق بينها وبين الرجاء الذي يصحبه عمل. يكشف المثل دعوى الاستغناء بالأمنية عن السعي؛ فالراجي يطلب فضل ربه، ويأخذ بطريقه. وقد نبه

71 ابن قيم الجوزية، الداء والدواء، تحقيق محمد أجمل الإصلاحي، وتخریج زائد بن أحمد النشيري، دار عالم الفوائد، ط 1429هـ، ص 48-49؛ والعبارة المنقولة في ص 48.

محقق الكتاب إلى ورود أصل العبارة في الشعر؛ فننسب استعمالها هنا إلى ابن القيم، دون دعوى أنه أول من أنشأها.⁷²

ما بين حب الخير وفعله

تعرف فضل الأمانة، وتحب أن تكون أمينًا، ثم يحضر مال لغيرك تستطيع رده. في هذا الموضع يظهر ما عزمت عليه. المعرفة نافعة والرغبة نافعة، ويحتاج صاحب المال إلى وصول ماله. إذا حملك علمك ورغبتك إلى أدائه، اتصل المعنى الذي تعلمته بالحق الذي استؤمنت عليه.

ومثله طالب يحتفظ بعشرات المواد عن طلب العلم، ويعيد ترتيب قائمته كل أسبوع. أما المسألة التي يحتاجها، فلم يقرأ فيها قراءة متصلة ولم يسأل عن إشكاله. قد يجد لذة في التنظيم، ويحسبها تقدمًا في التعلم. يستطيع أن يجعل للقائمة مقصدها: يختار مصدرًا موثوقًا، ويقرأ قدرًا مناسبًا، ثم يحدد ما فهم وما يحتاج إلى السؤال عنه.

وقد تسمع هذا البيان فتريد قطع كل تذكير، ظنًا أن الاستماع هو الذي عطلك. الموعظة التي توقظك نافعة، والدرس الذي

72 ابن قيم الجوزية، كتاب الروح، تحقيق محمد أجمل أيوب الإصلاحي، وتخرير أحاديث كمال بن محمد قالمي، دار عالم الفوائد، ص 692-693. عبارة «رؤوس أموال المفاليس» أوردها ابن القيم؛ ولا ينسب إليه ابتكارها.

يعلمك نافع. صحح الصلة بينهما وبين واجبك: ما الذي عرفتَه اليوم؟ وما الفعل الذي يتصل به؟ ربما كان أول الأثر سؤال حكم، أو تعلم مهارة، أو جمع معلومة يتوقف عليها التصرف. حين تعرف ذلك يستطيع الاستماع أن يعين البداية.

ويكفي للأثر أن يكون حقيقياً في حياتك. قد تعمل خفية، وتؤدي حقاً دون أن تنشر خطة أو تصور إحساناً. الله يعلم ما فعلت، وصاحب الحق يعرف ما وصل إليه. وربما كان تقليل الكلام عن مشروعك معيناً على حفظ الوقت والصدق اللذين يحتاجهما.

إعداد يحفظ وجهته

قد يلبس التمني صورة منظمة: أدوات يشتريها المرء، واسم يختاره للمشروع، ومراحل يرسمها، ثم عمل مؤجل من أجل إعداد جديد. يحتاج المقصود إلى تهيئة، ويُعرف قدرها مما تخدمه. إذا تكرر الإعداد دون تقدم، فاسأل: أأحتاج إلى أداة أخرى فعلاً، أم إلى استعمال ما عندي؟

وربما كان الإعداد في موضعه أول مرة، ثم استبقت نفسك لذته بعد زوال الحاجة إليه. مراجعة مستندات الأمانة قد تسبق التسوية وتعينها، لكن إعادة ترتيبها كلما اقترب وقت المواجهة قد تؤخرها. يحفظ هذا التفصيل العمل النافع من أن

تسميه كله تسويفًا، ويكشف الزيادة التي أضافتها النفس لتبقى في موضع أريح.

ومن ذلك كثرة وصف النية بدل الوفاء. تعد قريبًا بإصلاح ما بينكما، وتشرح رغبتك، ثم تتجنب اعتذارًا محددًا تقدر عليه. وتكثر الحديث عن فضل القراءة، ثم تضيق بأول مسألة تحتاج إلى صبر. قد تستريح إلى صورة نفسك التي ستعمل، ويشق عليك الانتقال إلى عمل يكشف نقصًا ويحتاج إلى تعلم.

تظهر الحاجة إلى الرجاء حين تقبل كلفة البداية. تقرأ فتكتشف أن فهمك أقل مما ظننت، وتعتذر فتسمع أثرًا لم تعرفه، وتضبط مألًا فيظهر أن عليك أكثر مما قدرت. ينفعل رجاء يعينك على احتمال هذه المعرفة والعمل بمقتضاها. تدخل الطريق كما هو، وتطلب فضل الله وأنت تتعلم وتصلح، دون أن تشترط سلامة صورتك من كل نقص.

وقد تبقى ثمرة هذا الدخول صغيرة في عينك، مع أنها أول شيء تحقق بعد وعود كثيرة. تفرح بها وتشكر الله، ثم تعرف ما بعدها. النظر الدقيق يحفظها من التهوين، ويحفظك من إعلان إنجاز لم يقع؛ فقد بدأت في جزء، وبقي للمقصد أجزاء تحتاج إلى عمل.

عائق تعرفه فتعمل فيه

حين تتكرر البداية، ابحث عن السبب المحدد. قد تغمض الخطوة، أو تكبر المهمة، أو تخاف أثر التصحيح، أو تسوف مع القدرة. وقد يحتاج العمل إلى إذن أو وسيلة أو معرفة مقدار حق. لكل واحد معالجة؛ واسم الأمانى إذا ألصقته بكل تأخر قد يحجب عنك العذر والحاجة الفعلية.

اسأل أمينًا عن خطوة تراها مستحيلة. قد يبين طريقًا، أو يؤكد عذرًا، أو يصحح تصور المهمة. ميز ما يلزم إنجازه قبل التصرف مما أضفته لتؤخره. قد يكون السؤال نفسه أول عمل صحيح؛ إذ يخرج المسألة من حكم واسع على النفس إلى معرفة يمكن البناء عليها.

ومتى عرفت العائق، فاجعل علاجه محددًا. نقص العلم له مسألة ومصدر سؤال، وازدحام الواجبات يحتاج ترتيبًا، والخوف من التصحيح يحتاج إلى معرفة القدر اللازم منه والبدء فيه. قولك كل صباح إن مشكلتك التسوييف يظل وصفًا، حتى تعرف ما ستفعله بشأن ما تؤجله.

وقد تحتاج إلى تصحيح وعد بالغت فيه. أردت تعلم فن كامل في مدة قصيرة، ثم صار ثقل الوعد سببًا لترك القليل النافع. رده إلى مقدار يمكن السعي فيه، واختر مسألة تحتاجها وأتم

فهمها. رجاؤك يتصل بذلك بعمل يستطيع التقدم؛ وتتكون الخبرة من أجزاء تؤديها وتراجعها، فتزداد معرفة بقدرها الحقيقي.

ويحتمل الرجاء ببطء الطريق. يعرف صاحبه خيرًا تحقق، وخيرًا بقي، ويواصل ما قدر عليه. يستطيع أن يقول إنه لم ينته بعد، وأن يكون صادقًا في عمله اليوم. أما استعجال لذة النهاية قبل مشقتها، فيعيده إلى وعد واسع يجد راحته في وصفه.

عد إلى آخر معنى نافع تعلمته، وحدد فعلًا يدل على فهمه. إن عرفت الحكم والطريق، فابدأ بالقدر المقدور. وإن بقي إشكال، فصغ سؤالًا دقيقًا واحمله إلى من يحسن جوابه. هكذا يجد الرجاء عملاً يحمله، ويجد التعلم أثرًا يتجاوز ساعة التأثير.

الفصل الرابع والثلاثون: حسن ظن كاذب

فرط في أمانة، ثم قال لنفسه: الله كريم، ولن يؤاخذني على هذا. يعرف كرم الله، وأضاف إليه حكمًا على فعل معين وعلى مصيره دون دليل. وقد تمر الإضافة في حديث النفس سريعًا، حتى يبدو له أن الجملتين خبر واحد. حين يفصلهما، يستطيع أن يبقي المعرفة الصحيحة، ويراجع الدعوى التي جعلها عذرًا. قال تعالى: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾. [فصلت: 23]. تبين الآية السابقة أن من ظنهم الفاسد اعتقادهم أن الله لا يعلم كثيرًا مما يعملون. يفسر السياق المراد، ويحفظنا من تنزيل حكم هؤلاء على كل مسلم قصر في طاعة. ومن دلالتها أن الظن بالله يعرف صدقه بموافقته لما أخبر به عن نفسه.⁷³

وتحتاج النفس إلى هذه المعرفة الجامعة؛ تعرف سعة المغفرة فتطلبها، وإحاطة العلم فتستحي من خيانة تخفى على الناس، والعدل فتحفظ للمظلمة قدرها. تتعاون المعاني في إصلاحها. أما انتقاء ما يطمئنها وإغفال ما يطالبها بالرجوع، فقد يجعلها تستريح إلى فهم صنعته على قدر رغبتها.

73 ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير سورة فصلت، الآيتين 22-23، في النص الإلكتروني للتفسير.

أخطأ عامل في سجل، وعرف أن التصحيح سيكشف تقصيره. قد يقول إن الأمر يسير، وإن المؤسسة لن تتضرر كثيراً. ليرجع إلى ما يمكن التثبت منه: هل السجل صادق؟ وهل يتعلق به حق أو قرار؟ وهل يستطيع تصحيحه بالطريق المناسب؟ إذا عرف واجب التصحيح، صار حرج المواجهة مشقة يحتاج إلى عون عليها.

وقد يضعف الإنسان وهو يعلم خطأه ويكره بقاءه، فيحتاج إلى علم وتوبة ومعالجة سبب. وقد يختار حجة تصرفه عن المراجعة، حتى يستقر الخطأ في نفسه كأنه مأذون فيه. يختلف موضع العون والبيان باختلاف هذين الأمرين. تعرف من نفسك الحجة التي تستعملها، ويعرف الناصح ما ظهر من قول وفعل؛ وكل حكم يبقى على قدر علم صاحبه.

وإذا خفت من سوء فعلك ورجوت المغفرة، فقد وجدت لكل معرفة موضعها. يدلك الخوف على ما ينبغي إصلاحه، ويمدك الرجاء بقوة للعودة. قد تتوهم أن خوفك يناقض حسن الظن، ثم إذا نظرت إلى جهته عرفت أنك تخاف تقصيرك وترجو فضل ربك. بقاء السؤالين يساعدك على أداء ما كلفت به.

دعوى لم يقم عليها دليل

اسأل عن العبارة التي تريحك: أي جزء منها أخبر به الوحي؟ وأي نتيجة أضفتها أنت؟ وهل أغفلت في استعمالها أمرًا تعرفه أو حقًا بقي لغيرك؟ قد يكفي وضوح هذا الفرق ليعود خبر الرحمة إلى غرضه؛ يدعوكم إلى التوبة، ويعينكم على عمل يصدقها.

ومن التبذير أن تحتج بما لم تعلم وقوعه: فعلت هذا مرارًا ولم أر عقوبة، فلا بد أن الأمر هين. غياب العقوبة عن علمك لا يغير حكم الفعل. الخيانة تعرف بدليلها ولو ربح صاحبها، والإحسان يعرف بدليله ولو شق أداؤه. يأتي تفصيل وهم الرخاء في موضعه، والمقصود هنا ألا تستخرج من استمرار قدرتك على الفعل إذنًا فيه.

وقد تكون حجتك كلام عالم تثق به، سمعته في مقام آخر. تحمل وعد التائب إلى المصّر، أو كلامًا في العذر إلى القادر، أو حقًا على الرفق إلى إسقاط حق. احترام القائل يدعوكم إلى فهم السؤال الذي أجاب عنه، وحدود جوابه. ارجع إليهما، حتى تنسب إلى كلامه ما دل عليه، وتفصل عنه ما أحببت أنت سماعه.

وقد تجد أن العبارة صحيحة وحدودها معلومة، وأنت كلما اقتربت من أداء الواجب وسعت استعمالها. يحتاج هذا الموضع إلى صدق في المحاسبة: ما الشيء الذي تريد أن تتجنبه؟ ربما كان حرج الاعتراف أو فقد مكسب أو بيان تقصير. إذا عرفت الكلفة، استطعت طلب العون عليها، بدل أن تغير معنى الدليل لتبقى بعيداً عنها.

ميزان تقبله لنفسك ولغيرك

إذا أخرت حقاً، قد تقول إن القلوب طيبة وإن التفاصيل صغيرة. وإذا تأخر حقك، تطلب الدقة والوفاء. جرب أن تنظر في حجتك من موضع المتضرر؛ لغيره من العدل ما تطلبه لنفسك. تحفظ حقك المشروع، وتقبل أن يحفظ هو حقه كذلك. تكشف هذه المقارنة تفاوتاً في الميزان دون أن تتحول إلى تجريح للنفس.

ويبدأ التصحيح بما تبين لك، ولو بقي حرج في صدرك. تستطيع الاعتراف بفساد الحجة، ثم أداء الحق وسؤال ما أشكل من طريقه. وقد يعود المخرج الذي اعتدته كلما ثقلت الخطوة؛ فذكر نفسك أنك ترجو رحمة الله وأنت تصلح، وأن المعرفة برحمته تقويك على الإصلاح الذي هربت منه.

أما الناصح، فيرد الحجة بوضوح، ويحفظ سياق آية فصلت. يبين الظن الذي ذمته، ثم يصف الخطأ المشاهد بقدره؛ فلا يجعل حكم أهل الكفر المذكورين فيها حكماً على مقصر بعينه. دقة استدلاله جزء من أمانة نصحه، كما أن دقة محاسبة المرء تحفظ عدله مع نفسه.

راجع تبريراً يريحك من إصلاح تعرفه. أبق ما فيه من خبر صحيح، واحذف ما أضفته بغير دليل، ثم سمّ مسؤوليتك بوضوح. تحتاج هذه المسؤولية إلى علم وعمل ومعونة؛ وفي طلبها تجد لحسن الظن أثره الصادق.

الفصل الخامس والثلاثون: سيغفر الله لي

يقولها تائب يستعين بها على الرجوع، ويقولها مصر يريد أن يبقى كما هو. تتشابه الكلمات، ويختلف ما حملته النفس عليها. لذلك يحتاج البيان إلى معرفة المقصود، وإلى جمع نصوص المغفرة؛ حتى يبقى الوعد باعًا على التوبة، وتبقى مشيئة الله فيما أخبر به دون دعوى علم بمصير شخص معين. وعد الله بمغفرة الذنوب للتائب حق. بين ابن كثير في تفسير الزمر أن الدعوة عامة للمسرفين إلى التوبة، وأن المغفرة الشاملة هنا متعلقة بالرجوع.⁷⁴ يصدق التائب خبر ربه، ثم يراجع ما يلزمه في توبته، ويسأل القبول والثبات. موضع المراجعة صدقه وعمله، وموضع الطمأنينة وعد الله الذي يؤمن به.

74 ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير سورة الزمر، الآية 53، في النص الإلكتروني للتفسير.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: 48]. ويفرق ابن كثير بين من لقي الله على الشرك، ومن تاب منه، وبين ما دون الشرك إذا مات عليه صاحبه من غير توبة.⁷⁵ يجمع القارئ هذا البيان مع آيات التوبة، فيحفظ لكل خبر دلالاته، ويجد الرجاء في موضعه دون شهادة بالغيب.

ما يعرفه التائب من نفسه

قد تقول: كيف أرجو وأنا لا أعلم مقدار صدقي؟ تعرف ما تباشره؛ تركت الفعل، وندمت، وعزمت ألا تعود، وبدأت ما لزمك من إصلاح. تعمل بهذا القدر، وتسال الله أن يتمه ويقبله. وإذا ظهر نقص عالجتة، وإذا جهلت حكمًا طلبت بيانه. صدق حاضر تجاهد عليه يتيح لك السير، ولو لم تجد شعورًا كاملاً يطمئنك إلى كل شيء.

وقد يتحول طلب هذا الشعور إلى تفتيش يستغرق اليوم. يشغل صاحبه بذنوب يتخيلها، ويغفل حقًا يعرفه أو سببًا يستطيع تغييره. رد محاسبتك إلى ما تعلمه، ثم استعن بالله

75 ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير سورة النساء، الآية 48، في النص الإلكتروني للتفسير.

عليه. سؤال القبول موضعه الافتقار والدعاء، ومعرفة الواجب تدلك على عمل في قدرتك.

أما إذا أبقيت قصد العودة وطريقها، فابدأ بتصحيح القرار. اسأل عما يمنعك من الإقلاع الآن. ربما احتجت إلى علم، أو تغيير سبب، أو مصارحة أمينة تحفظ الحقوق. تسمية العائق تفتح سبيل معالجته، وإعادة وعد تقطعه لنفسك بالمغفرة تبقيه كما كان ما لم يتصل بها اختيار جديد.

سعة المشيئة وحدود الشهادة

من مات على ما دون الشرك من غير توبة فهو تحت مشيئة الله، كما جاء في النص؛ وفي ذلك معرفة بفضله وعدله. لكنه خبر عام، لا يعين ما سيؤول إليه حال كل مصر. يبين ابن كثير هذا الفرق في موضع الآية.⁷⁶ يبقى المؤمن خائفًا من الحساب، راجيًا العفو، ويعلم أن المبادرة بالتوبة هي واجبه وهو قادر عليها.

والطمأنينة إلى الوعد تختلف عن شهادة المرء لنفسه بأنه استوفى كل ما علق عليه. تصدق قبول الله للتوبة من عباده، وتتعلم ما يلزمك فيها، ثم تعمل. قد تحتاج إلى مزيد من

76 ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير سورة النساء، الآية 48، في النص الإلكتروني للتفسير.

البيان في حق، أو إلى معاونة على ترك سبب. إيمانك بالوعد يقوي هذه المساعي، دون أن يشترط منك إحاطة كاملة بما خفي من نفسك.

ولهذا تحفظ النصيحة طرفي المسألة. تبين للمصر أن وعدًا خاصًا بمغفرته لا تملكه، وتبين للتائب أن ماضيه لا يستثنيه من الدعوة إلى الرجوع. تقول ما تعلم من قبول التوبة ومعالمتها، وترجو له الخير، وتعينه على الإصلاح الذي يحتاج إليه.

حين يكون للذنب صاحب حق

أخذ شخص مالا بغير حق، ثم أكثر الاستغفار وبقي قادرًا على رده. استغفاره طلب للمغفرة، والمال أمانة يلزمه أن يعرف سبيل أدائها. يسأل عن طريق الرد وما يقتضيه حاله، ثم يؤدي. وإن عجز عجزًا حقيقيًا، حفظ صدق السعي والنية، وأقر بالحق، وتجنب الكذب على صاحبه أو إنكاره.

وقد يسأل: هل يقبل الله توبتي إذا لم يرض عني من آذيتي؟ تحتاج المسألة إلى معرفة نوع الحق وما يجب عليه وما يستطيع، وإلى فصل ذلك عن مشاعر الطرف الآخر. للمال والخبر المؤذي وسائر الحقوق تفاصيل يرجع فيها إلى العلم.

يبذل التائب ما وجب بالطريق الصحيح، ويحفظ للمظلوم اختياره، دون أن يجبره على رضا يريح به نفسه.

وربما تم بعض الإصلاح وبقي بعضه. يستطيع رد جزء ثم يجتهد في الباقي، أو يصحح ما بلغه ثم يتتبع أثر الخطأ الممكن. يحفظ العلم بحق لم يتم، ويؤدي ما قدر عليه، ويسأل فيما اشتبه. الرجاء يعينه على مواصلة الوفاء حين لا يتيسر الإتمام دفعة واحدة.

وحين يقول لصاحب الحق إنه استغفر، يبقى عليه بيان ما فعله بشأن الأمانة. الدعاء طلب يرفعه إلى ربه، وخطاب صاحب الحق يحتاج إلى معرفة وإجراء يتعلقان بحقه. أداء كل منهما في موضعه يحفظ الصدق من أن يتحول إلى كلمة تنهي مطالبة مشروعة.

تبقى هذه المطالب باب عمل للتائب، مهما كان ماضيه. نعيه على العلم، ونحفظ حقوق المتضررين، وندعو له بالثبات. رحمة تدعوه إلى الرجوع، وعدل يصون ما بين الناس؛ والرجاء يعينه على الاستجابة لهما.

اللهم ارزقنا توبة صادقة، وأعنا على أداء ما لزمنا، واجعل معرفتنا برحمتك قوة على إصلاح أعمالنا ونياتنا. نرجو مغفرتك، ونسألك الثبات على ما تحب.

الفصل السادس والثلاثون: سوف أتوب

اختار لنفسه موعدًا: نهاية موسم، أو الانتقال من عمل، أو زوال ضغط. وحين جاء الموعد رأى علامة أخرى أليق بالبداية. يتغير التاريخ ويبقى ما يؤجله في موضعه. وقد يكون وراء ذلك مانع يحتاج عونًا، وقد تكون النفس نقلت إلى المستقبل كلفة لا تريد تحملها اليوم.

يذكر القرآن ندم من حضره الموت فتمنى مهلة يتصدق فيها ويكون من الصالحين، ثم يقول: ﴿وَلَوْ يُؤَخَّرُ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون:11]. وبين السعدي أن العمل موضعه زمن الإمكان؛ فإذا فات، بقيت أمنية لا تسترد الوقت.⁷⁷

وأنت لا تعرف أجلًا تضمن به التأخير. يحملك هذا العلم على مبادرة منضبطة: تكف عما عرفت تحريمه، وتسأل عن واجب جهلت تفاصيله، وتبدأ إصلاح الضرر الذي ترتب على فعلك. تختلف الخطوات بحسب المسألة، ويجمعها عزم حاضر على العودة، مع حفظ الحقوق التي قد يضيعها تصرف مرتجل.

77 السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تفسير سورة المنافقون، الآيتين 10-11، في النص الإلكتروني للتفسير.

أمر توقفه وأثر تصلحه

قد يحتاج رد المال إلى معرفة مقداره، وتصحيح الخبر إلى الوصول لمن بلغه، وتغيير العادة إلى ترتيب وسيلة تعينك. يحتاج الإتمام إلى زمن، ويستطيع الإقلاع عن أصل المعصية أن يبدأ الآن. تترك الكذب، ثم تصلح آثاره بما تستطيع. وتكف عن الاعتداء، ثم تتعلم ما يجب من الحقوق وتؤديه.

نشر شخص كلاماً دون تحقق، ثم انكشف خطؤه. يستطيع إيقاف نشره وحذف النسخة التي يملكها، والنظر في طريق تصحيح ما وصل إلى الآخرين. يفصل بين قطع الضرر الجاري وإتمام إصلاحه؛ فلا ينتظر خطة تشمل كل الأثر ليؤدي ما في يده، ويحفظ التصحيح من نشر تفاصيل خاصة تحدث أذى جديداً.

وإذا اشتبه الطريق، صاغ سؤالاً يعرف به ما يلزمه. قد يجمع المعلومات الموجودة، ويحفظ خصوصية الأطراف، ويطلب صاحب علم أو خبرة مناسباً. يصبح طلب المشورة جزءاً من الإصلاح حين يفضي إلى فهم وقرار. أما جمع الآراء دون حاجة محددة، فقد يزيد المسافة بينه وبين العمل الذي بدأ يسأل عنه.

البداية التي تنتظر القوة

ربما قال إنه يؤخر التوبة خوفاً من نقضها؛ يريد أن يشدد عزمه أولاً. فيبقي معصية حاضرة خوفاً من عثرة محتملة. يسأل الثبات، ويعزم على الصدق الآن، ويعالج أسباب الضعف التي يعرفها. القوة التي يحتاج إليها يطلبها في طاعة الله والاستعانة به، ويبدأ بما يقدر عليه وهو مفتقر إلى العون.

وقد يرجع إلى العثرة بعد توبته، فيجدد الرجوع وينظر في السبب الذي تركه. هذا المستقبل لم يكن معلوماً له حين بدأ، وكان مأموراً بالصدق في عزمه الحاضر. أما استبقاء قصد الذنب أو التخطيط له، فيحتاج إلى تصحيح يزيل ما يناقض العودة التي يعلنها.

ومن العون أن تتوقع موضع ضعفك التالي. ربما تكرر الفعل في وقت بعينه، أو مع وسيلة تعرفها، أو في صحبة تستدرجك. ابحث عن تغيير مشروع يعالج السبب قبل حضوره. وقد تحتاج إلى مساعدة موثوقة بقدر الحاجة، دون استعراض تفاصيلك للناس. ينتقل وعدك بأن تكون أقوى إلى ترتيب يهيئ لك وجه العمل.

وعد كبير وخطوة تعرفها

قد تقول: «سأصلح حياتي كلها»، فتستقبل العبارة بحماس ثم تستثقل اتساعها. اختر منها فعلاً معلوماً: وسيلة توقفها، أو حقاً تؤديه، أو حكماً تسأل عنه، أو عوناً مباحاً تطلبه. يحفظ تحديد الخطوة جدية ما تريد، ويتيح لك معرفة ما فعلت وما بقي.

وقد تصلح قائمة قصيرة لترتيب شؤون كثيرة، ثم تحتاج إلى أن تخرج من الكتابة إلى أول بند. إذا ظهر بعده أمر تالي، فأدّه على قدر استطاعتك. تستطيع أن تعدل ترتيب الوسائل حين يتبين نفع ذلك، ويبقى الواجب الذي تعلمه حاضراً في حسابك.

وإذا تعثرت خطوة، فاعرف السبب. ربما لم يصل الاعتذار، أو لم يجتمع كل المبلغ، أو احتاج التصحيح إلى طريق أخرى. هذا نقص في إتمام مشروع الإصلاح، ويختلف عن اختيار تركه. تسعى فيما يلزمك، وتطلب البيان، وتحفظ ما أقلعت عنه؛ فصعوبة البداية تدل على حاجة تعالجها.

وقد ينفعك سؤال أمين يبين الكلفة التي تهرب منها. أهى خسارة مكسب، أم مواجهة شخص، أم ترك مألوف؟ إذا عرفت السبب، أمكن البحث فيه بعلم ورحمة. وربما وجدت أن

الإقلاع الذي تتخيله كبيراً يبدأ بفعل محدد، وأن الخطوة الأولى تكشف لك ما تحتاجه فيما بعدها.

وهذا ما يحتاجه من يخاطب مسوقاً أيضاً. يعينه على تسمية ما يؤجله، ومعرفة ما يملك فيه، ثم يقدم من المساعدة ما يستطيع. التذكير بقصر العمر يبلغ أثره حين يتصل بواجب واضح؛ يسمع السامع التحذير، ويعرف كيف يجيب عنه بفعل يناسب حاله.

سمّ أمراً تؤجل إصلاحه، وافصل ما يجب إيقافه الآن عما يحتاج إلى ترتيب. ابدأ بالأول، واجعل للثاني خطوة مقدورة. أدّ ما تعلم أنه واجبك، واسأل فيما التبس عليك. ستبقى محتاجاً إلى العون فيما بعد البداية؛ فاسأل الله الثبات، ودع رجاءك يحمل عملك اليوم، قبل أن ينقضي زمن الإمكان الذي تعيشه.

الفصل السابع والثلاثون: الرخاء ليس شهادة

حين تتسع الدنيا على الإنسان، قد يطمئن إلى نفسه أكثر مما يراجعها. يرى المال يكثر والناس يقبلون، فيحسب أن النجاح قد شهد لكل اختياراته. وحين تضيق عليه، قد يحمل الخسارة إلى قلبه حكماً بالإهانة. وفي الحالين تجاوز ما يعرفه من ظاهر عيشه إلى منزلة عند الله لا يعلمها.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ﴾ [الفجر: 15-17].

فالسعة والضيق كلاهما موضع ابتلاء. يرد التفسير نظر العبد إلى ما يصنع في حاله، بعدما كان يريد أن يستخرج منها وحدها حكماً على قربته أو بعده.⁷⁸ وهنا يجد الرجاء وجهته: يرجو خير ربه، ويسأله العون على عبودية الوقت الذي يعيش فيه.

78 السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تفسير سورة الفجر، الآيات 15-17، في النص الإلكتروني للتفسير.

ما يجب في النعمة

ومن دقة السياق ذكر اليتيم بعد رد ذلك الظن. انشغل الإنسان بما يعنيه المال لمنزلته، وغفل عما جعل الله له حقاً في قدرته. يسأل: لماذا أعطيت؟ ثم يهمل سؤالاً يعرف طريق جوابه: ماذا يجب علي فيما أعطيت؟

إذا جاءك رزق، فافرح به واحمد الله عليه، ثم انظر في مصدره ووجه استعماله. هل كسبته من طريق مباح؟ هل أدت النفقة الواجبة والزكاة حيث وجبت؟ هل حفظت حق من يعمل معك؟ يتصل الشكر بهذه الأسئلة، ويبلغ أثره إلى إنسان ينتظر منك حقاً أو معروفاً مقدوراً.

وحين ترى السعة امتحاناً، تحفظ للمحتاج كرامته. فافتقاره لا يخبرك بسريره، وغناك لا يمنحك علماً بمنزلتك الخاصة. تستطيع أن تبذل له مما في يدك، وأنت تعلم أن القدرة مسؤولية تحتاج فيها إلى توفيق الله.⁷⁹ ويصونك هذا الفهم من استعلاء قد يختبئ في صورة الإحسان.

وربما دلتك مراجعة قريبة على مال تؤخر أداءه، أو إسراف تستطيع تركه، أو قريب يحتاج إلى عون. ابدأ بما علمت؛

79 السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تفسير سورة الفجر، الآيات 15-17، في النص الإلكتروني للتفسير.

فالانتظار حتى تجد علامة خفية على قبولك قد يشغلك عن حق ظاهر في نعمتك. اسأل الله البركة وحسن الاستعمال، واجعل لسؤالك أثراً فيما تختاره.

نجاح يحتاج إلى إصلاح

مثال تطبيقي من إنشاء المؤلف: نجح مشروع تجاري، وزادت مبيعاته، وفي بعض معاملاته أمر يحتاج إلى بيان. قد يغري صاحبه النجاح فيؤجل السؤال، كأن إقبال المشتريين قد أجاب عنه. والذي يفيد أنه يتعلم حكم المعاملة ويصححها؛ فازدياد الربح لا يبين حلها، وتصحيحها من حفظ ما يرجو بركته.

وقد يجتمع الثناء على خدمة نافعة مع تقصير في حق عامل. يعرف صاحبها قدر ما أحسن، ثم يؤدي الحق الذي ظهر له. يستطيع أن يشكر النجاح ويصلح الخلل في وقت واحد، دون أن يطلب من صورته أمام الناس أن تكون معصومة من السؤال.

ويجري هذا المعنى في الجاه والإقبال. قد يكثر السامعون فتستريح إلى كل ما قلت، وقد يقل المنتفعون فتشك في قيمة قولك كله. استجابة الناس تحتاج إلى فهم أسبابها؛ أما صحة القول فمرجعها دليله. راجع ما علمته من خطأ ولو

استمر المديح، واحفظ حق من تضرر ولو لم ير الناس
تقصيرك.

حين تضيق الأسباب

وفي الخسارة تحتاج المراجعة إلى العدل نفسه. افحص ما
يمكنك معرفته: ربما نقصت مهارة، أو أخطأت في تقدير، أو
أثر ظرف خارج قدرتك، وربما اجتمعت أسباب عدة. تعالج ما
ثبت، وتتعلم ما جهلت، وتستعين بالله فيما عجزت عنه. هذا
عمل تستطيع مباشرته قبل أن تعرف الحكمة التفصيلية مما
جرى.

وخسارة مشروع مباح لا تخبرك وحدها بأن صاحبه معاقب.
ما تعرفه من سبب له موضعه، وما تجهله من الغيب تتركه
لله. لا يحتاج الصبر إلى اتهام تنشئه لنفسك، كما لا يحتاج
طلب التحسن إلى شهادة تستخرجها من كل نجاح.

وربما فتحت المقارنة بالناس باباً إلى الحزن: ترى من هو
أوسع رزقاً، فيخطر لك أن دعاءه أقرب قبولاً. لكنك ترى جانباً
من حياته، وتجهل حقيقة حاله وعاقبة ما أعطي. أما ما كلفت
به فطريقه أوضح: تحفظ دينك وحقوقك، وتتعلم، وتخطط،
وتأخذ بالسبب المشروع.

يبقى تحسين العيش مقصدًا مباحًا تسعى إليه. تفرح بالرزق،
وتصلح عشرة التجربة، ثم تضع النتيجة في حد ما تكشفه:
خيرًا عن شأن في الدنيا، وموضعًا لشكر أو صبر وعمل. وإذا
بقيت أسئلة عن الحكمة لم تجد جوابها، فلك أن تؤدي واجبك
قبل أن تحيط بها.

حق نعمة: اختر نعمة ظاهرة وحدد حقًا يتصل بها، ثم اختر
ضيقةً يشغلك وسببًا مشروعًا لتحسينه. ففي السعة شيء
تؤديه، وفي الضيق خطوة تقدر عليها؛ وهما أقرب إلى عملك
من الحكم على منزلتك عند الله.

الفصل الثامن والثلاثون: اليأس بعد الذنب

قد يقول المذنب: «فعلت خطأ»، ثم يمد هذه الكلمة على ما بقي من عمره، فيقول: «لن يكون مني خير أبداً». الأولى اعتراف بفعل يحتاج إلى توبة، والثانية حكم على مستقبل غائب. وبينهما قد يضيع العمل الذي كان الندم يدعوه إليه؛ يستغرقه لوم نفسه حتى يترك ما يستطيع إصلاحه.

وفي سياق ذكر الشرك والقتل والزنا جاء الاستثناء: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾. [الفرقان: 70]. يشرح السعدي التوبة بالإقلاع والندم والعزم على عدم العودة، ويصلها بالإيمان والعمل.⁸⁰ فالذي ثقل عليه ماضيه يسمع في الآية دعوة إلى رجوع له معالِم: ذنب يتركه، وإيمان يقويه، وعمل صالح يأتي به.

وصف يكشف الواجب

ربما كانت الكلمة التي تكررهما على نفسك أوسع من الواقعة. تقول: أنا خائن، فتجعل الخيانة وصفاً يحكم كل ما سيأتي منك. سمّ الفعل بصدق: خنت هذه الأمانة، وهذا حق يلزمي.

80 السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تفسير سورة الفرقان، الآية 70، في النص الإلكتروني للتفسير.

يبقى قبح الجناية واضحًا، ويظهر إلى جانبه موضع الإصلاح. لا تحتاج إلى التهوين مما فعلت حتى ترجو مغفرته.

ومن صدق الاعتراف أن تحفظ ألم من تضرر. قد لا تستطيع رفع كل أثر، وقد يبقى في المسألة ما يحتاج إلى سؤال أهل العلم. تؤدي ما تبين لك، وتطلب البيان فيما اشتبه، وتتعامل بصدق مع ما يعجزك. عجزك عن محو الأثر كله يبين حدود قدرتك، ويبقى الواجب الممكن في تلك الحدود.

مثال تطبيقي من إنشاء المؤلف: خدع شخص صديقًا ثم انكشف كذبه. قال في نفسه: الثقة لن تعود قريبًا، فما فائدة الاعتذار؟ اختلط عليه ما يؤديه بما يرجوه. عليه الصدق وإصلاح الضرر بحسب ما يلزمه، أما الثقة فتتصل بتجربة صاحبه وقراره، وقد تحتاج إلى وقت. يبدأ بأداء حقه، دون أن يشترط عودة العلاقة ليصدق في رجوعه.

وقد يحتاج التعامل بعد الخيانة إلى ضمان أو تحقق. يحتمل التائب الاحتياط المشروع، وهو يعلم أنه يحفظ حقوق الناس، ولا يستخرج منه حكمًا بأن رحمة الله قد حجبت عنه. يمكنه أن يتوب، وأن يتحمل تبعه فعله، وأن يرجو الخير؛ لكل واحد من هذه المعاني عمل يخصه.

ما تصنعه بذكرى الذنب

إذا عاد إليك التذكر، فانظر فيما بقي فيه من واجب. إن بقي حق لم يؤد، أو سبب ضرر قائم، وجدت فيه خبراً يدعوك إلى فعل. وإن عملت بما علمت، ولم يظهر أمر جديد، فخذ من الذاكرة ما يحفظ الدرس: استغفاراً، وحذراً من السبب، وصدقاً في يومك الحاضر. استعادة التفاصيل من أولها كل مرة قد تستنفد القدرة التي تحتاجها إلى هذا العمل.

وقد يبقى الحزن والخجل بعد قرار التوبة. تراجع شروطها وما يلزمك من أفعال، وتساءل الله القبول، وتمضي في الواجبات. المشاعر قد تتأخر عن القرار؛ وبقاء ألم في قلبك لا يثبت وحده أن رجوعك لم يصح. تستطيع أن تصلي وتؤدي حقاً وأنت لم تجد بعد كل الطمأنينة التي تتمناها.

وحيث يختلط عليك الأمر، اطلب عوناً ممن يجمع الأمانة والعلم بما تسأله. أعطه القدر الذي يحتاج إليه ليفهم، وحدد السؤال: ما الذي يجب رده؟ كيف يصح ما نشر؟ وأي سبب ينبغي أن أتركه؟ يفتح السؤال الواضح طريقاً إلى عمل، ويحفظ خصوصيتك من أن تصبح قصة حياتك مادة عامة.

صحبة تعين على الرجوع

يحتاج التائب إلى من يصدقه في الحاضر. يذكره بواجبه، ويحفظ سعة باب الخير أمامه، دون أن يعيد كل يوم تعريفه بأسوأ ما فعل. وقد يجتمع هذا العون مع احتياط مشروع؛ فصاحب الأمانة له أن يتحقق، والمتضرر له حقوقه، ولا يلزم أحداً إعادة علاقة قبل أن يطمئن إليها.

أما السخرية من صلاة التائب، أو الجزم بأن كل خير يأتي به تمثيل، فتجاوز لما نعلم. نعامل الظاهر بعدل، ونحفظ الحقوق، ونترك السرائر لله. يستطيع من حوله أن يعينوه على الاستقامة دون تزكية باطنه، وأن يصونوا مصالحهم دون سد أبواب العمل الصالح في وجهه.

ثم اقبل أن يكون بدء الخير هادئاً. قد تريد فعلاً كبيراً يغير ذكرى الناس كلها، بينما أمامك وعد تفي به، وصلاة تحافظ عليها، وأذى تكف عنه. بهذا الصدق تبني ما بقي من يومك؛ تعرف واجبك وتؤديه، وترجو أن يبارك الله في عملك ولو لم يلتفت إليه أحد.

كلمة للنفس: اكتب وصف الفعل ومسؤوليته: أخطأت في كذا، وأقلعت عنه، والخطوة الباقية علي كذا. احفظه لنفسك دون كشف ستر أو حق لغيرك، ثم أعط تلك الخطوة من جهدك ما كنت تنفقه في تكرار الحكم على مستقبلك.

الفصل التاسع والثلاثون: اليأس بعد الخسارة

قد يقع الخبر في لحظة، ثم يمتد أثره في أيام كثيرة: عمل ينقطع، أو تجربة تتعثر، أو فرصة كان الإنسان قد رتب عليها مستقبله. في أول الألم يحتاج إلى أن يعرف ما خسره ويسميه بصدق. وقد يبقى حبه لما فاتته، وإن علم أن عليه أن يمضي في حياته بعده.

ومضى في قصة يعقوب عليه السلام اجتماع الحزن والشكوى إلى الله مع النهي عن اليأس والأمر بطلب الخبر. ينتفع صاحب الخسارة بهذا الاجتماع: يستطيع أن يسعى وهو حزين، وأن يحمل حزنه إلى ربه وهو يعمل. أما النتيجة الخاصة بالقصة، فتظل في موضعها، دون أن نستخرج منها وعدًا بعودة كل مفقود على صورته نفسها.⁸¹

سَمَّ ما فقدته

إذا قلت: «لم يبق لي شيء»، فارجع إلى ما تقصده. قد يكون الذي فُقد عزيزًا لا يقوم غيره مقامه؛ وهذا ألم يحتاج إلى رفع. وقد تكون فرصة تعذرت، وبقي مقصدها ممكنًا من

81 الطبري، جامع البيان، تفسير سورة يوسف، الآية 87؛ والسعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تفسير السورة نفسها، الآيتين 86-87، في النصين الإلكترونيين للتفسير.

طريق آخر. دقة العبارة تحفظ قيمة المفقود، وتتيح لك أن ترى ما بقي خارج دائرة الخسارة.

اسأل: ما الذي انتهى؟ وما الذي تأثر وما زال قابلاً للإصلاح؟ وما الذي في يدي وأحتاج إلى حفظه؟ يصغر بهذا السؤال مدى الحكم، دون أن نصغر الخسارة نفسها. كانت العبارة تضم الحياة كلها إلى واقعة، فيعيدها الوصف إلى حدود ما وقع فعلاً.

مثال تطبيقي من إنشاء المؤلف: لم يقبل طالب في برنامج كان يريده. فاتته هذه الفرصة في وقتها، وبقيت قدرته على التعلم. حين يتهياً للنظر، يراجع شروط القبول، وإمكان إعادة التقديم، والطرق الأخرى إلى مقصده. أما يوم سماع الخبر، فله أن يحفظ ما يلزمه ويؤجل ما يسوغ تأجيله حتى يجمع معلوماته.

وقد يبقى المقصد ويتغير الطريق: يبقى كسب الحلال مطلوباً ويتغير العمل، ويبقى التعلم مطلوباً ويتغير المكان. وإذا كان المفقود مما لا يعوض بمثله، فلا تكلف نفسك العثور على بديل مطابق كي تستطيع العيش بعده. احفظ الصلات والواجبات وأبواب الخير التي بقيت، وأنت صادق في محبة ما فاتك.

مراجعة تعلّمك شيئاً

ربما كانت الخسارة متصلة بخطأ منك. يقتضي الرجاء أن تعرفه وتتعلم منه، بقدر ما تثبته الوقائع. وربما حملت نفسك جميع الأسباب لأنك تتألم، مع أنك تملك بعضها وتعجز عن بعضها وتجهل بعضها. عدل المراجعة أن تعالج المعلوم، وتطلب بيان المجهول، وتعرف حد قدرتك.

وقد تغريك الخيبة بقول أوسع: سعت ولم أنجح، فالسعي كله لا ينفع. اسأل بدل ذلك: ماذا تعلمت من هذه المحاولة؟ ربما عرفت شرطاً أغفلته، أو مجالاً لا يناسبك، أو ظرفاً خارج إرادتك. تثمر المراجعة حين تزيد معرفتك معرفة تهدي قرارك؛ أما إعادة نطق الخيبة بصيغ أشد، فتزيد الثقل نفسه.

وانظر إلى البدائل على ضوء هذه المعرفة. قد ينفعك الاستمرار، وقد يكون تغيير الطريق أو التوقف أحكم بعد سؤال أهل الخبرة. لا تجعل إثبات رجائك سبباً لمطاردة وسيلة تعذرت إلى غير نهاية، ولا تستبدلها بمطلوب مؤذٍ فراراً من ألمها. للمقصد المشروع حق، وللمعلومات التي ظهرت حق في قرارك أيضاً.

للقرار وقته

قد يثقل جمع المعلومات في أول الشدة. استعن بمن تثق به على ترتيب ما يحتاج إلى ترتيب، وفرق بين واجب لا يحتمل التأخير وقرار يمكن أن يتمهل. يكون للتمهل غرض وحدود؛ تنتظر البيان أو تستشير، ثم تقرر، بدل التزام جديد تدخله لتغيب عن حزن اللحظة.

وإذا اتصل بالخسارة ظلم، فالصبر يجتمع مع طلب الحق بالطريق المشروع. لك أن تعمل على رفع الضرر، وأن تتعلم ما يحفظك، وأن تستعين بالله على ما يخرج عن قدرتك. يصح التفويض مع أداء السبب، ويبقى السعي مفتقرًا إلى الله في نتائجه.

وقد يطول التكيف، فتقدر في يوم على كثير، ويثقل عليك القليل في آخر. لاحظ الواجب الممكن وخذ من العون ما تحتاج. تقلب النشاط وحده لا يزن رجاء قلبك، ولا يقتضي محاكمة جديدة كل صباح. يمضي الإنسان في حياة ما زالت تحمل ألمًا، ويجد فيها فعلًا نافعًا يستطيع أدائه.

إن كنت إلى جانبه

استمع لصاحب الخسارة قبل أن تفسر له ما جرى. ربما احتاج إلى خدمة صغيرة، أو جمع معلومات، أو كلمة تحتل حزنه.

قل ما تعلم، وادع له، واعرض مساعدة محددة. أما وعده بأن فرصة أعظم ستأتيه قريباً، فيجعل للمستقبل موعداً لا تعرفه.

قد تعينه عبارة صادقة وفعل نافع أكثر مما يعينه حديث طويل عن نهاية سعيدة لم تقع. اترك له أن يسأل وأن يحزن؛ فالرجاء يجد طريقه حين يرى المتألم مجالاً لعمله، دون أن يُطلب منه إنكار ما فقده.

وقفة عمل: اكتب ثلاث خانات: ما أستطيع إصلاحه، وما أستطيع تعلمه، وما وقع ولا أملك تغييره. اختر فعلاً من الأول أو الثاني، واستعن بالله في الثالث، مع حفظ كل حق تستطيع طلبه.

الفصل الأربعون: رجاء المخلوق

يحتاج الطالب إلى بيان معلمه، والعامل إلى إنصاف مسؤوله، وصاحب الضيق إلى معونة من يقدر عليها. يجري هذا في حياة الناس، ويظل القلب راجياً فضل الله، عارفاً بأن من يسأله بشر له قدرة وحدود. فحسن الطلب يبدأ بمعرفة ما يرجوه، وممن يرجوه، وما يستطيع ذلك الإنسان بذله.

قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾. [النحل: 53]. يرد هذا الأصل القلب إلى المنعم، ويحفظ للأسباب منزلتها. يشكر المحسن على ما قدم، ويعلم أن معروفه لا يجعله مستقلاً بالعطاء، ولا مالكا للمغفرة أو هداية القلب.⁸² يجتمع شكر الإنسان مع افتقار العبد إلى ربه؛ فالوفاء بالمعروف من حسن التعامل مع السبب الذي يسره الله.

ماذا تطلب؟

في التعامل حق ثابت، ووعد بمعونة، ومحاولة قد تنجح وقد تتعذر. وإذا خلطت بينها، أثقلت العلاقة بما لم يقبله أحد طرفيها: تسكت عن حقك كأنه منة، أو تطالب بمعروف كأنه

82 السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تفسير سورة النحل، الآيتين 53-54؛ والتعليق عليهما معاً في موضع تفسير الآية 54 من النص الإلكتروني.

دين، أو تتهم صاحب المحاولة لأنه لم يبلغ ما أردت. ارجع إلى ما اتفق عليه فعلاً، واطلب بيان الحكم حين يشكل عليك.

مثال تطبيقي من إنشاء المؤلف: وعد شخص باحثًا عن عمل أن يعرفه إلى جهة مناسبة. يقدر على إيصال اسمه، وقد يعجز عن ضمان التوظيف. ينتفع الباحث بتعريفه ويشكره، ويواصل سعيه في سائر الأسباب. فإذا تأخرت النتيجة، نظر فيما حدث بإنصاف؛ فالتأخر وحده لا يثبت خيانة. وإن ظهر كذب أو إخلال بحق لازم، راجعه في موضعه، دون أن يحجب اسم حسن الظن ما ثبت من خطأ.

ويحفظ الوضوح الطرفين. إن كنت الطالب، فبين الحاجة واسأل عما تستطيع توقعه، بغير ضغط أو إحراج أمام الناس. وإن كنت المعين، فعد بالفعل الذي تملكه، واذكر ما يتوقف على غيرك. قد تريحك في اللحظة عبارة واسعة، لكنها تحمل صاحب الحاجة انتظارًا لم تكن قادرًا على الوفاء به.

وعزة النفس تجتمع مع طلب مشروع واضح. للمحتاج أن يسأل، ولصاحب الحق أن يذكر باتفاقه أو يستوفي حقه بطريقه. يحفظ الأدب مقدار الطلب وطريقته، ولا يضيع الحاجة في غموض يخشى صاحبه أن يبينه، ولا يبرر إلحاحًا يؤذي من يسأله.

أين يقف السبب في قلبك؟

يبين خالد السبت أن الأسباب تحتاج إلى شروط وانتفاء موانع، وأنها لا تستقل بإيجاد النفع؛ فالقلب يتوجه إلى الله خالقها. ومن مواضع الخلل أن يعلق الإنسان بها تعلقًا يتجاوز حدودها، أو يخدم صاحبها بما يحرم طلبًا لرضاه.⁸³

إن رجوت من العالم علمًا يقدر على بيانه، أو من القريب معونة يستطيعها، فراجع اعتقادك وطريقة سؤالك في حدود هذا الطلب. مجرد رجاء النفع المعتاد من الناس لا يعني الشرك أو فساد القلب. وإنما تختلف مسائل تحتاج إلى تمييز: هل نسبت إلى المخلوق استقلالًا بالنفع؟ هل صرفت له عبادة؟ هل أطعته في محرم لتحفظ مساعدته؟ جمع هذه الأحوال في عبارة مبهمة يضيع العلم بها.

وقد ينفعك شخص في مرة ويعجز في أخرى. المعلم قد يجهل جوابًا، والصديق قد لا يملك المال، وصاحب القرار قد يحتاج إلى موافقة غيره. إذا عرفت هذا، صغت سؤالًا أقرب إلى قدرته. تطلب فعلًا معلومًا، وتترك له مساحة أن يقول

83 خالد بن عثمان السبت، أعمال القلوب، دار ابن الجوزي، ط1، 1438هـ/2017م، ج 2، قسم الرجاء، ص 53-116؛ وللتصنيف والدرجات ص 97-99، ولأسباب تنمية الرجاء ص 100-105، ولثمراته ص 106-112.

بصدق ما يستطيع؛ فيخف عن العلاقة عبء توقع إنقاذ شأئك كله.

ثمن المساعدة

وربما عرضت لك رغبة في حفظ رضا من تنتظر نفعه، فتسكت عن واجب أو توافق على باطل. هنا تحتاج إلى أن ترى الثمن قبل أن ترى الفرصة. فالذي يعدك بالمساعدة يظل مخلوقاً محتاجاً، وما يرجى منه لا يبيح محرماً ولا أذى لغيرك.

قد تكون كلفة الامتناع شاقة، وقد تخشى أن يضيع بسببها مطلوب تحبه. استعن بالله على حفظ دينك وحقوق الناس، وابحث عن طريق مباح، واسأل أهل العلم فيما اشتبه. وضوح الكلفة يعينك على حسن تقديرها، ويبقى الحرام في موضعه مهما عظم ما وعدت به.

وإذا تعذر السبب الذي انتظرت، فراجع البدائل الممكنة. قد يعتذر الشخص لعجز، وقد يتغير ظرفه، وقد تحتاج أنت إلى طلب مختلف. يتيح لك هذا النظر أن تستأنف السعي دون أن تجعل جواب إنسان واحد حكماً بأن الخير كله انتهى.

وفي كل ذلك احفظ الوفاء والعدل: اشكر من أحسن، ولا تمح معروفه إذا عجز لاحقًا؛ واطلب البيان حيث يتعلق الأمر بحق، دون أن تتهم بما لم يثبت. حين يبقى الناس في قلبك على قدر ما يملكون، يسهل أن تشكرهم وأن تختلف معهم بإنصاف، وتبقى راجيًا فضل ربك من الأبواب المشروعة.

اللهم ارزقنا صدق الافتقار إليك، وأعنا على شكر من أحسن إلينا، وعلى العدل مع من تعذر عليه ما نرجوه. واجعل أسبابنا في مرضاتك، وقلوبنا راجية فضلك.

الباب السادس: كيف ينمو الرجاء؟

ينمو الرجاء بما يتعلمه العبد عن ربه، وبما يذكره من نعمه، وبما يكرره من دعاء وعمل وصحبة نافعة. نستقبل هذه الأسباب بقدر الحاجة، وننظر في أثرها على الحياة.

الفصل الحادي والأربعون: معرفة الغفور الرحيم

إذا طال نظر العبد إلى عجزه، ربما ضاق في قلبه ما يطلبه. فإذا استحضر ما أخبر الله به عن رحمته ومغفرته، عرف سعة باب السؤال، وقصد ربه وهو محتاج. وتأتي هذه المعرفة من الوحي؛ يتلقى ما قاله الله عن نفسه، فيجد للرجاء أصلاً أثبت من صورة يصنعها ليطمئن إليها.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:180]. يبين السعدي دلالة الأسماء الحسنى على صفات الكمال، وأن الدعاء بها يشمل العبادة والمسألة.⁸⁴ يتوب العبد وهو يرجو قبول التوبة، ويسأل المغفرة والرحمة وهو يعلم أن ربه غفور رحيم؛ فيتصل ما تعلمه بما يحتاج إليه. وقد يسمع الاسم في آية، ثم يعود إلى معناه في دعائه، فيجد للكلمة التي حفظها أثراً أقرب إلى قلبه. وإذا تعلّم ما يدعو إليه الاسم، أعانته المعرفة على عبادة يؤديها وعلى خلل يعرف كيف يبدأ إصلاحه.

84 السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تفسير سورة الأعراف، الآية 180، في النص الإلكتروني للتفسير.

علم يبلغ إلى الدعاء

عن شداد بن أوس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «سيد الاستغفار أن تقول: اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي وأبوء لك بذنبي، فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت». قال: «ومن قالها من النهار موقناً بها، فمات من يومه قبل أن يمسي، فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو موقن بها، فمات قبل أن يصبح، فهو من أهل الجنة». رواه البخاري.⁸⁵

تبدأ الكلمات بمعرفة الرب وإفراد العبادة له، ثم تضع الداعي في مقامه: عبد خلقه الله، مفتقر إليه. ويأتي الاعتراف بالنعمة مع الاعتراف بالذنب، ثم سؤال المغفرة. فإذا استغفرك خطوئك وحده، رددك هذا الدعاء إلى معرفة أوسع؛ ترى إحسان ربك، وتقر بتقصيرك، وتعرف من تسأله.

وفي اجتماع الاعترافين عدل تستقيم به نظرتك إلى يومك. قد أنعم الله عليك، وقد تكون أسأت فيما أعطاك؛ فتشكر إحسانه وتتوب من إساءتك. يبقى الفضل فضلاً ولو قصرت،

85 البخاري، الصحيح، كتاب الدعوات، باب أفضل الاستغفار، حديث شداد بن أوس، رقم 6306.

ويبقى التقصير محتاجاً إلى إصلاح ولو كثرت النعم. ومع تكرار الفهم يصير الاستغفار باباً لتصحيح النظر والعمل، إلى جانب الكلمات التي يدعو بها اللسان.

وفي تمام الحديث بشارة مقترنة باليقين المذكور فيه. نتلقاها كما جاءت، ونتعلم الدعاء ومعناه، ونحفظ قيدها مع فضلها. أما الحكم على معين بمجرد سماع الألفاظ منه، فيتجاوز ما نعلم عن حاله. يحفظ نقل النص كاملاً سعة البشارة وحدود دلالتها معاً.

ما الذي تغيره المعرفة؟

معرفة الاسم تتجاوز حفظ لفظه إلى فهم ما يدعوك إليه. حين تعلم أن الله يعلم سرّك، تستحي من خيانة تخفيها عن الناس. وحين تعلم أنه يسمع دعاءك، تجد طريق السؤال إليه دون حاجة إلى من يدعي لك سرّاً في القبول. وحين تعرف سعة المغفرة، تحمل ذنبك إلى التوبة بدل أن تجعله سبباً لترك الرجوع.

وقد يقول العبد: إذا كان ربي رحيماً، فلماذا أخاف؟ يعرف من النصوص رحمته وعدله وعلمه وحكمته، فتستقيم عبادته باجتماع ما علم. يحتاج إلى الرحمة ليرجو، وإلى معرفة أمر ربه ليتحرى ما يفعل. انتقاء معنى يعفيه من المسؤولية يفسد

الفهم، واستغراقه في الخوف حتى يغيب عنه باب الرحمة يضيق طريق العمل.

ويثبت ما جاء في الوحي على الوجه اللائق بالله، دون تمثيل أو تخيل للكيفية، مع إبقاء أثر المعرفة في عبادته. يستطيع أن يتعلم أصلاً صحيحاً ويدعو به، ثم يزيد فهمه مع الأيام؛ فليس إتمام جميع مباحث الأسماء والصفات شرطاً لبدء الاستغفار.

التلقي يحفظ خاطر

مثال تطبيقي من إنشاء المؤلف: يريد قارئ علاج يأسه، فيجد رسالة تربط اسماً من أسماء الله بعدد مخصوص، وتعهده بتحقيق مطلوبه خلال أيام. دعاء الله بأسمائه ثابت بأصله، أما العدد والفضل والموعود المضاف، فكل منها يحتاج إلى دليله. لا تقوم شهرة الرسالة أو نية ناقلها مقام هذا الدليل.

وقد يثبت الاسم، ثم يخطر للقارئ أن حادثة بعينها ستقع له لأن الاسم حضر في باله. يفرق عندئذ بين شرح معنى ثابت، ومطلوب مباح يسأله، وخبر عن الله يحتاج إلى بيئة. له أن يرجو خيراً ويدعو به، وتظل تفاصيل أمنيته في موضع السؤال. ولو وجد بعدها راحة، حمد الله على ما وجدته، دون أن يجعل الشعور دليلاً على وعد أنشأه.

تعينك في التعلم أسئلة قليلة واضحة: ماذا أثبت النص؟ وما العمل الذي يدعوني إليه؟ وأين يبدأ ما أضفته من عند نفسي؟ فإذا أشكل معنى، رجعت إلى تفسير معتبر وسألت أهل العلم، ووقفت عند قدر ما تبين لك حتى تتعلم ما وراءه.

وربما قرأت المعنى نفسه مرات، فظهر لك منه عمل جديد لأن حاجتك تغيرت. كنت تسأل مغفرة تقصير، ثم سألت عوناً على أداء حق، ثم شكرت التوفيق إلى إصلاحه. يبقى النص ثابتاً، وتجد في الحياة مواضع جديدة للعمل بما عرفت.

أعط كلمة الدعاء من انتباهك ما تقدر عليه. ابدأ بما تعلم، واجتهد في فهم ما تردده، واسأل الله معرفة تقربك منه. ومن المعرفة إلى العمل: اقرأ آية فيها اسم ثابت وتفسيرها المعتبر، وحدد معنى صحيحاً وفعلاً يناسبه، ثم ادع بدعاء مشروع دون التزام عدد أو أثر خاص لم يثبت.

الفصل الثاني والأربعون: مطالعة النعم

قد يألف الإنسان نعمة تمر به كل يوم، فلا يستوقفه وجودها. فإذا ضاق عليه شأن واحد، استولى على حديثه مع نفسه، حتى كأنه لم يعرف من حياته غيره. يحتاج في تلك الساعة إلى نظر يتسع للأمرين: ألم له حقه، وخير باق له حق من الحمد والحفظ.

قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾. [النحل: 53]. ترد الآية النعم الظاهرة والخفية إلى فضل الله.⁸⁶ فإذا عرف العبد مصدر ما عنده، صار تذكره للعطاء باباً إلى معرفة المنعم والدعاء له، مع بقاء ما يأتي في علم الله وتقديره.

ومن أسباب تنمية الرجاء التي ذكرها خالد السبت ملاحظة إفضال الله على عباده، بالنظر إلى النعم المتقدمة والحاضرة.⁸⁷ يشهد العبد الفضل الذي عرفه فيشكر، ويرجو خير ربه فيما لم يعرفه بعد. أما تعيين عطاء قادم على صورة سابقة، فزيادة لا تثبتها ذكرياته.

86 السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تفسير سورة النحل، الآيتين 53-54؛ والتعليق عليهما معاً في موضع تفسير الآية 54 من النص الإلكتروني.

87 خالد بن عثمان السبت، أعمال القلوب، دار ابن الجوزي، ط1، 1438هـ/2017م، ج 2، قسم الرجاء، ص 53-116؛ وللتصنيف والدرجات ص 97-99، ولأسباب تنمية الرجاء ص 100-105، ولثمراته ص 106-112.

نعمة قريبة منك

قد تنتظر حدثًا كبيرًا لتشعر أنك في فضل، وبين يديك طعام وشراب وعلم وخدمة ينتفع بها يومك. تذكر هذه النعم يفتح باب الحمد قبل حصول ما تنتظره، ويبقي لحاجتك التي تدعو بها قدرها. فلحياتك جوانب أكثر مما استوعبه الأمر الذي يشغلك.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها». رواه مسلم.⁸⁸ يأكل العبد طعامه المعتاد، فيجد معه عبادة وفضلاً أخبره به النبي ﷺ. وما كان مألوفًا في يومه يصير موضع انتباه إلى إحسان ربه.

وقد تكتب صحتك ومالك وصلاتك، ثم يزيدك التعداد إعجابًا بنفسك، أو تكتبها فيذكرك فضل الله وواجب الشكر. تتشابه الأسماء، وتختلف الوجهة. اسأل عند كل نعمة تعرفها عما تقتضيه منك؛ فهذا السؤال يصل ما عدته بقرار تستطيع اتخاذه.

88 مسلم، الصحيح، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب، حديث أنس بن مالك، رقم 2734.

حين يتحرك الشكر

قد تتذكر علمًا هداك في حيرة، أو معونة خففت ضيقًا، أو فرصة لرد حق قبل أن يتعذر. خذ من التذكر ما يبلغ إلى العمل: تحفظ العلم بالتحري في نقله، وتستعمل القدرة في أداء الحق، وتعطي الوقت نصيبًا مما يلزمك. يختلف الواجب باختلاف الحال، ويزيد المرء من الخير المشروع بقدر استطاعته؛ وهذه وجوه للعمل، وليست مقادير تعبدية ثابتة لكل نعمة.

مثال تطبيقي من إنشاء المؤلف: أعان قريب أسرة في ضيق مالي. تعرف الأسرة فضل الله الذي يسر لها، وتشكر قريبها وتحفظ معروفه. فإذا قدرت بعد ذلك على وفاء التزام أو عون محتاج، أخذت بنصيبتها المناسب. ويبقى المعروف القديم فضلًا تشكره، دون أن يصبح دينًا يلزم صاحبه بتكراره أو بحل كل ضيق مقبل.

وقد يكون من النعم ما يكشف تقصيرك: من ينبهك إلى خطأ في كلام، أو يحفظ أمانتك حين نسيتها، أو يبين لك طريق إصلاح. قد يثقل على النفس التنبيه، لكنها تجد فيه بابًا إلى خير تستطيع مباشرته. ينمي الرجاء قدرتك على احتمال

التصحيح حين ترى أن إمكان الإصلاح عطاء يستحق المبادرة.

إذا اجتمع الشكر والحنن

بعض النعم تؤلمك ذكرها لأنها زالت. لك أن تحمد الله على ما كان، وأن تحزن لفقده وتشتاق إليه، وأن تسأل خيرًا فيما يأتي. قد يحتاج اجتماع هذه المعاني في قلبك إلى وقت ورفقة رحيمة؛ فلا تؤاخذ نفسك بمجرد الاشتياق، ولا تكلفها طمأنينة فورية.

واحفظ الفرق بين الوفاء لما مضى وإلزام الحياة أن تعود كما كانت. قد بقي عندك أثر علم نافع، أو معروف لشخص غاب، أو ذكر عافية عشتها؛ فتنفع بما بقي، وتسأل الله فضله، وأنت صادق في محبتك لما فقدت. شكل النعمة القديم ليس كل ما يمكنك أن ترجوه من الخير.

وكذلك لا تكلف نفسك تعيين نعمة خفية في كل بلاء فور وقوعه. قد تجهل الحكمة التفصيلية ويبقى الألم باسمه. تؤمن بحكمة الله، وتشكر ما علمت من عطائه، وتؤدي واجبك الممكن. الوقوف عند حد معرفتك أحفظ للصدق من تفسير تتكلفه لتبدو مطمئنًا.

وإذا شكّا مظلوم ضياع حق، فلا تكتف بتعداد ما يملكه من نعم. قد تعينه تلك المعرفة على الثبات، ويبقى حقه محتاجًا إلى من يسعى معه في طلبه. اسمع شكواه، وأعن على رفع الضرر المشروع، وذكره بخير عرفه برفق، دون مقارنة تجرحه أو تصرف الكلام عن حاجته.

لشكر موضع واسع في الحياة؛ يصحب الفرح، ويعين في الضيق، ويتصل بإصلاح الذنب وأداء الحق. وكلما صرت أعرف بما في يدك، وجد الرجاء أسبابًا حاضرة للعمل، إلى جانب ما تنتظره من الفرج.

حق نعمة اليوم: دُونَ نعمة سابقة وأخرى حاضرة، واختر لإحداهما عمل شكر مناسبًا. اجعل التدوين موجزًا أمينًا، ثم انتقل منه إلى الفعل؛ فالمقصود أن تنتفع بمعرفة الفضل، وتزيد وفاءك بما علمت، دون موازنة حياتك بعدد نعم غيرك.

الفصل الثالث والأربعون: وعود القرآن

يحفظ القارئ آية يستبشر بها، ثم قد يلحق بوعدا موعداً اختاره: أفعل هذه الطاعة اليوم، فيأتي غداً الرزق الذي أريد. فإذا تأخر مطلوبه، ثقل عليه ما كان قد اطمأن إليه. والذي يحتاج إلى مراجعة هنا هو التفصيل الذي أضافه؛ فإن صدق وعد الله ثابت، وأمنية العبد تحتاج إلى أن تبقى في موضعها من الدعاء والطلب.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾. [البقرة: 186]. يجتمع في الآية الدعاء والاستجابة لله والإيمان به. ويبين السعدي الدعاء المشروع وأسباب الإجابة وموانعها؛ فتقرأ البشارة مع ما بينته النصوص في بابها.⁸⁹

ما أثبتته النص وما تتمناه

ولقارئ الوعد أن يسأل أسئلة تصل يقينه بما يقرأ: ماذا وعد الله؟ ومن المخاطب؟ وما العمل المتصل بالوعد؟ وهل ذكر

89 السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تفسير سورة البقرة، الآية 186، في النص الإلكتروني للتفسير.

صورة محددة أو مدة معينة؟ تزيده هذه الأسئلة فهمًا، وتبين له أين بدأ يضيف من رغبته ما لم يجده في الألفاظ.

وفي سورة الطلاق يأتي وعد المخرج والرزق بعد الأمر بالتقوى، ضمن سياق يتصل بحقوق الناس وحدود الله. يبين السعدي عموم الوعد للمتقي، ويبقى تقدير الوقت والمقدار لله.⁹⁰ يقرأ المؤمن فيستبشر، وينظر في الأمر والنهي المحيطين بالبشارة، فيتعلم كيف يكون له من التقوى نصيب في شأنه.

ربما سأل وظيفة بعينها، وبأجر حدد حاجته إليه، وفي وقت رتب عليه خططه. له أن يسأل ذلك إن كان مباحًا، وأن يبذل أسبابه، ويحتاج إلى أن يحفظ الفرق بين هذا الطلب الخاص وما وعده به النص. تفاصيل الوظيفة والأجر والموعود لم تصبح جزءًا من الآية لأن حاجته إليها شديدة.⁹¹

ومن هنا يتبين الفرق بين لفظ يتلوه، ومعنى يبينه التفسير، وتطبيق يرجوه في حاله. يضبط الآية، ويتعلم تفسيرها،

90 السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تفسير سورة الطلاق، الآيتين 2-3، في النص الإلكتروني للتفسير.

91 السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تفسير سورة الطلاق، الآيتين 2-3، في النص الإلكتروني للتفسير.

ويراجع ما يعرفه من واقعه. فإن أشكل عليه شيء سأل أهل العلم، بدل أن يجعل انطباعه تفسيرًا يلزم به نفسه وغيره. وحين يرى الزيادة التي أضافها، يستطيع تصحيح فهمه مع حفظ أصل اليقين. كان قد حصر الوعد في مشهد واحد، فيعيد المشهد إلى مرتبة مطلوب يسأل الله خيره. فإذا تعذرت وسيلة، وجد مجالاً لمراجعتها وما يملك من أسباب، وبقيت ثقته بما أخبر الله به في موضعها الثابت.

الشرط يدل على عمل

قد يسمع أن الوعد اتصل بالتقوى، فيشغله السؤال: هل أنا متق بما يكفي؟ ثم يمضي يومه وفيه واجب يعرفه ولم يؤده. اجعل السؤال يبلغ إلى موضع العمل: تصدق حيث كنت تكذب، وتؤدي حقًا تؤخره، وتكف عما علمت تحريمه. ترجو الفضل، وتستعين بالله على امتثال أمره، دون أن تتكلف حكمًا على منزلة نفسك.

مثال تطبيقي من إنشاء المؤلف: ضاق على صاحب التزام مالي شأنه. قرأ آيات التقوى فاستبشر، ثم نظر في كسبه وصدقه وحقوق من لهم عليه مال، وراجع أسباب الوفاء التي يقدر عليها. يسأل المخرج ويسعى إليه. وإذا خاطب دأته، ذكر

ما يملك من بيان وخطة، بدل ضمان مبلغ في يوم ينسبه إلى الآية من عنده.

ويتأكد هذا الفهم حين يكون الوعد في أثناء أحكام المعاملة. فالانتفاع بعمومه يصحبه انتباه إلى الحقوق والحدود التي ظهرت في سياقه. لا يستقيم أن يقرأ العبد البشارة، ثم يهون عليه من أجلها ما أمر به تجاه الناس. إنما يجد في الرجاء قوة على الوفاء، وفي السياق بيانًا لما يفى به.

كيف تفتح البشارة؟

إذا علمت غيرك، فأثبت له النص ومعناه، وبيّن من العمل والقيود ما يحتاج إليه. قد يسرف الناصح في تعداد ما يخشى منه، فيظن المبتدئ أن الباب لا يبلغه أبدًا. افتح له طريق الامتثال: هذا فضل يرجوه، وهذا فعل يستطيع تعلمه والبدء به. ويظل البيان الدقيق معيّنًا على الرجاء حين يعرف القارئ أين يضع خطواته.

وحيث يريد السامع ضمانًا لمعاملة محددة، فرق له بين الوعد ورأيه في تنزيله. تستطيع أن تبشره، وأن تحفظ النص من تفصيل لم يدل عليه. فليس كل طلب يحبه داخليًا في الوعد على صورته التي رسمها، وقد يجد العبد خيرًا لم يكن قد أحاط بوجوهه.

وتقرأ نصوص المغفرة مع التوبة والمشيمة، ونصوص القبول مع الإخلاص والمتابعة، ونصوص التوكل مع السبب. هذه القراءة المتصلة تريك كيف ينمو الرجاء داخل الحياة: دعاء ومعرفة بالله، وأمر ونهي، وعاقبة يرجوها العبد وهو يعمل. وتجد أثره في صلاة أو توبة أو معاملة يومه.

عد إلى آية تستبشر بها، وافصل في ورقتك بين ما قاله النص وما ترجوه أنت. اكتب مطلوبك بصدق، ثم حدد من أمر الله ما تستطيع الاستجابة له اليوم. هكذا تصحب الثقة بالوعد تواضعًا في فهمه، ويجد القلب يقينًا معلوم المصدر وخطوة معلومة الوجهة.

الفصل الرابع والأربعون: الدعاء

ربما رأى العبد حاجته كبيرة، ورأى نفسه كثيرة التقصير، فاستصغرها عن السؤال. يقول: لعل غيري أولى بالدعاء مني. وفي ضعفه نفسه ما يعرفه بحاجته إلى ربه؛ يتوب ويدعو، ويسأل العون وهو محتاج، دون انتظار حال يستغني فيها عما يطلب.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا دعا أحدكم فلا يقل: اللهم اغفر لي إن شئت، ولكن ليعزم المسألة وليعظم الرغبة؛ فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه». رواه مسلم.⁹² يفتح الحديث باباً للرغبة، ويعلم العبد كيف يسأل؛ فما يعجز الناس عن بذله لا يتعاضم الله أن يعطيه.

رغبة في قلب مفتقر

تعزم المسألة وأنت تعرف مقامك: عبد يسأل رباً غنياً عنه، واثق بقدرته وكرمه، مفتقر إلى فضله. تبقى الرغبة عظيمة، ويظل السؤال مؤدباً؛ فلا تحمل قوة الطلب إلى دعوى استحقاق، ولا تحمل علمك بتقصيرك إلى إضعاف الرجاء.

92 مسلم، الصحيح، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب العزم بالدعاء ولا يقل إن شئت، حديث أبي هريرة، رقم 2679.

والمنهي عنه في الحديث تعليق طلب المغفرة بقول «إن شئت». أما سؤال الله أن يختار لك الخير في أمر تجهل عاقبته، فله بابه ومعناه المختلف. يصون تعلم هذا الفرق صيغة دعائك، ويعينك على الجمع بين عزم السؤال والافتقار إلى حكمة ربك.

وقد تعظم الرغبة في مطلوب يحتاج هو نفسه إلى مراجعة. شدة الحاجة لا تجعل كل سؤال مشروعاً؛ تقدم في حديث مسلم النهي عن الدعاء بإثم أو قطيعة رحم.⁹³ فانظر في الحق الذي تمسه رغبتك، كما تنظر في الوسيلة التي تعمل بها لبلوغها.

مثال تطبيقي من إنشاء المؤلف: اختلف اثنان في معاملة. يسأل أحدهما أن يظهر الحق، وأن يعان على أدائه، وأن يعوضه الله خيراً، ثم يسعى في البيان والتسوية أو استيفاء حقه بطريقة المشروع. وإذا اشتد غضبه، راجع ما يحمله دعاؤه من طلب؛ فيحفظ الحد المشروع، دون أن يتجاوز بالخصومة إلى ظلم زائد.

93 مسلم، الصحيح، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب بيان أنه يستجاب للداعي ما لم يعجل فيقول دعوت فلم يستجب لي، حديث أبي هريرة، رقم 2735.

سؤال يصحب العمل

إذا ثقل عليك ترك معصية، فاسأل العون وراجع أسبابها. وإذا ضعفت عن وفاء وعد، فاطلب الصدق وأدّ ما يلزمك. وإذا جهلت طريق إصلاح، فاسأل الهداية واطلب العلم. في كل شأن من هذه الشؤون يظهر الدعاء افتقارك الذي يصحب العمل، ويتغير المطلوب التفصيلي بحسب حاجتك.

وقد يقول الإنسان إنه دعا كثيرًا، ثم يغفل عن تناقض يعرفه في فعله: يسأل زوال خصومة ويواصل الكلمة التي تزيدها، أو يسأل حفظ أمانة ويؤخر ضبطها. لا نحكم بهذا على إجابة دعائه، لكن مسؤوليته عما يفعل واضحة. فإذا راجعها، صار الدعاء عونًا على فعل كان يؤجله، وأعطى السبب نصيبه الممكن.

والسبب الذي تؤديه بعد السؤال يظل عملاً مفتقرًا إلى الله في نفعه. تؤدي مسؤوليتك، وتسأل التوفيق، وترجو الخير؛ دون أن تعد ما بذلته معاملة تضمن الصورة التي اخترتها للإجابة.

ما يتعلمه القلب من المأثور

قد يضيق الدعاء عند العبد في حاجته العاجلة، ثم يتعلم من الدعاء النبوي سؤال صلاح الدين والمعاد، والعافية والثبات. وقد تقدم الدعاء الجامع في الفصل السادس؛ وينفع هنا أن

تأمل كيف يعيد ترتيب مطلوبك، فيبقى الأمر الدنيوي بجانب خير غفلت عنه.⁹⁴

وله أن يسأل حاجته المشروعة بعبارة يفهمها، مع تعلم الأحكام التي تخص بعض مواطن الدعاء. يختار صحيح المعنى، ويتعلم ما ورد، ويسأل أهل العلم حيث يحتاج. والعبارة المنشأة تبقى في موضعها؛ لا تصبح مأثورة أو ذات فضل مخصوص لحسن نظمها، ولا تضمن بلاغتها القبول. وحسن الدعاء يربي ما تريده أيضًا. قد تسأل جاهًا وتغفل عن تبعته، أو تدعو على خصم بعبارة تتجاوز حقه. انظر في صلاح المطلوب، واسأل الله الخير والعون على أداء مسؤوليته إن تيسر. فالرجاء يزيد قوة الإرادة ويعينها على معرفة وجهتها المشروعة.

حضور بقدر ما تستطيع

قد يبكي الداعي، وقد يعجز عن البكاء؛ وقد يطيل، وقد يضعف فلا يقول إلا كلمات قليلة. يجاهد لحضور القلب، ويتعلم الأدب والألفاظ الصحيحة، دون أن يجعل هيئة تأثيره

94 مسلم، الصحيح، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، حديث أبي هريرة، رقم 2720.

شهادة على القبول. وربما فتحت له كلمة مأثورة معنى لم يجده في كلام كثير أنشأه.

وإذا سألك إنسان الدعاء، فاحفظ سر حاجته، وادع له بما تعلم مشروعيته، واعرض عوناً مناسباً إن استطعت. أعطه مساحة ضعفه دون أن تطالبه بإظهار مقدار انكساره. قد تنفعه دعوة صادقة وخدمة يسيرة، وهو ما زال يحمل من القلق ما يحتاج معه إلى رفق.

ثم امض في يومك مفتقراً إلى ربك. تقصده، وتسأله، وتؤدي واجبك، وتتلقى ما يعرض لك بعلم وطلب للعون. سيأتي الكلام على تأخر الإجابة في موضعه؛ وما تحتاج إليه هنا أن يبقى السؤال حيّاً في قلبك، واسعاً لخير دينك ودنياك وآخرتك.

سؤال وعمل: ادع بحاجتك المشروعة بوضوح، واسأل المغفرة والثبات والخير، ثم أدّ سبباً ممكناً يتصل بمسؤوليتك. يجتمع في خطواتك صدق الطلب ومعرفة ما عليك، وتبقى عاقبة الأمر في علم الله وتقديره.

الفصل الخامس والأربعون: التوبة

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن نبي الله ﷺ قال: «كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسًا، فسأل عن أعلم أهل الأرض، فدل على راهب، فأتاه فقال إنه قتل تسعة وتسعين نفسًا، فهل له من توبة؟ فقال: لا. فقتله فكمل به مائة. ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدل على رجل عالم، فقال إنه قتل مائة نفس، فهل له من توبة؟ فقال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإن بها أناسًا يعبدون الله، فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك، فإنها أرض سوء. فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائبًا مقبلًا بقلبه إلى الله. وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيرًا قط. فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم، فقال: قيسوا ما بين الأرضين، فإلى أيتهما كان أدنى فهو له. فقاسوه فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة». رواه مسلم.⁹⁵

95 مسلم، الصحيح، كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، حديث أبي سعيد الخدري، رقم 2766.

بقي السؤال حيًا عند الرجل بعد الجواب الذي أغلق عليه الطريق، فسأل مرة أخرى. وجاءه من العالم جواب فتح التوبة، وأرشده إلى فعل يصحبها: انطلاق إلى قوم يعبدون الله، وعبادة معهم، وترك لأرض السوء. في هذا الاجتماع يعرف الراجي سعة الباب، ويعرف أن عليه خطوة يخطوها.

العلم الذي يدل على الطريق

عظم الجناية لم يمنع العالم أن يبين إمكان الرجوع، وفتح باب التوبة لم يجعله يغفل أسباب الفعل. عرف موضع حاجة السائل، فوصل البشارة بإرشاد عملي. هنا يظهر خطر جواب يتصدر له من لا يحسنه؛ فقد تضيق كلمة على السائل بابًا فتحه الله، أو تطلق له كلمة ما ألزمه به من حق.

الجواب الأول لم يكن حقًا لمجرد صدوره عن راهب، والجواب الثاني لم يكن تساهلًا لمجرد فتحه التوبة. المرجع في البيان العلم ودليله، دون أن يصير أثر الكلام أو كثرة العبادة الظاهرة بديلًا عن أهلية قائله. ولهذا يحتاج السائل إلى من يحسن الجواب، وإلى فهم حدوده فيما يترتب عليه رجاؤه وعمله.

ولا تعني إعادة السؤال أن ينتقي الإنسان الفتوى التي توافق هواه. يسأل ليعرف الحق، خاصة حين يترتب على الجواب يأس أو جرأة. وإذا تعلق بتوبته حق للناس، رجع في تفاصيله

إلى حكمه؛ فقبول التوبة في الخبر لا يسقط أحكام القضاء والقصاص والضمان باستنتاج ينشئه القارئ. يبقى باب الرجوع واسعاً، وتبقى للحقوق أبوابها التي يتعلمها ويؤدي ما يلزمه منها.

حركة تعين القلب

أمر العالم الرجل بالانطلاق ليعبد الله مع من يعبدونه. فصارت الحركة بعض طريق إصلاحه، ووجدت رغبته في الرجوع سبباً يعينها. قد ينتظر الإنسان إرادة قوية لا تتأثر بما حولها، وفي يده تغيير قريب يخفف ما يعيده إلى الذنب. يبدأ بهذا السبب وهو يسأل الله الثبات، بدل أن يؤجل فعله حتى يفرغ من كل ضعف.

مثال تطبيقي من إنشاء المؤلف: تتكرر الإساءة في مجموعة رقمية، ثم يندم أحد المشاركين ويعود إلى المجموعة فيعود إلى أذاها. يستطيع أن يغادر موضع الإساءة، ويوقف نشر مادتها، ويسأل عن إصلاح الضرر المتعلق به. ويجد صحبة أو عملاً يعينه على ضبط عاداته. هذه خطوات بين يديه، يستطيع أداؤها قبل تغيير شامل في حياته.

ويختلف التغيير باختلاف السبب. قد يكون صحبة تزين المعصية، أو وسيلة تيسرها، أو وقتاً يتكرر فيه تفويت واجب.

يحدد موضع الخل ويطلب له بديلاً يحفظ الحقوق القائمة. أما نقل القصة إلى كل حال، وفرض انتقال البلد على كل تائب، أو اتخاذها ذريعة لقطيعة واجبة الصلة وترك مسؤولية، فزيادة تحتاج إلى بيان لم يدل عليها مجرد التشابه.

أصب موضع الخل

ربما عرفت سبباً صغيراً واضحاً، ثم بحثت عن بداية كبيرة تشغلك عنه. يتكرر الأذى في حديث معين، فتعلن خطة واسعة وتبقى على ذلك الحديث. أو يبقى عندك مال لغيرك، فتفكر في تغيير المدينة قبل بيان ما يجب في المال. اجعل التغيير يبلغ إلى ما عرفته؛ فأثر البداية يظهر حين تمس السبب والحق القائمين.

وحيث تحتاج البيئة إلى تعديل أوسع، رتبته بحسب ما يشرع ويقدر عليه. تقلل مجالسة تضر، أو تغير وسيلة ووقتاً، وتتعلم كيف تحفظ مسؤولياتك مع التغيير. قد يتدرج ترتيب الأمور الممكنة، ويظل العزم على الكف عما علم تحريمه حاضراً؛ فلا يصبح انتظار الخطة سبباً لإبقاء معصية تقدر على تركها الآن.

وفي العبادة مع القوم بيان لأثر البديل النافع. يحتاج بعض التائبين إلى موضع يضعون فيه الوقت وطلب الصحة: مجلس علم، أو عمل نافع، أو رفقة تعين على الصلاة والصدق.

يأخذون بسبب مشروع، مع بقاء حاجتهم إلى رعاية الثبات بعد حرارة الندم الأولى، دون ضمان ألا تعرض لهم عثرة.

وقد مضى الرجل إلى ما دل عليه العالم. لم يبق يجمع أجوبة تريحه وهو في موضعه؛ فالسؤال النافع أثمر سيرًا. وللقارئ أن يبدأ ما علم من أسباب التوبة، ويرجو فضل ربه، دون أن يحكم لنفسه بخاتمة مماثلة للخبر.

وفي الموت قبل بلوغ الأرض تذكرة بما وصفه النص من إقبال القلب. نقف عند ما أخبر به، دون تخيل تفاصيل الباطن أو إنشاء مشاهد وأسماء تزيد على الرواية. حسب الراجي ما فيها من عظم باب التوبة، وأثر العلم، والمبادرة إلى العبادة.

وحين تساعد تائبًا، فأعنه على حاجته: بيان تعلمه، وحق يحفظ، وبديل نافع، وستر تصونه. قد يكون أصدق أثر للعودة أذى يقل، وحق يؤدي، وعمل يستقيم، وإن بقي الماضي بعيدًا عن حديث الناس. وخطوتك اليوم: عيّن سببًا يسبق عثرتك، وغير ما تقدر عليه، واطلب العلم والصحة فيما تحتاج إليه؛ ليصح رجوع قلبك قرار في حياتك.

الفصل السادس والأربعون: العمل الصالح

قد توقظك موعظة فتجمع أعمالاً كثيرة في يوم، ثم يأتي الغد بما فيه من عمل وأسرة وتعب، فتثقل القائمة التي كتبتها. تحتاج الرغبة حينئذ إلى معرفة تحفظ وجهتها، وترتيب يوافق يومك الحقيقي. فالثبات يتصل بما تؤديه، وبقدرك عليه، وبالحقوق التي يجب أن تصحبه.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: سئل النبي ﷺ: أي الأعمال أحب إلى الله؟ قال: «أدومها وإن قل». وقال: «اكلفوا من الأعمال ما تطيقون». رواه البخاري.⁹⁶ في النص محبة المداومة ومراعاة الطاقة؛ يتعلم منه صاحب التطوع كيف يبني عمله، مع حفظ الفرائض والحقوق اللازمة من أن يجعل تعديل خطته سبباً لإنقاصها.

96 البخاري، الصحيح، كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل، حديث عائشة، رقم 6465.

اعرف العمل الذي تريد حفظه

قال تعالى في رجاء اللقاء: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾. [الكهف:110]. يذكر النص صلاح العمل وإخلاصه.⁹⁷ فقبل سؤال المقدار تسأل عن مشروعية الفعل وكيف يؤدي، وتراجع القصد الذي يحمله. وقد يكثر العمل، ويحتاج صاحبه إلى تصحيح شيء من هذه المعاني.

ربما اخترت ترتيبًا يعينك على طاعة، ثم أحببته حتى عاملته كأنه سنة ذات فضل مخصوص. التنظيم الشخصي وسيلة تستطيع تغييرها، أما هيئة تعبدية أو عدد أو وقت تنسب فضله إلى الشرع، فيحتاج إلى دليل. صلاح قصدك يدعوك إلى معرفة هذا الفرق، حتى تثبت على خير تعلم وجهه.

ثم انظر فيما يلزمك قبل أن تضيف تطوعًا جديدًا. قد يكون في وقتك حق أهملته، أو حكم يتكرر احتياجه إليه ولم تتعلمه. وربما أصلح يومك عمل مألوف تؤديه بصدق وإتقان، أكثر مما يصلحه مشروع واسع يزاحم واجبك. اجعل التكليف يرشد اختيارك، دون أن يستولي حب الجدة على معنى البداية.

97 السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تفسير سورة الكهف، الآية 110، في النص الإلكتروني للتفسير.

قدر يتسع له يومك

مثال تطبيقي من إنشاء المؤلف: أراد قارئ أن يزيد نصيبه من العلم. اختار وقتًا يمكن حفظه، ومصدرًا يناسب مستواه، وطريقة للسؤال عما أشكل. حفظ معه الصلاة الواجبة والأمانة المهنية، ثم راجع بعد مدة فهمه واستمراره. إن اتسعت طاقته زاد، وإن ثقل التطوع عدل مقداره، مع بقاء ما يلزمه في موضعه.

ينظر صاحب الخطة في وقت الأسرة والعمل والراحة التي يحتاج إليها. يختار قدرًا يستطيع اختباره، ثم يتعلم من الواقع. فإن كشفت الأيام أن ترتيبه يعتمد على ظرف نادر، أو يزاحم حقًا، عدل الوسيلة. فالخطة معين على الطاعة، وليست حكمًا شرعيًا على طاقته أو ميثاقًا يعاقب نفسه كلما تغيرت أحواله.

واحفظ أثر عملك في الناس. إذا زاد تطوعك وازداد غضبك على من لهم عليك حق، فراجع مقدار ما اخترت وطريقة أدائه. العبادة تصحب العدل وحسن المعاملة، وكل توفيق إلى مزيد من الطاعة يزيد حاجتك إلى الشكر وسؤال القبول.

إذا فات يوم

قد يفوتك تطوع اعتدته؛ فانظر في سبب الفوات، ثم في استئناف ما ينفعك. ربما طراً عارض لا تملكه، وربما ظهر خلل في ترتيب تستطيع إصلاحه. يوصل الاعتراف الدقيق إلى فعل مناسب، بدل لوم يشمل حياتك كلها أو إعفاء يغفل السبب الذي تقدر عليه.

الذي فات يوم له حدوده، فلا تمد كلمة «انقطعت» على السنة كلها. وعد إلى العمل المشروع، مع تحري حفظه فيما يأتي. وقد تبقى في خطتك أداة تعويض مباحة في تنظيم الوقت، أما العقوبات أو التعويضات التعبدية فتحتاج إلى ما يشرعها؛ فلا تنشئها لمجرد غضبك على نفسك.

وينفعك سجل موجز يصف التنفيذ: قرأت، أو تعلمت، أو أدبت حقاً؛ وسبب التعثر الذي تعرفه كذا. يجعلك السجل أبصر بالفعل والوسيلة، وتبقى قيمة العمل عند الله مما تسأله فيه القبول. كثرة العلامات في الورقة لا تقيس الإخلاص، ولا تمنح شهادة على سلامة القلب.

وقد ينقلب التنظيم عبئاً حين يصير حفظ الخانات غرض يومك. تسرع في العبادة لتمنع فراغ خانة، أو تضيق بمن يحتاج إليك لتبقي السلسلة متصلة. ارجع إلى ما أردت من

السجل: عون على الخير. قدم الواجب، وأحسن العمل، ثم عدل الوسيلة التي شغلتك عن مقصودها ولو حسنت صورتها.

بعد حماس البداية

إذا اتسعت قدرتك، فزد بعلم وتدرج يناسبك، واعرف قيمة القدر الذي بدأت به؛ ربما فتح لك عادة تعلمت منها. وإذا ضاقت، فراجع التطوع، وتعلم حكم ما يلزمك بدل أن تسقط فريضة بتقدير مزاجي. يرجع في الحكم إلى أهل العلم، وفي تنظيم الأسباب إلى أهل الخبرة بحسب الحاجة.

ويبقى للعمل المشروع معناه ولو لم يصحبه في كل يوم انفعال جديد. تستحضر قصدك بقدر ما تستطيع، وتؤدي واجبك، وتطلب ثواب الله. وقد يظهر النمو في وفاء أكثر، وأذى أقل، وحق أتقنته، قبل أن يظهر في الشعور الذي تصف به نفسك.

مراجعة وسيلة: اختر عملاً مشروعاً يناسب قدرتك، وحدد وقته وما قد يعوقه. وبعد مدة تختارها، انظر في ثبات الفعل وحفظ الفرائض والحقوق معه. عدل ما يحتاج إلى تعديل، ثم استأنف؛ فإن أثر الرجاء أن تجد للعمل طريقاً بعد انطفاء حرارة البداية.

الفصل السابع والأربعون: صحبة الراجين العاملين

عن أبي موسى رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «مثل الجليس الصالح والسوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد ريحاً خبيثة». رواه البخاري.⁹⁸

قد تأخذ من صاحبك علماً يقوله لك، وقد ترى منه فعلاً يعينك على مثله، وقد تجد في مجلسه جواً يسهل فيه الخير. وأثر الصحبة يتكرر حتى تبلغ منه أشياء إلى قرارك دون أن تقصد اقتباسها. لهذا ينفعك أن تنظر فيما تصنعه مجالسك: أي أفعال تسهلها؟ وأي معان تجعلها مألوفة في قلبك؟

رفق يصدقك

الصاحب الذي يعين على الرجاء يذكرك بسعة التوبة، ويبين ما يحتاج إلى إصلاح، ويحفظ سترك وحق من تضرر. وقد يطمئنك إلى إمكان الرجوع، ثم يساعدك على أول فعل فيه. يجتمع في معونته رفق يحتمل ضعفك، وأمانة تصونك من تبرير ما ينبغي أن تتركه.

98 البخاري، الصحيح، كتاب الذبائح والصيد، باب المسك، حديث أبي موسى، رقم 5534.

مثال تطبيقي من إنشاء المؤلف: يشكو قارئ من تأجيل حق يعرفه. يسمع من أحد تبريراً لكل تأخير، ومن آخر حكماً قاسياً على نفسه كلها. ويسأل ثالث عن المانع، ويذكره بالواجب، ويعينه على خطوة مقدورة. ترى في الثالث فعلاً نافعاً تستطيع وصفه، دون حاجة إلى الحكم على سريرته أو مرتبته.

والأمين يترك لك مساحة أن تقول: لا أعلم. تستطيع في مجلسه أن تسأل، وأن ترجع عن رأي ظهر خطؤه، دون سخرية تزيد كلفة التعلم. وإذا جهل الحكم لم يتكلف جواباً، وإذا احتجت إلى اختصاص ذلك عليه. بهذه المعاملة يعرف الإنسان أن نقصه يجد طريقاً إلى البيان، وأن قبول التنبيه يمكن أن يحفظ قدره بدل أن يهدمه.

أثر تراه في يومك

لاحظ قراراً يتكرر بعد المجلس: هل يسهل الاعتراف بالخطأ وتصحيحه؟ هل تتعلم ما كنت تجهل؟ هل تعان على أداء حق؟ وانظر في أثر يحتاج إلى مراجعة: سخرية تهون، أو اعتداء يزين، أو تشكيك يستولي على كل حديث عن التوبة. هذه أفعال أبين من إعجاب عام بحسن الكلام أو نفور عام من شدته.

وقد ينفعك شخص في باب، ويحتاج إلى نصح في باب آخر. وربما أخطأت أنت في فهم عبارته أو ظرفه. أسأله حيث يحتمل السؤال، ورد القول إلى دليله، واحفظ ما علمت من إحسانه. تقويم أثر صحبة لا يحتاج إلى قائمة تصنف إيمان أصحابك؛ يكفيك أن تعرف ما تنتفع به وما ينبغي أن تدفعه، وتترك الغيب لله.

وتدخل في هذا النظر المواد التي تكثر متابعتها عبر الشاشة. قد يكون كل ما تتلقاه سخرية من الإصلاح، أو وعدًا بنتائج سريعة لا دليل عليها. راجع نصيبك منها واختر العلم الموثوق والكلام الذي يعين على عمل صحيح. ولحسن البيان موضعه، ولعلم المتحدث وحدوده موضعهما؛ فلا يصير المتحدث مرجعًا في كل فن لقوة حضوره أو كثرة جمهوره.

وإذا نقل، عدت إلى المصدر فيما تحتاج إلى التثبت منه، وعرفت تخصصه بقدر ما تعلم عنه. وربما كان قول هادئ قليل الزينة أقرب إلى الدليل. كثرة متابعتك لإنسان لا تلزمك بإبقاء خطئه إذا تبين.

وفاء يحفظ العدل

قد يأتيك صديق شاكياً خصومة، فتسمعه رحمة به. لكنك تعرف من السماع روايته، وقد يبقى من الواقعة ما لم يصل

إليك. أعنه على ترتيب ما يعلم وما يظن، وذكره بحق غيره، واطلب البيان حين يحتاج الأمر إليه. فإن منحه حكمًا بأن الحق كله معه قبل أن يتبين لك قد يريحه لحظة، ويحرمه أمانة يحتاج إليها.

وتجتمع النصيحة والمعونة. تقول له إن فعله يحتاج إلى إصلاح، وأنت ترجو له الخير، وتساعده على الاعتذار أو البيان أو سؤال أهل العلم. تحفظ كرامته، وتحفظ حق الغائب، دون أن تضطر إلى الدفاع عن كل فعل صدر منه لتثبت وفاءك.

ثم انظر في نصيبك أنت من هذه الصحبة. هل تترك لصاحبك طريقًا إلى الرجوع، أم تكرر أخطائه ليبقى مدينًا لك؟ هل تصدق في النقل، أم تبالغ لتؤثر؟ وهل تعينه على أداء حق، أم تحمل الصداقة إلى مشاركة في ظلم؟ هذه أسئلة تجعل طلبك للصاحب النافع مصحوبًا بعناية بما تبذله له.

حدود تعين على البقاء

تختلف المساعدة بحسب المقام: مبتدئ يحتاج إلى مراجعة ما تعلم، ومتعب يحتاج إلى خدمة، وصاحب التزام ينتفع بتذكير اتفق عليه. يحدد الطرفان ما يناسبهما، مع حفظ الاختيار والخصوصية. فالمتابعة تبلغ إلى عمل معلوم، دون أن تتحول إلى رقابة على الحياة أو تفتيش في النيات.

ولصديقك قدرة وحدود؛ قد يعتذر عن وقت أو مساعدة، ويبقى خيره ومعروفه. نَوَّع أسباب العون المباحة، واشكر ما بذل، وأعط من نفعك ما تطيق. قد يكون في بيتك أو عملك من يحتاج إلى كلمة صادقة، أو سر تحفظه، أو اعتذار منك. ابدأ بهذا النفع الممكن، وإن لم تجد مجلسًا كاملاً في خصاله كلها.

نصيبك من الصحبة: لاحظ ما يسهل عليك بعد مجلس متكرر أو مادة تتابعها. زد مما يعين على العلم والصدق والعمل، وراجع ما يجعل الإصرار يسيرًا والقنوط مألوفًا؛ ثم ابذل لغيرك نوع المعونة الذي ترجوه لنفسك.

الفصل الثامن والأربعون: ذاكرة الفرج

ربما قلت في شدة مضت: لن أجد طريقًا. ثم تعلمت ما كنت تجهله، أو جاءك عون، أو تبدل جانب من الحال لم يكن في حسابك. حين تعود إلى تلك الساعة، ترى أن ما أحاط بك من ضيق قد ضيق تصورك أيضًا؛ كان شعورك شديدًا، وبقي في الواقع ما لم تستطع رؤيته يومئذ.

ومطالعة الإحسان السابق من الأسباب التي ذكرها خالد السبت لتنمية الرجاء.⁹⁹ ينتفع بها القلب حين تحفظ الذاكرة صدقها: مشكلة تعرفها، وسبب بذلته، وعون جاءك، وصعوبة بقيت. فيصاحب الحمد علم بما حدث، ويعود التذكر إلى الحاضر بفهم يمكن استعماله.

حكاية على قدر ما تعلم

إذا رويت تجربتك، فافصل ما شهدته عما ترجوه من معناها. تعلم أنك سألت، وأن شخصًا ساعدك، وأن أمرًا تيسر في وقت معين. أما تعيين الحكمة الإلهية الخاصة في كل تفصيل، أو الجزم بأن فعلك ألزم النتيجة، فشيء يتجاوز ما أثبتته

99 خالد بن عثمان السبت، أعمال القلوب، دار ابن الجوزي، ط1438هـ/2017م، ج 2، قسم الرجاء، ص 53-116؛ وللتصنيف والدرجات ص 97-99، ولأسباب تنمية الرجاء ص 100-105، ولثمراته ص 106-112.

الوقائع. تقف عند حد علمك، وتظل للتجربة قيمتها في الشكر والتعلم.

مثال تطبيقي من إنشاء المؤلف: تعثر طالب، ثم تحسن بعد تعديل طريقته. يعرف أن مراجعة الوسيلة نفعت في تلك الحال، فينتفع بهذا الدرس عند حاجة جديدة. وإذا حدث غيره، وصف ما فعل وحدود ما علم، دون وعد بنجاح كل من كرر خطته أو بزوال كل تعثر في المدة نفسها.

وقد يحب السامعون خاتمة القصة، فيسألونك عن كلمة دعوت بها، أو عدد كررته، يريدون طريقًا يضمن ما حصل لك. اذكر الدعاء المشروع والسبب الذي أخذت به، وبيّن حد تجربتك. تستطيع أن تقول: دعوت الله وأخذت بأسباب مشروعة ويسّر الله لي. ويبقى إثبات فضل مخصوص لعدد أو لفظ محتاجًا إلى دليل، لا تنشئه التجربة الشخصية.

فالعبادة تثبت بما يدل عليها، والنعمة تحمد عليها، وتتفاوت أحوال الناس ونتائج سعيهم. حين تحفظ هذه المعاني، تعين السامع على طريق مشروع، دون أن تحمله وصفة غيبية من شأنك الخاص.

ما بقي في القصة صعباً

قد يتيسر جانب ويبقى آخر شاقاً، وقد يأتي العون من طريق مختلف عما سعيت فيه، وقد تفهم بعض الأسباب وتجهل بعضها. احفظ هذه التفاصيل حين تحتاج الحكاية إليها. فهي أقرب إلى الحياة التي يعرفها الناس، وتتيح لهم الانتفاع دون توقع أن تنتهي كل تجربة إلى مشهد مكتمل.

وإذا حذفنا كل نقص لتبدو الخاتمة جميلة، فقد يقرأ المتألم القصة ثم يزداد انقطاعاً حين يجد حياته أعقد منها. الشهادة الصادقة تحتمل التعقيد، وتفتح رجاءً يمكنه أن يعيش إلى جانب صعوبة باقية. وما تحقق من خير يستحق الشكر وإن لم يرفع كل مشقة.

وأحياناً يوقظ التذكر الألم بدل النشاط. اختر ما ينفعك، واحفظ خصوصيتك، واطلب عوناً مناسباً إذا احتجت. لست ملزماً بإعادة كل تجربة مؤلمة لتثبت شكرك، ولا يصح إلزام غيرك بحكايتها. الغاية أن تستعين بالذاكرة على يومك، مع الرفق بما تثقله عليك.

خذ الدرس إلى موضعه

اسأل عما تعلمته من السبب. إن نفعك سؤال أهل الخبرة، فالدرس أن تسأل عند الحاجة من يحسن الجواب. وإن نفعك

الاعتراف المبكر بخطأ، فخذ منه المبادرة إلى الإصلاح. وإن احتجت إلى تغيير وسيلة، فتعلم أن تحفظ مقصدك وأنت تراجع طريقه. هذه معان تستطيع استعمالها؛ أما نجاح كل محاولة، فله شروطه وأسبابه وتقدير الله.

وقد كان بعض الفرّج أن اعتذرت قبل اتساع القطيعة، أو حفظت حقًا قبل تعذر رده، أو سألت قبل العمل بجهل. تعود إليك تلك الوقائع لتعين قرارًا أمامك الآن. تنمي الذاكرة الرجاء حين تقرب فعلاً نافعًا إلى يدك، إلى جانب أثرها في شعورك. وإن كان لإنسان معروف في تجربتك، فاحفظه بإنصاف. تشكر الله الذي يسّر، وتشكر المحسن على ما فعل، وتذكر قدر ما علمت من جهده. نجاحك اللاحق لا يمحو فضل من أعانك في البداية، ولا يحمله إلى منزلة من يأتي الفرّج منه وحده. في الذاكرة الأمانة وفاء تتعلمه وتؤديه.

وقد تنتفع بواقعة لم تبلغ مطلوبك الأول. ظننت أن ضياع فرصة يمنع كل تعلم، ثم تعلمت بعدها؛ أو خلت أنك تعجز عن أداء حق ما دام الحزن باقيًا، ثم أدبته مستعينًا بالله. صحت الواقعة حكمًا واسعًا على قدرتك أو مستقبلك. ولك أن ترى هذا الخير مع بقاء حزنك، دون أن تسميه عوضًا مطابقًا عما فقدت.

وحيث تخص القصة غيرك، استأذنه فيما يحتاج إلى إذنه،
وصن ما لا يصلح نشره. قد تراها مثلاً نافعا، ويعدها صاحبها
سراً أو ألماً؛ والمقصد الحسن يبقى محتاجاً إلى حفظ حقه.
تستطيع تقريب المعنى بمثال منشأ تصرح بطبيعته إذا تعذر
نشر الواقعة بحق.

خذ من الماضي شكراً لما عرفت، وعلماً بدرس نافع، ثم عد إلى
ما يحتاجه حاضرك من سؤال وعمل. قد يأتي خير الغد على
صورة مختلفة؛ فتسأل الله فضله، وتستعمل ما تعلمت، دون
أن تحصر الرجاء في تكرار خاتمة قديمة.

اللهم أعنا على ذكر فضلك وشكر نعمتك، وارزقنا صدقاً فيما
نحكي، وبصيرة فيما نتعلم، ورجاءً يقودنا إلى طاعتك.

الباب السابع: الرجاء في الحياة

يحمل الإنسان رجاءه إلى بيته ورزقه وعبادته، وإلى المرض والتعلم والعلاقات. وتتبين ثمرة المعنى حين يحفظ حقًا، أو يؤدي أمانة، أو يعين متعبًا على خطوة يستطيعها.

الفصل التاسع والأربعون: في الصلاة

قد يدخل العبد صلاته وقد اجتمع عليه تعب يومه وحياء تقصيره، فيشعر أنه يحمل إلى الوقوف بين يدي الله قلبًا كثير التفرق. وربما انتظر من نفسه صفاءً كاملاً قبل أن يحسن الإقبال. لكن الصلاة هي من مواضع طلب الهداية والمغفرة؛ يأتيها بما يعرف من حاجته، ويؤدي فرضه، ويتعلم صفتها، ويسأل ربه أن يصلح بها شأنه.

والرجاء الذي يصحبه إلى الصلاة يعينه على المحافظة عليها حين يثقل البدء. يعرف أن ربه يسمع دعاءه، وأن حاجته إلى فضله قائمة، فيقوم إلى العبادة وإن بقي في يومه أمر مؤلم أو شأن لم يستقم. ويظل للعبادة حقها في قلبه حين تتأخر نتيجة يرجوها؛ فما انحصر فضل الله في جواب دنيوي ينتظره عند الفراغ.

عن ثوبان رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثاً، وقال: اللهم أنت السلام ومنك السلام، تباركت ذا الجلال والإكرام». رواه مسلم.¹⁰⁰

100 مسلم، الصحيح، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته، حديث ثوبان، رقم 591.

تأمل حال العبد عند إتمام عمله: وُقِّق إلى الصلاة، ثم استغفر بالذكر المأثور بعدها. وفي ذلك ما يربي القلب على شكر التوفيق مع دوام الافتقار. يفرغ من عبادته وقد أدى ما علمه، ويسأل المغفرة والقبول؛ فلا يمنحه تمام الفعل شهادة على ما غاب من قبوله، ولا يدفعه الشعور بالتقصير إلى إهدار العمل الذي أُعِين عليه.

حين يعود الذهن إلى شاغله

قد يتنبه المصلي وقد ذهب ذهنه إلى حديث مضى أو مهمة تنتظره. موضع المجاهدة حينئذ أن يعود إلى ما يقرأ ويفعل. أما استرسال النفس في لوم طويل داخل الصلاة فينشئ شاغلًا جديدًا فوق الشاغل الأول. يرجع كلما تنبه، مستعينًا بالله، ويترك لمحاولة الرجوع عملها ولو احتاج إليها مرة أخرى.

تصور موظفًا خرج من عمل مزدحم، ثم صلى وبقيت مهمة معلقة تستدعي انتباهه. قد يعينه في المرة التالية أن ينهي اتصالًا يمكن إنهاؤه، أو يكتب ما يخشى نسيانه قبل الصلاة. هذا ترتيب لشأنه بحسب حاجته، وأثره أن يخف بعض الشاغل الذي يستطيع رفعه. تبقى صفة العبادة مأخوذة من الشرع، وما اختاره لتنظيم يومه وسيلة قابلة للتغيير.

ويحتاج هنا إلى علم يضع الشعور في موضعه. لصحة الصلاة وللشك والسهو أحكام يتعلمها، أما مقدار تأثيره فحال قد يقوى ويضعف. إن عرف خطأ صححه بحسب حكمه، وإن كان الذي وجده قلقًا مجردًا، لم يجعل القلق أصلًا لإعادة متكررة. حفظ العبادة يجمع صحة الأداء ومجاهدة القلب، ولكل منهما طريق معرفته.

ذكر يصحبك إلى شأنك

كتب المغيرة بن شعبة رضي الله عنه إلى معاوية أن رسول الله ﷺ كان إذا فرغ من الصلاة وسلم قال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد». رواه مسلم.¹⁰¹

يخرج المصلي بهذه المعرفة إلى الناس والأسباب. الذي يرجو رزقًا يتذكر ملك الله، والذي ينتظر خبرًا يعرف قدرته، والذي يخشى فقدًا يستعين به. يشكر من أعانه ويؤدي حقوق من يعامله، ويكون رجاؤه في ربه الذي يملك عطاءهم وعطاء

101 مسلم، الصحيح، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته، حديث المغيرة بن شعبة، رقم 593. وتفسير «الجد» من النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، باب ما يقول إذا رفع رأسه من الركوع، عند شرح حديث 477، في النص الإلكتروني للشرح؛ والشرح للعبارة المشتركة، دون خلط متني الحديثين.

غيرهم. وإذا تعذر سبب معلوم، بقي فضل الله أوسع من ذلك السبب.

والجَد هنا، على الضبط المشهور، الحظ والغنى والعظمة والسلطان. يبين النووي أن حظ المرء من الدنيا لا ينجيه من الله؛ وإنما ينتفع بالعمل الصالح.¹⁰² فمن عاد إلى مال أو منصب عاد إلى نعمة يسأل عنها، ومن عاد إلى قلة بقي له باب الطاعة. يستقر بهذا المعنى ميزان آخر في قلبه: يعرف قيمة ما مُنح، ويعرف ما يحتاج إليه للانتفاع به عند ربه.

وقد يحمل من الذكر معنى واحدًا فهمه، فيصحبه إلى حاجته الحاضرة. يتعلم الألفاظ وما تدل عليه بالتدرج، ويحفظ الذكر على صفته الماثورة. ثم ينفعه العلم في حسن السؤال والإقبال، دون أن يجعل كل صلاة امتحانًا طويلًا في استحضر جميع المعاني أو ينتظر انفعالاً مخصوصًا ليثق بذكره.

102 مسلم، الصحيح، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته، حديث المغيرة بن شعبة، رقم 593. وتفسير «الجَد» من النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، باب ما يقول إذا رفع رأسه من الركوع، عند شرح حديث 477، في النص الإلكتروني للشرح؛ والشرح للعبارة المشتركة، دون خلط متني الحديثين.

ما تنتظره منك الصلاة التالية

ربما خرج العبد وقد عزم على إصلاح خصومة، ثم استراح إلى حسن عزمه. يصدق رجاؤه حين يرد كلمة غير صحيحة، أو يؤدي حقًا، أو يسأل عن حكم أشكل. هذه مسؤولية علمها؛ فيحملها إلى قراره، ويحمل سؤال القبول إلى دعائه. وتظل مراجعة نفسه بقدر ما يعينه على العمل، دون تفتيش عن ثمرة عاجلة لكل صلاة.

وإن تعلم حكمًا يصح عادة قديمة، فليحمد الله على باب العلم الذي انفتح. يسأل عن أحكام ما مضى بحسب حاله، ويبيّن صلاته التالية على بيان. وحين يعين غيره، ينظر إلى حاجته: تعليم صفة، أو تنظيم وقت، أو تذليل عائق. لكل مصل مشقة يعرف منها ما يبينه، ولكل قلب تعبيره عن أثر العبادة.

ابدأ بما تقدر عليه في الصلاة القادمة: احفظ وقتها، وتعلم ما تحتاج إليه، وخفف شاغلًا معلومًا. وإذا فرغت فالزم الذكر الثابت، واسأل ربك القبول. يدخل العبد مفتقرًا، ويخرج مفتقرًا؛ وبين الدخول والخروج عمل يرجو أن ينفعه الله به.

الفصل الخمسون: بعد السقوط

للذنوب لحظة تقع فيها الجناية، ولما بعده قرارات قد تقطع امتدادها أو تزيده. قد يكذب العبد ليحفظ صورته، أو يظلم من ينهبه إلى خطئه، أو يسترسل في المعصية بحجة أن أمره قد فسد. وحين يرجو مغفرة ربه يجد سبيلاً آخر: يقف عند ما فعل، ويتوب، ويبدأ إصلاح ما تعلق به قبل أن تنضم إليه جنايات جديدة.

وقد تقدم حديث العبد الذي يتكرر منه الذنب ثم يرجع مستغفراً، وشرح النووي أن المغفرة متصلة بتجدد التوبة.¹⁰³ ينفعك هذا المعنى عند الضعف مباشرة؛ فالذي عرف حاجته إلى المغفرة يحملها إلى من يغفر، ويعود إلى أداء ما عليه. وما علمه من نفسه يبين موضع الاستعانة والمراجعة، بدل أن يتحول إلى حجة تبقيه في المعصية.

أول قرار بعد الخطأ

ابداً بوقف الضرر الجاري حيث تستطيع. إن بقي الفعل الذي تؤذي به غيرك، فكف عنه، وإن بقيت وسيلة تستدرجك إلى

103 مسلم، الصحيح، كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة، حديث أبي هريرة، رقم 2758؛ والنووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، شرح الحديث في الباب نفسه، في النص الإلكتروني للشرح. قوله «اعمل ما شئت» مع استمرار التوبة، وليس إباحة للإصرار على الذنب.

تكراره، فانظر كيف تغيرها. ثم اطلب بيان ما يلزمك من إصلاح. قد يحملك شدة الندم على تصرف واسع لم تفهم عاقبته، فيضيع حقًا آخر؛ ولهذا يحتاج صدق القصد إلى علم يرشده.

وتجمع التوبة الإقلاع والندم والعزم الصادق على عدم العودة، ويؤدي ما تعلق بحقوق الناس بحسب أحكامه.¹⁰⁴ هذه معان تتوجه بها الآن إلى الله. أما معرفة الطريق الذي انتهى بك إلى الذنب فقد تحتاج وقتًا؛ تجدد رجوعك ثم تبحث عن السبب، ويكون البحث معيّنًا على الثبات في التوبة.

ربما قلت: أعرف أنني ضعيف، وقد أعود، فكيف أعزم؟ العزم هو إرادتك الصادقة الآن في ترك المعصية. تعرف حاجتك إلى المعونة، وتسال الله الثبات، وتمضي فيما تبين لك. الفرق كبير بين خوفك من عثرة تكرهها، وبين إبقاء قصد العودة حاضرًا في نفسك. يحتاج الأول إلى استعانة، ويحتاج الثاني إلى تصحيح الإرادة التي تحملها إلى التوبة.

104 مسلم، الصحيح، كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة، حديث أبي هريرة، رقم 2758؛ والنووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، شرح الحديث في الباب نفسه، في النص الإلكتروني للشرح. قوله «اعمل ما شئت» مع استمرار التوبة، وليس إباحة للإصرار على الذنب.

الحق والستر

إذا كان للذنب صاحب حق، فإن رجاء المغفرة يقويك على تحمل مسؤوليتك أمامه. وقد يحتاج حقه إلى بيان أو اعتذار أو شهادة صادقة، فتؤدي ذلك على وجهه. وتحفظ سترك وستر من اتصل بالواقعة، وتسأل عند الاشتباه؛ فحاجة معينة إلى الإفصاح لا تعني فتح تفاصيل الماضي لكل سامع.

تصور شخصًا أساء إلى زميل في رسالة جماعية، ونشر عنه وصفًا كاذبًا. يكف عن تكرار الإساءة، ثم يصحح ما نشره بما يرفع أثره بقدر الممكن. يبقى للاعتذار الخاص نفعه، ويبقى للوصف المنشور أثر يحتاج إلى إصلاح في موضعه. ويختار في التصحيح كلاً ما يؤدي الحق، ويحفظ التفاصيل الخاصة التي لا يتوقف الإصلاح على كشفها.

وقد يصف المعتذر ندمه طويلاً حتى يصبح المتضرر مطالباً بمواساته. ليحفظ للاعتذار وظيفته: إقرار بالمسؤولية، وتصحيح مقدور، وبيان لما يحتاج الآخر إلى معرفته. أما ألم الندم فله موضعه في الاستغفار والدعاء وطلب المعونة. يستطيع أن يكون صادقاً في ألمه، وأن يترك للمتضرر مساحة يسمع فيها الاعتراف بحقه.

وربما تأخر تصديق الآخر له. يحمل المتضرر تجربة وحقًا، وقد يحتاج إلى وقت يرى فيه أثر التغيير. يثبت التائب على ما يلزمه وإن لم ينل ثناءً، ويترك للآخر اختياره. يكون أداء الحق ثمرة الرجاء، ويكون طلب الطمأنينة من الله عونًا على إتمامه.

أين بدأ الطريق؟

حين تهدأ، عد إلى واقعة محددة: ما القرار الذي مهد للخطأ؟ وأين كان يمكن أن تتوقف أو تسأل؟ من نشر خبرًا بغير تثبت قد يجد أنه استعجل طلبًا للسبق، أو استجاب لغضب، أو اعتمد على ناقل يجهل حاله. يسمي السبب بقدر ما عرف، ثم يختار إجراءً يعالجه. يستفيد من معرفة ضعف النفس حين يصل بها إلى موضع يمكن تغييره.

ومن اعتاد الإساءة عند الغضب قد يحتاج إلى تأخير الرد ومراجعة العبارة بعد الهدوء. يتعلم من أثر هذا الترتيب، ويعدله إن ظهر قصوره. وقد تكون وسيلة الإصلاح التي اختارها أضعف من السبب الذي يواجهه؛ فيطلب عونًا مناسبًا، ويجرب تنظيمًا يعينه على حفظ الحق، مستعينًا بالله في كل ذلك.

وإن شارك أحدًا في معاونته، شاركه بقدر الحاجة. يختار أمينًا يعرف حدود خبرته، ويبين له موضع المتابعة والعمل الذي يستطيع مساعدته فيه. هكذا يصير طلب العون فعل مسؤولية يحفظ السر ويخدم الإصلاح، بدل كشف يتجاوز الغرض إلى أسرار الآخرين. ويخبر من يعينه بما تغير من حاجته وقدرته.

ثم افتح يومك للخير الذي تستطيع فعله. أد فرائضك، وتعلم، وصل رحمك، وأحسن إلى من حولك. ما زالت هذه أبواب عبودية تحتاج إليها، ويعينك سلوكها على أن يستقر الماضي في موضع التوبة والعبرة، ويستقر الحاضر في موضع العمل. ابدأ بإيقاف الخطأ، واعرف حقه، وراجع سبب تكراره. وقد يتضح لك الأول قبل الثالث، فتعمل بما عرفت وتطلب علم ما جهلت. الرجاء يعيد إليك القدرة على تحمل هذا الترتيب: ذنب تستغفر منه، وحق تؤديه، وسبب تعالجه؛ ثم تسأل الله أن يتم عليك نعمة الرجوع.

الفصل الحادي والخمسون: في المرض والعلاج

يتغير يوم المريض من غير اختياره؛ يصبح العمل الذي كان يسيرًا ثقیلاً، ويطول انتظار خبر كان يمر سريعاً، وتتوزع قوته بين ألم ومواعيد ورعاية. يحتاج في هذه الحال إلى رجاء يصحب واقعه. يسأل العافية، ويسأل العون والأجر وتخفيف الألم وحسن الصحبة، وتبقى له صلة بربه وهو يصف تعبته ويطلب من الناس معونتهم.

عن صهيب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له». رواه مسلم.¹⁰⁵

يربط الحديث الخير بالشكر والصبر. يصبر المؤمن والألم يؤلمه، ويشكر نعمة تخفف عنه وهو يطلب تمام العافية. يعرف من الخبر أن في حاله موضعاً للعبودية، فيرجو أن ينفعه الله بها. وهذا المعنى يصون أيامه من أن تصير مجرد زمن ينتظر انقضاءه؛ ما استطاعه من طاعة وقصد حسن له مكان في يومه المتعب.

105 مسلم، الصحيح، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير، حديث صهيب، رقم 2999.

ما ترجوه وما تحتاج إلى معرفته

يرجو المريض الشفاء ويدعو به، ويأخذ المشورة الطبية المناسبة من أهلها. وقد يكون الذي يعرفه عن حالته بعض ما يحتاج إليه؛ فيسأل عما يعينه على القرار، ويحفظ لكل معلومة قدرها. التوقع احتمال، وخبر المختص له حدود يوضحها، وقصة مريض آخر تجربة لها ظروفها. يثبت رجاؤه في رحمة الله، ويتعلم وصف حالته من مصدره.

ومن حسن المواساة أن يصحب القريب هذا الفرق. يسأل الله له العافية، ويعرض ما يستطيع من المعونة، ويترك تفاصيل العلاج لأهلها. قد يتأخر الشفاء مع صدق الدعاء، وقد يقل ظاهر العمل مع بقاء الرغبة فيه. لا يعرف المواسي منزلة مريض من سرعة تحسن بدنه، وإنما يعرف حاجات يمكن أن يستمع إليها ويعين على تلبيتها.

ويجد المريض سعة في المطلوبات التي يحملها إلى الدعاء: شفاء يطلبه، ورفق في الرعاية، وقوة على واجب، وحفظ لأهله ودينه. فإذا بقي باب منتظر، وجد في غيره نعمة يشكرها ومعونة يسألها. تعدد هذه المطالب يعينه على العيش في يومه، ويحفظ رغبته في زوال المرض من أن تستولي وحدها على كل ما يراه.

القدرة التي بقيت

قد تتغير قدرته على الصلاة وأعماله اليومية. يسأل أهل العلم عن أحكام حاله، ويؤدي ما استطاع على الوجه المشروع. كانت مهمته واسعة، ثم أصبح الممكن أقل؛ فيحتاج إلى ميزان ينظر إلى واجبه وقدرته الآن. قياس يوم المرض بيوم الصحة الأقوى قد يخفي عنه ما أُعين عليه، كما أن الاسترسال في العجز قد يصرفه عما بقي مقدورًا.

وتقدم حديث كتابة العمل الذي كان يعملُه العبد صحيحًا مقيمًا إذا مرض أو سافر.¹⁰⁶ يستبشر به من حال العذر بينه وبين عاداته الصالحة، ويقرأه في هذا الموضع. يحفظ للنية والعادة منزلتهما، ثم يعرف تكليفه الحاضر. وما ثبت من الفضل للعذر يدعوه إلى الطمأنينة بربه والحرص على الممكن؛ فلكل باب أحكامه، ولكل قدرة عمل يناسبها.

وقد يكون من الممكن أن يبين حاجة لم يجد من يفهمها، أو يشكر من أعانه، أو يستعين على أداء عبادة. يقبل العون المشروع ويقصد به ما يصلح شأنه. وإذا غلبه التعب، وصفه

106 البخاري، الصحيح، كتاب الجهاد والسير، باب يكتب للمسافر مثل ما كان يعمل في الإقامة، حديث أبي موسى الأشعري، رقم 2996.

بصدق؛ فالصبر يحتاج إلى عون، ومن وسائل طلبه بيان الحاجة لمن يستطيع تلبيتها.

رحمة تصل إلى صاحبها

تصور قريبًا يكثر إرسال وصفات سمع بها إلى مريض يريد مساعدته. قد تكون المعونة التي يحتاجها مرافقة إلى موعد، أو ترتيب شأن منزلي، أو وقتًا للراحة، أو تدوين أسئلة للطبيب. يسأله المعين أولاً، ثم يختار ما يرضاه المريض ويقدر هو عليه. هكذا تبلغ الرغبة في الإحسان حاجة معلومة، ويحفظ العلاج بابَه والخصوصية حرمتها.

ومن أدب الزيارة معرفة ما يتسع له اللقاء. ربما رغب المريض في حديث قصير، أو سكون، أو خدمة محددة. يستأذن الزائر، ويسمع الجواب، ويترك لصاحب الحاجة اختياره حيث يملك البيان. يبقى المريض أعرف ببعض عاداته وحاجاته، ويعينه من حوله على التعبير عنها بدل أن يلغوا اختياره باسم الرعاية.

ولمن يحمل الرعاية حاجة أيضًا إلى الرفق وتنظيم قدرته. يتوزع المعينون مهام يمكنهم الوفاء بها، ويخبر من تعذر عليه عمله في وقت يسمح بتداركه. صدق الوعد يخفف عن الأسرة ما تنشئه الوعود المتداخلة والغياب المفاجئ من مشقة. حسن

القصد يقوى حين تعرف حد قدرتك وتطلب المعونة فيما زاد عليها.

وإن وصل خبر مطمئن أو مقلق، فهموه قبل أن يرووه، وحفظوا خصوصية صاحبه. قد يدل على جانب محدد من الحالة، فتحتاج دلالة إلى سؤال. يطمئن القلب بفضل الله، وتبقى أخبار المرض محتاجة إلى فهم أمين.

للمريض أن يكون صادقاً في دعائه ووصف تعبته؛ قد يجتمع الحمد وألم البدن، وطلب العافية والخوف مما يأتي. اختر من يومك حاجة يمكن تلبيتها، وسؤالاً يحتاج إلى أهله، وطاعة تستطيع أداؤها. اسأل الله العون على هذا القليل المقدور، وعلى ما ترجوه وراءه؛ فهو يعلم حالك، وتبقى تفاصيل الثواب والقبول إليه.

الفصل الثاني والخمسون: في الدين والعمل

قد يثقل الدين على صاحبه حتى يستوحش من السؤال عن مواعده، ويؤخر النظر في أوراقه، ويستريح إلى أمل يكرر ذكره من غير أن يعرف ما يقتضيه الوفاء. أول ما ينفعه أن يقصد الأداء بصدق، ثم يحمل هذا القصد إلى معرفة الحق والسعي فيه. فالمال في يده حاجة له، وحق لصاحبه؛ ورجاء التيسير يقوي أمانته في الجهتين.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه، ومن أخذ يريد إتلافها أتلفه الله». رواه البخاري.¹⁰⁷

تضع البشارة القصد في موضع عظيم من المعاملة. يرجو من يريد الوفاء عون الله، ويخاف من يستهين بمال غيره عاقبة قصده. وصدق الإرادة يظهر حين يسأل عن عقد قبل الدخول فيه، ويفهم ما يلزمه، ويقدر ما يعلم من قدرته. إن كان يخشى العجز، احتاج إلى نظر أمين؛ فالطمأنينة إلى الوعد تستدعي حفظ حدود العمل الذي يتعلق به.

107 البخاري، الصحيح، كتاب في الاستقراض وأداء الديون والحجر والتفليس، باب من أخذ أموال الناس يريد أداءها أو إتلافها، حديث أبي هريرة، رقم 2387.

ما تعرفه من حق الناس

إذا وقع الضيق، اجمع وثائقك، واضبط المقدار والآجال، وميز الحق الثابت مما يحتاج إلى مراجعة. قد تكتشف أن جانبًا من الخوف كان ينمو في فراغ المعلومة. تستطيع أن تبدأ بترتيبها، وأن تسأل عن حكم أشكل، وأن تتواصل مع صاحب الحق بالطريق المناسب. كل معلوم صحيح يبين لك خطوة كانت غامضة.

تصور من تأخر دخله الذي اعتمد عليه في الوفاء. يبين ما يحتاج صاحب الحق إلى معرفته، ويسعى إلى تسوية ممكنة، ويطلب بيان الحكم عند الالتباس. ويحفظ لخبره صدقه: مال ينتظره غير مال وصل، ووعد تلقاه غير قدرة صارت في يده. قد يكلفه البيان حرجًا، لكنه يصون الآخر من ترتيب حاجاته على معلومة كاذبة.

ولهذا يحتاج إلى رؤية ضيقه في حياة غيره. صاحب الحق قد ينتظر المال لأمر لازم، وقد اعتمد على موعد قيل له. النية الصادقة تدعو المدين إلى بيان ما يستطيع، وإلى الحذر من التزام جديد يجهل طريق أدائه. وحين تشتد عليه كلفة الصدق، يستعين برجائه فيما عند الله على تحملها.

قصد ظل صاحبه يعمل له

ذكر النبي ﷺ خبراً ينير هذا الموضع. عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ: «أنه ذكر رجلاً من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أن يسلفه ألف دينار، فقال: ائتني بالشهداء أشهدهم. فقال: كفى بالله شهيداً. قال: فأتني بالكفيل. قال: كفى بالله كفياً. قال: صدقت. فدفعها إليه إلى أجل مسمى، فخرج في البحر، فقضى حاجته، ثم التمس مركباً يركبها، يقدم عليه للأجل الذي أجله، فلم يجد مركباً، فأخذ خشبة، فنقرها فأدخل فيها ألف دينار، وصحيفة منه إلى صاحبه، ثم زجج موضعها، ثم أتى بها إلى البحر، فقال: اللهم إنك تعلم أنني كنت تسلفت فلاناً ألف دينار، فسألني كفياً، فقلت: كفى بالله كفياً، فرضي بك، وسألني شهيداً، فقلت: كفى بالله شهيداً، فرضي بك، وأناي جهدت أن أجد مركباً، أبعث إليه الذي له فلم أقدر، وإنني أستودعكها. فرمى بها في البحر حتى ولجت فيه، ثم انصرف، وهو في ذلك يلتمس مركباً، يخرج إلى بلده، فخرج الرجل الذي كان أسلفه، ينظر لعل مركباً قد جاء بماله، فإذا بالخشبة التي فيها المال، فأخذها لأهله حطباً، فلما نشرها وجد المال والصحيفة، ثم قدم الذي كان أسلفه، فأتى بالألف دينار، فقال: والله ما زلت جاهداً في طلب مركب لآتيك بمالك، فما وجدت مركباً قبل الذي أتيت

فيه. قال: هل كنت بعثت إلي بشيء؟ قال: أخبرك أنني لم أجد مركبًا قبل الذي جئت فيه. قال: فإن الله قد أدى عنك الذي بعثت في الخشبة، فانصرف بالآلف الدينار راشدًا». رواه البخاري.¹⁰⁸

موضع التأمل أن الرجل ظل يلتمس مركبًا بعد الدعاء وإرسال المال، ثم جاء بالآلف دينار حين وجد الطريق. كان قد بذل ما بذل، وبقي لا يعلم وصول الحق؛ فحفظ الأداء مطلوبًا في عمله حتى أخبره صاحبه بحصوله. هنا تظهر أمانة الرجاء: يدعو ويجتهد، ويحفظ في بيانه الفرق بين ما صنعه وما تحقق له.

وهذا خبر عن واقعة بعينها. نستعمل ما يتاح لنا من وسائل صحيحة تحفظ الأموال، ونتحقق من وصول الحق، ونعطي التوثيق مكانه في المعاملة. ثقة الرجلين لا تسقط حق من يطلب توثيق ماله، وما وقع لهما من تيسير لا ينشئ وعدًا لكل من يرسل المال في وسيلة غير مأمونة. يؤخذ المعنى التربوي

108 البخاري، الصحيح، كتاب الكفالة، باب الكفالة في القرض والديون بالأبدان وغيرها، حديث أبي هريرة، رقم 2291. وابن حجر، فتح الباري، شرح كتاب الكفالة، باب قول الله تعالى: والذين عاقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم، عند قوله «وقال الليث حدثني جعفر بن ربيعة»؛ وباب التجارة في البحر، في النص الإلكتروني للشرح. وينظر: خالد السبت، أعمال القلوب، ج 2، ص 111.

في موضعه، وتبقى أحكام المعاملات محتاجة إلى علم وتنزيل على الحال.

في الطريق إلى الرزق

وقد يتعلق الوفاء بتحسين عمل يرجوه صاحبه. يسعى إلى رزق مشروع، ويتعلم ما يحسن أدائه، ويراجع ما يستطيع إذا رُفِض طلبه. ربما احتاج إلى مهارة، أو مجال آخر، أو وقت يتضح فيه الطريق. ينظر إلى المعلومات والخبرة، ويترك للقرار المهني قدره؛ فهو لا يحيط بقيمة الإنسان، ولا يخبره بمنزلته عند ربه.

ويحمل معه إلى هذا الطريق أمانته: يصف خبرته بصدق، وينسب العمل إلى صاحبه، ويحفظ حقوق من ينافسه. الحاجة قد تشتد، ويحتاج حينها إلى رجاء يعينه على السعي داخل المشروع. ما يطلبه من فضل الله يشمل رزقاً ينتفع به وعملاً يسلم فيه من ظلم غيره.

وربما احتاج إلى مراجعة إنفاق اعتاده أو مظهر أثقل التزاماته. ينظر إلى ما يجب عليه، ويستشير فيما يجهل، ويجعل الوفاء حقاً مقدماً على راحة صورة يخشى تغييرها أمام الناس. طلبه للعون من الله قائم وهو يتحمل هذه الكلفة ويغير ما يستطيع تغييره.

ومن أغان مديونًا أو باحثًا عن عمل، أعانه بالستر والمعلومة والفرصة المناسبة. يعرف حاجته دون إذلال، ويصدق فيما يعد به؛ فقد يكون بيان حدود القدرة أنفع من وعد يعلق الآخر عليه شأنه. وإذا تيسر لك أداء دينك، فاشكر، واحفظ لأحوال المعسرين تفاوتها. صف ما تعلمته بحدوده، واسأل الله لهم التيسير.

وحين تنظر إلى من بقي عليه دين، احذر أن تحمل عليه حكمًا من سرعة فرجك أنت. قد اختلفت قدرته وأسبابه وما يعلمه صاحب الحق من حاله. انتفع بما تعلمته في الوفاء، واعرضه بوصفه خبرة محدودة، واترك الوعد بمال مخصوص أو نتيجة عاجلة؛ فصدق المدين أوسع من زمن انقضاء دينه.

اكتب ما عليك، وتحقق مما جهلت، واختر خطوة تقدر عليها وموعداً واقعياً لمراجعتها. يكون الدعاء حاضرًا في هذا التدبير كله: تسأل المعونة على أداء حق معلوم، وعلى صدق كلمة، وعلى رزق يعينك على الوفاء.

الفصل الثالث والخمسون: في البيت والأبناء

قد يحمل الأب في قلبه مستقبلاً يرجوه لابنه، ويظل الابن حائراً فيما يطلبه منه اليوم. يسمع عن صلاح يريده أهله، ونجاح ينتظرونه، وخوفهم عليه، ثم يعجز عن التمييز بين واجب يعرف حكمه وأمنية اختاروها له. يحتاج رجاء الصلاح هنا إلى بيان ورحمة؛ فالحرص ينفع حين يبلغ صاحبه في صورة يفهمها ويستطيع العمل بها.

قال رسول الله ﷺ في حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «ألا كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته»، وذكر مسؤولية الرجل عن أهل بيته ومسؤولية المرأة في بيت زوجها وولده.¹⁰⁹ يضع الحديث الرعاية موضع التكليف. يسأل المربي عما علمه وبذله وعدل فيه، ثم يرجو هداية من يرعاهم ويدعو لهم؛ فالمسؤولية عن الفعل تعينه على إصلاحه، وتبقى السرائر إلى الله.

ويحتاج إلى هذا الفرق حين يتأخر أثر جهده. قد يبذل تعليمًا ثم ينتظر نتيجة يراها كل يوم، وعلى الصورة التي رسمها. إذا جعل سرعة الاستجابة دليلاً على قيمة دعائه ورعايته، أرهق نفسه ومن معه. الأثر يحتاج إلى نظر وصبر، والعمل الذي يقع

109 البخاري، الصحيح، كتاب الأحكام، حديث عبد الله بن عمر، رقم 7138.

في مسؤوليته يحتاج إلى مراجعة محددة: ماذا علّم؟ وكيف بيّن؟ وهل صدق فعله قوله؟

حين يسمع الابن ويرى

تصور والدًا يكثر النصح بالصدق، ثم يرى الابن منه وعدًا يخلفه أو حيلة يبررها لحاجته. في هذه الحال يبلغ إصلاح القدوة موضعًا قد تعجز عنه زيادة الكلام. يفي الوالد بما يستطيع، ويبين ما تعذر، ويعتذر حيث يلزم، ثم يواصل التعليم. يتعلم أهل البيت أن الحكم الصحيح يجري على من يعلمهم كما يجري عليهم.

وقد يفسر الوالد تأخر الاستجابة بأنه عناد، بينما لم يتضح للابن ما سمعه. هناك تعليم لم يقع، وتعليم وقع ولم يفهم، وفعل خالف فيه صاحبه ما عرفه. لكل حالة سؤالها. يسأل المربي بهدوء كيف فهم الآخر النصيحة، ثم يبين مثالاً مناسباً ويتابع التطبيق. يزداد التعليم إحكامًا حين يعرف موضع حاجته إلى البيان.

ومن البيان أن يميز واجب الدين عن عادة البيت وعن رغبته الشخصية في مسار دراسة أو عمل. يعرف الآخر ما يلزمه ولماذا، وما يقبل المناقشة والاختيار، وما هو أمنية يحبها

أهله. وضوح المطالب يعين على العدل؛ فقد تكون الخصومة في شأن جُعلت له منزلة لم يتبين موجبها.

وتحتاج المتابعة إلى حدود معلومة يعرفها أهل البيت، وإلى إنصات يبين حاجاتهم. إذا اشتبهت عليك مسألة خاصة، فاسأل أهل العلم والخبرة فيها؛ فقد يكون حسن السؤال جزءاً من الرعاية التي ترجون بها الصلاح.

كيف يعرف المخطئ طريق العودة؟

إذا وقع خطأ داخل البيت، فليكن الإصلاح مفهوماً: فعل يجب أن يتوقف، وأثر يحتاج إلى معالجة، ومعونة يستطيع أن يطلبها صاحبه. يحفظ المربي كرامته، ويصحح العمل، ويعطي المتضرر حقه وما يحتاج إليه من حماية مناسبة. رحمته بالمخطئ تبلغ نفعها حين تصحبها أمانة تجاه من مسه الأذى.

أما إعادة الماضي في كل مناسبة فتجعل طريق الرجوع غامضاً. قد يعتذر الابن ويغير فعلاً، ثم يجد أن كل عمل جديد يُحمل على خطئه القديم. يحتاج البيت إلى إنصاف ينظر إلى ما ظهر من إصلاح، مع حفظ حدود الأمان التي تقتضيها الحال. يرى الفعل الحاضر بقدره، ويترك ما خفي إلى الله.

ويظهر هذا الإنصاف في الثناء أيضاً. يلاحظ المربي صدق اعتذار أو أمانة خبر أو جهداً مناسباً، ويذكره بصدق. يعرف

صاحبه العمل الذي أحسنه فيحرص على حفظه. ويظل الشناء وصفاً لخير ظهر، كما يظل التصحيح بياناً لخطأ معلوم؛ فالشخص يتعلم وينمو، والعمل الواحد يحتاج إلى حكم يناسبه.

ومن العدل أن تحفظ لكل ابن حاجته. أسلوب نفع أحدهم قد يحتاج الآخر معه إلى شرح مختلف، وتقدم أحدهما في مجال لا يفسر جميع أحوال أخيه. المقارنة الدائمة قد تصرف النظر عن المسألة التي تحتاج إلى تعلم. اسأل ما الذي يعين هذا الابن على خطوة يفهمها، وما الذي تستطيع أنت تحسينه في طريق التعليم.

رعاية تتغير صورتها

وقد يختلف الكبار في وسيلة التربية. يتحدثون عنها بوضوح، ويعرف كل منهم ما قاله الآخر، ويتفقون على تعليم ومتابعة يستطيعون الوفاء بهما. يُحفظ للطفل موضعه من الرعاية، بدل أن يصير حكماً في خلافهم. وإذا بان خطأ قرار سابق، صححوه؛ فالعود المتعارضة تربك المتعلم مهما حسنت المقاصد.

ومع مرور الأعوام تتغير صورة الرعاية. ما يحتاجه صغير من تعليم مباشر قد يحتاج فيه البالغ إلى نصيحة وحوار وحدود تقوم على معرفة الحال والحكم. تبقى الرحمة وأداء الحقوق والدعاء، ويتعلم المربي كيف يبلغ بها الحاجة الجديدة. محبته تدعوه إلى القرب النافع، ومعرفته بحد قدرته تحفظ لهذا القرب أدبه.

انظر إلى شأن أسري يشغلك، ثم سمّ فعل رعاية تستطيع أدائه وخطأ في طريقته يمكنك إصلاحه إن وجد. ابدأ بما يقع تحت مسؤوليتك، وادع لأهلك بما ترجوه لهم. قد يحمل هذا البدء الهادئ إلى البيت معنى يسمعون به بالفعل: أن طالب الصلاح حاضر معهم في طريقه، صادق في نصحه، مستعد لمراجعة نفسه.

الفصل الرابع والخمسون: مع تأخر الإجابة

دعوت مرارًا، وبقيت الحاجة التي تحملها إلى الدعاء. قد يكون هذا وصفًا صادقًا لانتظارك، ثم تنشأ منه في النفس عبارة أخرى: الدعاء لا ينفع. بين الوصفين انتقال يحتاج إلى انتباه؛ تعرف أنك لم تر عين ما طلبت إلى الآن، أما الحكم على فعل الله فيتجاوز ما أحطت به. وحين تحفظ لهذا الفرق مكانه، تستطيع أن تصدق في ألم الانتظار وتبقى مقبلًا على السؤال.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم، ما لم يستعجل». قيل: يا رسول الله، ما الاستعجال؟ قال: «يقول: قد دعوت وقد دعوت، فلم أرى يستجيب لي، فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء». رواه مسلم.¹¹⁰

يصف الحديث أثرًا يبلغ العمل: يستحسر، ثم يترك الدعاء. وقد يحزن المنتظر ويبقى يسأل، وقد يتعب ويطلب عونًا على الاستمرار. ينتفع بالتحذير حين يرى إلى أين تحمله العبارة التي يقولها لنفسه. إن صارت تغلق باب السؤال، احتاج

110 مسلم، الصحيح، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب بيان أنه يستجاب للداعي ما لم يعجل فيقول دعوت فلم يستجب لي، حديث أبي هريرة، رقم 2735.

إلى تجديد معرفته بمن يسأل، وإلى حفظ موضع العبادة في أيامه.

ومما يعين عليه أن يكون دعاؤه أوسع من مطلوب واحد. يسأل حاجته المشروعة، ويحافظ على فرائضه، ويحسن إلى الناس، ويدعو بالمغفرة والعافية والهداية. بهذه السعة تستمر صلته بالله في شؤون كثيرة يعيشها اليوم، ويبقى لما ينتظره موضع من الرجاء والسعي، دون أن تستولي نتيجة واحدة على جميع نظره إلى ربه.

أي سؤال يحتاج إلى جواب؟

قد تنفك مراجعة ما تعرفه من حالك: هل المطلوب مشروع؟ وهل يتعلق بحق لغيرك؟ وهل تركت سبباً تقدر على بذله؟ وهل تحتاج إلى حكم لم تتعلمه؟ هذه أسئلة تصل إلى فعل يمكنك تصحيحه. فإذا وجدت معلومة نافعة، انتفعت بها؛ وإن غاب عنك السبب، وقفت عند حد علمك، وواصلت الدعاء والعمل.

أما أن تجزم بأن التأخر عقوبة على ذنب بعينه من غير دليل، فإنك تحمل الحادثة ما لا تعلمه عنها. تتوب من خطأ عرفته، وتتعلم ما جهلته، وتترك تفسير الغيب إلى الله. قد يبقى في

قلبك السؤال عن الحكمة، ويكون جوابك العملي أداء ما تبين من واجب وصدق الافتقار فيما غاب عنك.

تصور باحثًا عن عمل دعا وطال انتظاره. يراجع طلباته ومهاراته، ويسأل من يفهم المجالات المناسبة له، ويغير ما ظهر قصوره من الوسائل. لهذا التقييم معلوماته وخبرته، أما القبول عند الله فليس شهادة توظيف. ينفعه رجاؤه حين يصحبه إلى السعي ويحفظ أمانته فيه، ويعينه على احتمال رفض لم يختره.

وربما تغير علم الداعي بالمطلوب نفسه؛ ظنه مناسبًا، ثم تبين ضرره أو تعلقه بحق لا يجوز تعديده. يصحح قصده وسؤاله، ويشكر ما ظهر له من بيان. الرجاء تابع للهدى، ووفاءه للعبادة يكون في طلب الخير المشروع بحسب ما علم، ولو تغيرت العبارة الأولى التي وصف بها حاجته.

وقد يضيق تصورك للخير حتى تحصره في صورة واحدة اخترتها أول الأمر. وسع سؤالك إلى الخير والعافية والهداية، مع صدق رغبتك في حاجتك المشروعة. هذا الاتساع يحفظ افتقارك إلى الله في شأن قد تجهل عاقبته. تستطيع أن تسأل ما تحب، وأن تسأله سبحانه حسن الاختيار، وأن تترك لقلبك فرصة الانتفاع بما يتبين له بعد ذلك.

الحياة الواقعة بين دعائين

قد يؤجل المنتظر شيئاً من يومه كأن الحياة تبدأ عند وصول الخبر. يترك علماً يمكن تعلمه، أو صلة يمكن أداؤها، أو مسؤولية تحتاج إليه. ثم يزداد ثقل الانتظار لأنه استولى على الوقت كله. انظر إلى واجب حاضر، وخذ فيه؛ لما تفعله الآن معنى، ولو بقي المطلوب الغائب بعيداً عن علمك.

وإذا وجدت فتوراً، فتأمل ما يعينك على الاستئناف. قد تحتاج إلى فهم معنى دعاء ثابت، أو إلى رفقة تسمعك وتعاونك، أو إلى تخفيف مراجعة متكررة لخبر لا يضيف معلومة. يثبتك الحديث حين تتنبه إلى الاستحسار الذي يقود إلى ترك الدعاء، ويقويك على العودة إلى ما تقدر عليه.¹¹¹

ومن يواسيك يستطيع أن يبلغ هذا الموضع بمعونة حاضرة. يسمع دون استعجال، ويساعد في شأن تعطل، ويحفظ لك مساحة تصدق فيها بوصف تعبك. قد يكون الانتظار أشد من كلام سريع، ويحتاج صاحبه إلى صبرة معه. فإذا جهل المواسي سبب التأخر، حفظ لعلمه حده، وترك الحكايات التي توهم السامع موعداً مضموناً.

111 مسلم، الصحيح، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب بيان أنه يستجاب للداعي ما لم يعجل فيقول دعوت فلم يستجب لي، حديث أبي هريرة، رقم 2735.

وقد ينقضي مطلوب أو تتغير ظروفه. عندئذ تحتاج إلى معرفة واجب الحالة الجديدة، وإلى تعديل تدبير لم يعد له محل. تعترف بما وقع، وتحفظ ما وجب، وتسأل الله خير ما تستقبل. تبقى لك عبودية في الحاضر، وإن اختلفت الحاجة التي كنت ترسم بها مستقبلك.

وأنت في هذا كله عبد يسأل رباً عليماً رحيماً. تعرف ما شرع لك من السؤال، وتطلب عونه على ما تعلم من مسؤوليتك، وتفتقر إليه فيما لم تعلم عاقبته. جدد الدعاء، وراجع سبباً ظاهراً، وأد واجباً اليوم. يظل قلبك راجياً وأنت تمضي في هذا العمل؛ فالافتقار إلى الله يصحب حاجتك المنتظرة، ويصون ما بقي في يدك من يومك.

الفصل الخامس والخمسون: بعد الفشل

قد يقضي الإنسان أياً ما في محاولة، ثم تقف نتيجتها دون ما أراد. يبدأ بوصف ما حدث، وبعد قليل يجد نفسه يحكم على جميع قدرته: ما دام هذا قد تعثر، فلن أنفع في شيء. النتيجة الأولى يمكن فحصها، أما الثانية فتغلق أبواباً لم يجربها. ينفعه الرجاء حين يعيد إليه سعة النظر، فيتعلم من تجربة محددة ويترك لها حدودها.

ومن شواهد البناء العملي قوله صلى الله عليه وسلم: «أحرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز».¹¹² وقد مضى شرحه في موضع السبب والتفويض. يجتمع في القلب حرص على النافع وطلب لمعونة الله، ثم يبلغ ذلك المحاولة التي تعثرت: يعرف ما فعل، ويتبين وجه الخل، ويختار ما يستطيع أن يجعل به عمله التالي أصح.

وربما أثقل الحزن عليه هذه المراجعة، فيحتاج إلى أن يرفق بنفسه حتى يتبين له ما وقع. لا يملك تغيير النتيجة الماضية، ويملك تعلمًا يخفف تكرار الخطأ. وقد تقصر الخطوة التالية

112 مسلم، الصحيح، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله، حديث أبي هريرة، رقم 2664.

عن الغاية الكبيرة التي رسمها؛ لكنها تبلغ موضعًا معلومًا،
وتعطيه خبرًا جديدًا عن طريقه.

ثلاثة أوصاف للتجربة

افصل ما أردت بلوغه عما فعلته وعما حصل فعلًا. قد تكون
الخطئة مناسبة ولم تنفذ أصلها، وقد يكون التنفيذ حاضرًا
والخطئة لا تناسب السؤال. وربما أحسنت جانبًا وبقي جانب
يحتاج إلى تعلم. بهذا التفصيل يصير التقصير معلومًا، ويجد
التصحيح موضعًا يعمل فيه، بدل الحكم الواسع الذي يضيع
معه السبب.

تصور طالبًا أعد ملخصًا طويلاً ثم عجز عن الإجابة. يسأل: هل
فهم المادة أم اكتفى بنقل عباراتها؟ وهل تدرب على استعمال
معرفته في نوع السؤال؟ وهل عرف خطأه حين راجع؟ قد
ينفعه ما تعلمه إذا أضاف تدريبًا على استعماله، وقد يحتاج
إلى العودة إلى أصل الفهم. لكل شاهد ظهر خطوة تناسبه.
ومثال آخر قارئ بدأ مادة فوق مقدماته، فوجدها عسيرة.
يرجع إلى أصلها، أو يطلب شرحًا آخر، أو يسأل معلمًا. إذا
عرف موضع جهله، استطاع أن يختار بداية أنسب. الرجاء
يعينه على طلب هذا الطريق؛ إذ قد يصبح الحرص على إثبات
القدرة من أصعب بداية ممكنة شاغلًا عن التعلم نفسه.

وقد عرض خالد السبت مثال طالب العلم الذي يستبطن الفهم، وحاجته إلى مدافعة اليأس ومواصلة التعلم.¹¹³ يؤخذ منه ما يعين على الصبر، مع اعتبار اختلاف القدرة وطبيعة التخصص. يبذل الطالب سعيه ويتدرج فيما ينفعه، وتبقى الغايات التي يبلغها الناس متفاوتة؛ فالرغبة الصادقة تحتاج إلى معرفة الطريق ومقدار الاستطاعة.

ومن الدقة أن تميز السبب الثابت من المحتمل. ملاحظة معلم على إجابة خلت من الدليل شيء يمكنك الرجوع إليه، أما نفي الموهبة عن نفسك من كل وجه فحكم أوسع من الواقعة. اطلب ملاحظة مفهومة، ثم جرب تعديلاً صغيراً يتبين أثره. تصبح المعرفة الجديدة أساساً لقرارك التالي.

وربما احتاج إلى تسجيل ما عدله حتى يعرف أثره في المحاولة التالية. إذا غير عناصر كثيرة دفعة واحدة، صعب عليه أن يتبين ما نفعه منها. يبدأ بتعديل مفهوم، ويسأل عن علامته الظاهرة، ثم يتعلم من النتيجة. يصبح اختباراه وسيلة لمعرفة أوسع، ويخف تعلقه بحاجة أن يثبت لنفسه كل قدرته في مرة واحدة.

113 خالد بن عثمان السبت، أعمال القلوب، دار ابن الجوزي، ط1، 1438هـ/2017م، ج 2، قسم الرجاء، ص 53-116؛ وللتصنيف والدرجات ص 97-99، ولأسباب تنمية الرجاء ص 100-105، ولثمراته ص 106-112.

هل يحسن أن تستمر؟

قد يكون الخير في تغيير الوسيلة، وقد يكون في تقليل كلفة المسار أو تركه. ينظر المرء في المشروعات والقدرة والنفع وحقوق من يتصلون بعمله، ويستخير ويسأل ويعمل بما ترجح له. يحفظ قصده المشروع، ويترك لتقديره إمكان التصحيح؛ فكرامته أوسع من أول اختيار اتخذه.

وإذا أراد إعادة المحاولة، حدد ما يستطيع من وقت وجهد، وما يعده تقدمًا ظاهرًا، ومتى يراجع الوسيلة. هذه وسائل تنظيم يعرف بها أثر سعيه ويحفظ مسؤولياته. يستعين بالله على ما اختار، ويعلم أن الترتيب يبصره بعمله، دون أن يضمن له النتيجة التي ينتظرها.

وربما أغراه التعب الماضي بأن يبذل مزيدًا لمجرد أنه بذل كثيرًا. يحتاج هنا إلى سؤال يخص ما يستقبل: هل بقي الطريق نافعا مناسبًا لقدرتي؟ وما البديل المتاح؟ تحفظ التجربة الماضية ما تعلمه منها، أما القرار القادم فيبنى على نفعه وكلفته وحق من يتأثر به. قد يكون توقف مدروس بداية طريق أصلح.

وإن نصحه خبير بترك طريقة، فليسأل عن علتها وعن البديل. قد يقبل تقديره، وقد يخالف بعضه بعلم، وفي الحالين ينتفع

بسعة النظر. رجاؤه في فضل الله يقويه على مراجعة صورة قديمة عن نفسه، وعلى تلقي التصحيح دون أن يجعل قبوله هزيمة أخرى.

احفظ كذلك ما ثبت نفعه من التجربة: جزءًا أحسنته، أو حدًا لمهارتك عرفته، أو سؤالًا جديدًا ظهر لك. صف الخسارة بصدق، واستعمل العلم الذي خرجت به حيث يصلح. ثم عد إلى حرصك على النافع واستعانتك بالله؛ فباب الطاعة أوسع من المجال الذي تعثرت فيه.¹¹⁴

اكتب حقيقة واحدة من المحاولة، وسببًا محتملًا يحتاج إلى تحقق، وتعديلاً يمكنك اختباره. حين يبلغ قرارك هذا الموضع المحدد، تكون قد جعلت الرجاء عونًا على التعلم، وتركت الحكم على المستقبل كله لما يتجاوز معرفتك.

114 مسلم، الصحيح، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله، حديث أبي هريرة، رقم 2664.

الفصل السادس والخمسون: وقت الأزمات العامة

أمام الأخبار المتلاحقة يريد القلب كلمة تثبته وعملاً ينفع به من يتألمون. وقد يسمع تهويلاً يزيد اضطرابه، أو وعداً بانتهاء قريب لا يستند إلى علم. يحتاج الرجاء في هذه الحال إلى أمانة: يسمع الخبر بقدر ثبوته، ويسأل الله الفرج، ويؤدي ما يستطيع من واجب. بهذا يجد تعاطفه طريقاً يبلغ حاجة، ويصون قوله من أن يزيد الشدة.

قال تعالى: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾. [النساء:104]. سياق الآية في مواجهة العدو، وبيّن الطبري رجاء المؤمنين الثواب على ما يصيبهم.¹¹⁵ يجد المؤمن في الألم موضعاً لرجاء الأجر والثبات، وتبقى الآية على سياقها ودلالاتها؛ فلا يستخرج منها موعداً للفرج أو وعداً بانتصار كل مشروع يختاره.

وما يرجوه من الله يعينه على تحمل أمانة القول والعمل. قد تكون قدرته محدودة، فيحفظ بها حقاً معلوماً ويمنع ضرراً جديداً. ينظر إلى ما ينفع على وجه مشروع، ويسأل ربه المعونة والقبول؛ فشدة الحاجة إلى الفرج تزيد افتقاره، وتحتاج معها وسائل الإحسان إلى علم وضبط.

115 الطبري، جامع البيان، تفسير سورة النساء، الآية 104، في النص الإلكتروني للتفسير.

ما الذي يصل إلى الناس من قولك؟

للخبر سؤال عن ثبوته، وللتصرف بعده سؤال عما تستطيع أو يلزمك. يتحقق الناقل من المصدر والتاريخ وما تدل عليه المادة. صورة قديمة قد تثير خوفاً جديداً إذا خرجت بغير سياقها، وخبر متداول قد يستمد حضوره من كثرة نقله. فإن لم يعرف، أمسك عن الجزم؛ ففي العجلة بالإشاعة أذى لمن قصد إعانتهم.

ثم ينظر في صواب النشر نفسه. قد يصح أصل المعلومة، ويؤدي كشف تفاصيلها أصحابها أو يتجاوز ما أذنوا به. للخصوصية والحقوق مكان بعد التثبت من الخبر. يسأل عن الفائدة والحاجة، ويبين ما ينفع دون تفصيل زائد. أمانته تحفظ ما ينبغي قوله وما ينبغي صونه بحسب مسؤوليته وحاله.

وإن نشر خطأ ثم علمه، صححه لمن وصلهم كلامه بقدر الممكن. قد يكفي حذف في حال، وقد يبقى أثر منشور يستطيع رفعه بالبيان. يختار ما يوضح موضع الخطأ ويحفظ من تتعلق بهم المادة، ويقبل التصحيح وإن مس صورته عند المتابعين. من رجائه الأجر أن يرضى بأمانة الكلمة التي تحملها، وأن يكف أثر خطأ عرفه.

تصور رسالة عن حاجة عاجلة أو جمع مال. يتحقق الراغب في العون من الجهة والطريق الموثوق، ويعرف مقدار ما يستطيع بذله. يحفظ بيانات المحتاج الخاصة، ويطلب من المعلومة ما يعينه على وصول النفع. تكون حرارة قلبه حاضرة، ويكون الحرص على أمانة الطريق من تمام الإحسان الذي يريد.

قدرة معلومة ووعد صادق

قد يعد المعين في أول الأزمة بأكثر مما يطيق، ثم يخفت اندفاعه ويبقى المحتاج معتمداً عليه. يبدأ بما يعرف من قدرته، وبموعد يستطيع حفظه، ويبين حدود ما يعرضه. إن تغير حاله، أخبر في وقت يسمح بتدارك الأمر، وساعد في طلب بديل إذا قدر. يبقى المعروف موصولاً بالصدق في الوعد والأداء.

ويحتاج المتعاونون إلى معرفة من يفعل ماذا. قد تتكرر خدمة في موضع وتبقى حاجة أخرى بلا معونة. يسألون الجهة الموثوقة أو المسؤول المختص، ويقدمون ما يحسنونه على الطريق المعتبر. صورة مؤثرة توقظ الرحمة، وترتيب الأولويات يحتاج إلى معرفة الحاجة الفعلية وما يتاح لتبليتها.

وربما كان عملك ضبط معلومة، أو ترتيب شأن أسرة، أو إعانة شخص تعرف حاجته، أو أداء واجب أهمل تحت ضغط الأخبار. يصدق نفع هذه الأعمال بما تحفظه من حق وتدفعه من ضرر، ولو جرت بعيدًا عن الجمهور. لكل عمل قدره ومشروعيته وأثره الممكن؛ ويدع صاحبه القبول إلى الله.

وحين تجد اختلافًا بين ما تستطيع تقديمه وما يطلبه أصحاب الحاجة، فاسأل قبل زيادة الوعود. قد تكفي خدمة متقنة في وقتها، وقد يحتاج الأمر إلى اختصاص أو جهة أخرى. قبورك بحد خبرتك يصون المعونة من الخطأ، ويجعل تعاونك مع من يعرف جزءًا من العمل الذي ترجوه نافعا.

حين تطول الشدة

حفظ القدرة جزء من دوام الخدمة. ينظم المرء متابعتها للأخبار بحيث يجد وقتًا للعمل ويحفظ حقوق من يرعاهم. قد يقوى على مشاهدة ثم يضعف، وقد يحتاج إلى انقطاع يرد إليه قدرته؛ اهتمامه يبلغ صدقه بما يؤديه من أمانة ومعونة، دون أن يستدعي كل صورة في كل ساعة.

وقد يتناوب المتعاونون في خدمة حتى تستمر، أو يغيرون وسيلتهم حين تتغير الحاجة. يثبت مقصدهم المشروع، وتبقى الخطط قابلة للتصحيح بالمعلومة. تحتاج الأزمة

الممتدة إلى صدق جديد في كل مرحلة: ما الذي نقدر عليه الآن؟ وأي التزام ينبغي حفظه؟ وأين نحتاج إلى سؤال من يعرف؟

وفي حديثك مع المتضرر اسمع وصف حاجته. ربما انتظر جوابًا عمليًا في أمر تستطيع أدائه، بينما أعددت له كلامًا طويلًا. أعنه بما تملك، وادع له، واترك له حق التعبير عن ألمه. الرجاء يقربك من هذا الإنسان بمعرفة ورفق، ويعينك على أن يصل إليه شيء مما تريد له.

راجع خبرًا قبل نقله، واختر وجه نفع تؤديه بطريق موثوق. اسأل الله الفرج والثبات، وامض فيما تبين لك. للكلمة أمانتها، وللخدمة حدها، وللقلب رجاؤه في الله وهو يحفظ الاثنين.

الباب الثامن: أنواع ومراتب

قد يطلب الراجي حصول خير، أو بقاء نعمة، أو رفع ضرر، وقد يتوجه بطلبه إلى أمر مضي أو حاضر أو مستقبل. تتنوع حاجاته، ويبقى افتقاره إلى الله قائماً في مبدئه واستمراره وعاقبته.

الفصل السابع والخمسون: رجاء الرحمة

حين يشتد البلاء قد يغلب الألم على نظر صاحبه حتى يعجز عن تصور رحمة تبلغ حاله. يجد حوله من يرفق به، ثم تبقى وراء ما يستطيعون حاجات كثيرة: ضعف يطلب له قوة، ووحدة يسأل فيها أنسًا، وخوف يتمنى فيه ثباتًا. يحتاج قلبه إلى معرفة أن رحمة من يسأله أوسع من حد ما رآه بين الناس، وأن عجز المعين عن تمام حاجته يبين حد القدرة البشرية.

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «قدم على النبي ﷺ سبي، فإذا امرأة من السبي قد تحلب ثديها تسقي، إذا وجدت صبيًا في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا النبي ﷺ: أترون هذه طارحة ولدها في النار؟ قلنا: لا، وهي تقدر على ألا تطرحه. فقال: لله أرحم بعباده من هذه بولدها.» رواه البخاري.¹¹⁶

رأى الصحابة أثر رحمة يدركونه، ثم أخبرهم رسول الله ﷺ بما يفتح للقلب باب الرجاء في ربه. يعلم المبتلى من الخبر أن الرحمة التي يشهدها في الخلق ليست نهاية ما يرجوه. يثبت ما أخبر به الرسول على الوجه اللائق بالله، ويحفظ الفرق بين

116 البخاري، الصحيح، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، حديث عمر بن الخطاب، رقم 5999.

الخالق والمخلوق؛ فالمشهد يقرب معرفة الأثر، وصفات الله تثبت له بلا تمثيل بصفات خلقه.

حين يحمل المبتلى حاجته

يجتمع في قلب العبد رجاء رحمته سبحانه وصدق علمه بألمه. يسأل زوال الضيق، ويسأل عوناً عليه ما بقي، ومغفرة لما اقترف، وهداية إلى ما يلزمه، ورحمة في دنياه وآخرته. كل واحد من هذه المطالب يصل إلى جهة من حاجته. وقد تنشغل النفس بالمطلوب الأشد حتى تغفل عن سائر ما تفتقر إليه، فيعيدها الرجاء إلى سعة السؤال.

وهذا الاتساع يحفظ للبلاء حجمه في حياة صاحبه. الخلاف الذي يؤلمه شأن حاضر، وفي يومه كذلك صلاة وحقوق وعلم وعلاقات تحتاج إلى رعاية. يرجو الفرج، ويجد مواضع يستطيع أن يطلب فيها رحمة الله وهو منتظر. قد تبقى مشقة، وقد تأتي معونة في أداء واجب؛ يشكر ما عرفه من نعمة، ويستمر في سؤال ما يحتاج إليه.

تصور إنساناً ينتظر انفراج خلاف قديم. يدعو أن يصلح الله الحال، ويرجو أن يعينه على العدل وضبط اللسان وأداء ما عليه. يستطيع كف كلمة تزيد الضرر، وبيان حق يجهله، والرجوع عما أخطأ فيه. هذه خيرات حاضرة يعمل لها ويسأل

العون عليها، وتبقى المصالحة المطلوبة شأنًا يرجوه، دون أن يشهد بوقت حصولها.

وقد يقول: ما زال الألم، فكيف أنتفع برجاء الرحمة؟ يبدأ بما علمه من فضل ربه، ويحمل إليه ألمه في الدعاء. ثم ينظر إلى الممكن: معونة يطلبها، أو حق يؤديه، أو سبب مشروع يدفع به بعض ما يضره. يحتاج الرجاء إلى هذا الفعل المقدور حين يكون زوال البلاء كله خارج يده؛ بذلك يبقى مفتقرًا إلى الله في حال يعيشها الآن.

وقد يبكي المبتلى أو يتكلم قليلًا أو يعجز عن عبارة تطمئن سامعه. يسمع المعين حاجته، ويحفظ له كرامته، ويسأل عما يستطيع فعله؛ فظاهر التعب يصف مشقة يعيشها صاحبها، ويحتاج الحكم على قصده وما في قلبه إلى علم لا يملكه المواسي.

الرحمة التي ترجوها والرحمة التي تبذلها

من أثر هذه المعرفة أن ترى حاجة من حولك برفق. تعين ضعيفًا، وتبين لجاهل، وتترك تشفيًا في مخطئ، وتستمع لمبتلى يريد أن يصف شأنه. قد يذكر لك من تعبته جانبًا يعرفه هو وتجهله أنت؛ يزداد نفعاك حين تسمع قبل أن تختار

المعونة. الرغبة في الإحسان تبلغ وظيفتها بما يصل إليه من حق وخدمة.

وإن عجزت عن مطلوبه، فبين قدرتك بصدق، وقد يبقى لك شيء تستطيع فعله أو دلالة على من يعينه. ما بذلته طاعة ترجو بها فضل الله، وتحتاج هي نفسها إلى توفيقه وقبوله. يبقى قلبك محتاجًا وأنت تعطي؛ فالمعروف الذي أعنت عليه يفتح لك موضع شكر ودعاء، ويصون المعان من شعور أنك تملك ثمن طمأنينته.

وقد تكون الرحمة بيان خطأ يضر صاحبه أو وقف تعد على غيره. يحتاج المعين إلى رفق في الكلمة وصدق في الحكم، وإلى حفظ كرامة الناس ومسؤولياتهم. إذا كان الضرر مستمرًا، طلب طريقًا مشروعًا لدفعه، وأعان المخطئ على إصلاحه. الرحمة تتسع لصاحب الخطأ ولمن وقع عليه أذاه، ولكل منهما حقه.

رجاء يبقى معه العبد عبدًا

يبقى هذا الحديث مع سائر النصوص التي ربطت رجاء الرحمة بالإيمان والعمل والخوف والدعاء. عظمة الرحمة تحملك على طلبها والتعرض لأسبابها، وتمضي في امتثال ما عرفت من أمر الله. الحساب حق، والنجاة لمعين أمر لا تحكم به من هذا الخبر، وكل باب من أبواب الفضل يقرأ في سياقه.

اسأل الله رحمته في بلائك الحاضر وفيما تستقبل من آخرتك، ثم اختر إحسانًا تستطيع أدائه لمن يحتاج إليه. قد يخف به ألم إنسان يعجز عن مكافأتك، وقد يعينك أنت على رؤية فضل ربك في التوفيق إلى الرفق. تسأل رحمته وأنت محتاج، وترجوها وأنت عامل؛ وفي الحالين يعلم سبحانه ما لم تستطع أن تبينه من شأنك.

الفصل الثامن والخمسون: رجاء المغفرة

قد يحاول العبد الرجوع، ثم يتذكر كثرة ما مضى فيحسب أن الاستغفار يصغر أمامه. يرى من نفسه ذنبًا يعرفها، ويخشى ذنبًا نسيها، ويتساءل كيف يبدأ وقد امتد تقصيره. يحتاج في هذه اللحظة إلى أن يجمع علمه بجنايته إلى ما أخبره الله به من فضل المغفرة. مقدار الماضي يبين حاجته إلى الرجوع، ورجاؤه في ربه يعينه على أخذه بصدق.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تبارك وتعالى: يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي، يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة». رواه الترمذي، وحسنه الألباني لغيره في «صحيح الترغيب».¹¹⁷

يجتمع في الحديث الدعاء والرجاء والاستغفار والتوحيد. يسمع المذنب سعة الفضل، فيجد ما يحمل قلبه إلى من يغفر.

117 الترمذي، الجامع الكبير، كتاب الدعوات، حديث أنس، رقم 3540، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1996م، ج5، ص509-510؛ وحسنه الألباني لغيره في صحيح الترغيب والترهيب، رقم1630.

وما وُصف من عظم الخطايا يقابله بيان عظم المغفرة؛ فیتعلم أن كثرة ما مضى لا تجعل فضل ربه عاجزاً عن حاجته. يعود سائلاً، ويكون سؤاله متصلًا بما علمه من واجب التوبة.

وعنان السماء ما علا منها، وقراب الأرض ما يقارب ملأها. تقرب هذه الألفاظ معنى السعة، وترد نظر العبد من الانحصار في عدد جناياته إلى معرفة من يستغفره. ثم يبلغ هذا العلم غايته حين يرجع إلى الفعل: ذنب يقلع عنه، وحق يصلحه، وقصد يصححه. الوعد يبعثه، والأمر يبين طريقه.

أي عزم تحمله إلى الاستغفار؟

يقرأ العبد هذا الحديث مع النصوص التي بينت التوبة ونهت عن الإصرار والظلم. من خطط للمعصية ثم جعل الاستغفار موعدًا بعدها، احتاج إلى مراجعة قصده؛ فهو يستبقي ما يُدعى إلى تركه. أما من عرف ذنبه وأراد الرجوع، فليس عليه أن ينتظر علمًا بعصمته من كل ضعف مقبل حتى يبدأ. يصدق في عزم حاضر، ويسأل الثبات، ويعمل على قطع سبب يعرفه.

قد يستغفر استغفارًا عامًا، وقد يعرف خطأ يحتاج إلى توبة خاصة. يحفظ للعموم مشروعيته، ويبلغ به كذلك ما تبين من ذنبه: يقلع ويندم ويعزم على عدم العودة، ويؤدي ما تعلق بحقوق العباد بحسب أحكامها. يحتاج هذا الإصلاح إلى بيان

عند الاشتباه، ويظل الستر محفوظًا فيما لم يلزمه كشفه؛ فالاعتراف بالجناية في نفسه غير نشر تفاصيلها للناس.

تصور من اعتاد الاستغفار بعد إساءة اللسان، ثم بقي ينشر عن الآخرين كلامًا بغير علم. إذا اتصل رجاؤه بمعنى الاستغفار، بلغ موضع النشر نفسه؛ يتوقف، ويتثبت، ويصح ما لزمه، ويسأل عن حكم ما أشكل. يعرف من تكرر الذنب أن هناك وسيلة تحتاج إلى مراجعة، ويحمل هذه المعرفة إلى عمل يقدر عليه.

وربما كان الذي يشده إلى الخطأ رغبة في قبول جماعة اعتاد مجالستها. ينظر إلى ما يستطيع تغييره من صلتة بالموقف: كلمة يكفها، أو مشاركة يتركها، أو علم يطلبه قبل الحكم. يقصد إصلاح السبب الذي ظهر له، ويستغفر من ذنبه؛ فكلاهما يحتاج إلى الآخر في دوام الرجوع.

وربما اشتغل بقياس ندمه: هل تألمت بما يكفي؟ وهل كان رجائي قويًا كما ينبغي؟ يتعلم حقيقة ما يلزمه من التوبة، ثم ينظر إلى إرادته وعمله. يصدق في الأسف على الجناية، ويبدأ الترك والإصلاح، ويسأل المعونة على ما بقي. يصل الندم إلى غايته حين يحمله إلى الرجوع؛ ودوام محاكمة الشعور من غير علم جديد قد يشغله عن حق عرفه ويستطيع أدائه.

إذا عدت بعد توبة

وقد يضعف بعد رجوع صادق، فتثقله عبارة يحكم بها على كل ما سبق: كانت توبتي كلها كذبًا. ينظر إلى حاله عند التوبة؛ هل صدق في الترك، أم كان يستبقي قصد العودة؟ هذا فرق يبين له ما يحتاج إلى إصلاحه الآن. يجدد التوبة من الذنب الحاضر، ويعالج ما ظهر من ضعف طريقه، وقد تقدم تفصيل أحكام هذه العودة.

وحين يكون المتضرر حاضرًا، فليبلغ رجاء المغفرة حقه أيضًا. يؤدي ما علمه، ويسأل إذا التبس وجه الأداء، ويقبل أن إزالة أثر قديم قد تحتاج إلى وقت. الراحة التي يطلبها لنفسه بعد الاستغفار لا تسقط عن غيره حقًا معلومًا. ينفعه الافتقار إلى الله في احتمال مشقة الاعتراف والإصلاح كما ينفعه في طلب المغفرة.

وتبقى ثمرة هذا الرجاء أن يعود إلى ربه كلما عرف حاجة إلى العودة، بصدق يتجدد في قصده وعمله. كثرة الماضي تذكره بقدر افتقاره، وتعينه على الرفق بمبتلى آخر، وتحذره من أسباب عرف خطرهما. ثم يترك ما غاب من الحكم على قبوله إلى الله، ويمضي فيما تبين له.

اختر ذنبًا تعرفه، وبلغ باستغفارك موضعه: إقلاعا، أو إصلاح حق، أو طلب علم يبين الواجب. واسأل الله المغفرة والثبات وأنت تأخذ في ذلك. يقوى الرجاء حين يجد له طريقًا إلى يومك؛ فما أخبرت به من سعة الفضل يدعوك إلى رجوع تستطيع أن تبدأه الآن.

الفصل التاسع والخمسون: رجاء القبول

قد يؤخر العبد سؤال القبول إلى نهاية العمل، كأنه يحتاج في بدايته إلى القوة، وفي آخره إلى الرحمة. لكن افتقاره إلى الله حاضر وهو يختار الفعل ويؤديه ويصحح ما يقع فيه. ينفعه رجاء القبول حين يصحب الجهد من داخله؛ يحفظ قصده، ويطلب التوفيق، ويجد في الدعاء ما يرده إلى من يرجو فضله وهو ما زال يعمل.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. [البقرة: 127]. يبين السعدي ما في هذا الموضع من خوف ورجاء مع استمرار العمل نفسه.¹¹⁸ يرتفع البناء ويصاحبه الدعاء. عظمة العمل ومكانته تزيد معرفة العبد بحاجته إلى القبول، فيبذل ويسأل. وفي الآية ما يعين من يعمل طويلاً ويخشى أن يضعف قصده في أثناء الطريق. يسأل الله أن يقبل منه، ويمضي في الفعل الذي شرع له. قد يجد تعباً أو شاغلاً أو ثناءً يلفت قلبه؛ يعيد وجهته إلى من يعمل له، ويجاهد فيما يختاره. الحاجة إلى

118 السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تفسير سورة البقرة، الآية 127، في النص الإلكتروني للتفسير.

تصحيح القصد تستدعي افتقارًا حاصرًا، وتبقى معها مسؤولية العمل.

دعاء يصحب البناء

للمحتاج إلى القبول أسئلة عملية تقع أثناء الفعل. هل عرفت ما شرع في هذا العمل؟ هل أحفظ حقوق من يتصلون به؟ هل ظهر خطأ يمكنني تصحيحه قبل أن يمتد أثره؟ يبلغ الدعاء هذه المواضع بالاستعانة: يسأل أن يعان على الصدق والإتقان والأمانة، ويأخذ بما تعلمه. وكل معلوم نافع يتيح له إصلاحًا في وقته.

فمن علم احتاج إلى صدق ما ينقل، ومن أعان محتاجًا احتاج إلى حفظ كرامته وحقه، ومن تعاون في مشروع احتاج إلى أداء ما وعد به. يسأل القبول وهو يراجع كلامًا أو ينظم خدمة؛ فالفعل قائم، والافتقار يصحبه. وما يحتاج إلى تعلمه يأخذه من أهله، ثم يطبقه بحسب موضعه.

وقد يلتبس سؤال القبول بقلق يطلب ضمانًا. يريد العبد علمًا بما لم يكلف أن يحيط به، ويعيد مراجعة نفسه من غير معلومة جديدة. يفرق بين عمل إصلاح له سبب معلوم، وبين التفتيش الذي يستدعي احتمالًا بعد احتمال. الأول يقربه من أداء حقه، والثاني قد يستهلك وقت الخير الذي يستطيع فعله.

ويظهر هذا الفرق في عمل يطول ويتعاون فيه الناس. يبدأ صاحبه راجياً القبول، ثم يلاحظ أنه يطلب لنفسه كل ظهور أو يضيق بتصحيح زميل. يحمل ما عرفه إلى إصلاح حاضر: ينسب الجهد إلى أهله، ويسمع الملاحظة، ويؤدي مهمته بأمانة. يستطيع أن يسأل الله القبول وهو يغير هذا القرار نفسه.

هنا يصبح الدعاء عوناً على مجاهدة يمكن فهمها، وتبقى لكل شبهة حقيقتها التي تحتاج إلى علم. أما إنشاء موعد لازم لتجديد النية عند كل حركة، أو محاكمة كل خاطر مر به، فقد يزيد عليه ما لم يدل عليه المثال. يحفظ قصده، ويصح الاختيار الذي يعرفه، ويترك للسؤال مساحة الافتقار التي تصحب العمل.

ما تعرفه من صحة العمل

لصحة العبادة أحكام تتعلق بشروطها وأركانها وما يبطلها. إذا عرف خلافاً معتبراً، تعلم ما يلزمه وأداه. أما الخوف من نقص القبول فيحمله إلى الدعاء والافتقار، دون أن ينشئ منه وحده حكماً بطلان العبادة. يحفظ لكل باب طريق علمه؛ فيطمئن إلى أداء ما تبين، ويرجو فضل الله فيما خفي.

تصور قارئاً شارك في مشروع نافع ثم أثني عليه. يفرح بالخير الذي تحقق، ويشكر من أعانه، ويتعلم أحكام النية، ويجاهد ما يعرفه من اختياره. وإن علم قصداً يحتاج إلى تصحيح أو خطأ له أثر، عالجه. أما السرور العابر عند الثناء فليس وحده علماً بكل ما كان في قلبه أثناء العمل؛ فلا يمحو نفعاً تحقق بحكم لم يتبين له.

ويحفظ للمراجعة غايتها. ينظر إلى موافقة العمل لما شرع، وأداء الحقوق، والخطأ الذي يعرفه. إن انتهى النظر إلى فعل لازم، أخذ فيه؛ وإن بقي خوف مجرد، سأل القبول وعاد إلى واجب يومه. قد يحتاج إلى معونة في فهم الحكم، ويختار سؤالاً محدداً يبلغه، بدل إعادة وصف القلق من غير أن يضاف إليه بيان.

عمل لا يصل إليك خبره

ربما انتفع بصدقة أو تعليم من لم تعرفه، وربما لم يذكرك من أعنته. غياب الخبر يترك النفع الذي خفي عنك في موضعه، ولا يملك أن يحكم على الأجر. كذلك الشكر الذي يصل يسرك ويعرفك جانباً من الأثر، ويبقى القبول إلى الله. تعمل له وتحفظ حق الخلق، وترجو فضله في المعلوم والمستور.

وإذا رأيت نقصك، فتذكر أن تعلم العبادة ومجاهدة القصد يبلغان مع الاستمرار مواضع جديدة من الإصلاح. تؤدي الفريضة في وقتها بما تعلم من صفتها، وتتدرج في التطوع، وتسال عوناً على ما عجزت عن إحكامه. الخوف النافع يعرفك بحاجة، ثم يصحب رجاءك إلى العمل الذي تحتاج إليه.

ابدأ العمل المشروع، واجعل سؤال القبول حاضراً في قلبك وأنت تؤديه. فإذا ظهر خطأ، أصلحه؛ وإذا تم الفعل، احمده الله على توفيقه وواصل الافتقار إليه. الدعاء الذي صاحب رفع البناء يعلمك أن يبقى القلب سائلاً وهو يبذل، ثم ينتقل إلى الخير التالي من غير شهادة لنفسه ولا تعطيل لما أُعِين عليه.

الفصل الستون: رجاء اللقاء

قد يتذكر العبد لقاء الله فيشتد حرصه على العمل، ثم يرى من ضعف نفسه ما يضيق به: قوة قلّت، أو علم لم يبلغه، أو حق تعسر عليه إتمامه. يحتاج إلى أن يعرف موضع رجائه في هذه الحال. يقصد ربه، ويصدق في إرادة الطاعة، ويسأل عما يلزمه بحسب استطاعته، ويؤدي الممكن. يفتح له الاستعداد للقاء باباً للعمل في يومه الحاضر، ولو تغير مقدار ما يستطيع. قال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف:110]. جاءت خاتمة السورة بالعمل الصالح والإخلاص.¹¹⁹ يتصل ما يرجوه العبد عند ربه بما يختاره الآن؛ يتعلم وجه الصلاح في الفعل، ويحفظ قصده لله، ويسأله التوفيق إلى الاثنين.

والآخرة حاضرة في قرار القادر قبل أن يضعف جسده. يتذكرها الشاب عند خيانة يمكن إخفاؤها، والعامل عند اختيار الإتيان أو الغش، وصاحب الخصومة حين يملك كلمة تزيد الظلم. ما يرجوه بعد عمره يعينه على حفظ حق في أثائه. ثم

119 السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تفسير سورة الكهف، الآية 110، في النص الإلكتروني للتفسير.

إذا ضعفت القدرة، بقي هذا المقصد يحتاج إلى عمل يناسب الحال.

ما الذي بقي في قدرتك؟

قد يلتبس عليه أمران: عجز عن فعل بعينه، وترك لكل ما يتصل به. من ضعف عن إتمام عمل واسع ربما استطاع أداء جزء يلزمه، أو طلب معونة عليه، أو بيان حق يحتاج صاحبه إلى معرفته. يسأل عن تفصيل الحكم، وينظر إلى الواقع بصدق. يعرف العذر بقدره، ويعرف الممكن بقدره، ويحفظ إرادته من الاسترسال في وصف عام للعجز.

وصدق العزم يظهر كذلك في تعديل الوسيلة. كان يقدر على شأن وحده، ثم صار يحتاج إلى من يعينه. قد يشق عليه أن يبين حاجته، فيستعين برجائه على احتمالها. يستطيع أن يسأل علمًا جهله أو يطلب خدمة مشروعة ويشكر من أداها. العمل الصالح الذي يريد لا يتعلق بصورة واحدة عن قوته أمام الناس.

والنية التي يحملها إلى الله تحتاج إلى صدق في وصفها. يرجو ما يستطيع بذله، ويعزم عليه، ويطلب التوفيق إليه؛ فإذا تعذر بعضه، سأل عن واجبه في الحال الجديدة. أما تفاصيل ما يكتب له من ثواب، وأحكام الأعذار وصور أدائها،

فتعرف من أدلتها وتفصيلها. ينفعه الرجاء في حفظ العزم والافتقار، ويمضي مع العلم حيث تبين له الطريق.

وقد تزيد مشقة الضعف إذا بقي المرء يعد الناس بما كان يقدر عليه في حال أقوى. يصحح وصف قدرته، ويبين ما يستطيع الوفاء به، ويسأل عن أمانة سبق أن تحملها. بقاء العزم لا يقتضي إخفاء العذر، بل يعينه على طلب سبيل أمين لأداء الحق. فإذا وجد من يعاونه، عرف كل منهما حد عمله، وصارت المعونة طريقاً إلى مقصد حافظ عليه ولو تغيرت صورته.

الاستعداد في حق معلوم

تصور من تذكر حقاً قديماً لم يضبطه. يبدأ بوثيقة يبحث عنها أو تواصل أمين أو سؤال يبين ما يلزمه. قد يكون هذا العمل أثقل من حديث طويل عن الاستعداد، لكنه يصل إلى موضع يمكن إصلاحه. فإذا عجز عن جزء، فصل السبب وطلب عونه؛ ويبقى ما ثبت من الحق حاضراً في قصده وتدبيره.

وقد يحتاج الأمر إلى وقت، أو يكون بعضه مجهولاً. يحفظ ما علمه، ويطلب ما يحتاج إليه، ويتجنب بياناً واسعاً يضيع خصوصية غيره. رجاء اللقاء يقويه على أمانة البحث ورد ما ثبت، ويعطي خطوته الهادئة معنى يتصل بما يرجوه عند ربه.

ومصالح أهله الدنيوية تدخل في هذا الاستعداد حين يؤدي حقوقهم. يحفظ نفقتهم وتعليمهم وأماناتهم بحسب ما يلزمه، وينظم شؤونه، ويبين ما يجب بيانه. فإذا قلت قدرته، احتاج إلى ترتيب أوضح وتعاون يعرف فيه كل معين مهمته. يسأل عن الأحكام التي يحتاجها، ويعمل بما تبين؛ فحسن القصد يطلب طريقاً يحفظ حقوق من يرعاهم.

بقاء الحياة موضع رجاء

وقد سبق الحديث الذي ينهى عن تمنى الموت، ويذكر أن بقاء الحياة فرصة للمحسن أن يزداد وللمسيء أن يرجع.¹²⁰ يسأل العبد العافية والخير وحسن الخاتمة، ويعمر ما بقي بما يستطيع. رجاء لقاء الله يعينه على الصبر في مسؤولية وألم، ويصون معنى اللقاء من أن يتحول إلى هروب من شأن يحتاج إلى إصلاح.

وربما فاتته منفعة لأنه حفظ حلاله، أو فقد ثناء كان سيناله بكلمة كاذبة. يرجو ما عند الله، ويحفظ أمانته، ويدع ما لم يعلم من صورة العوض ووقته. يخف سلطان المقارنة العاجلة

120 البخاري، الصحيح، كتاب المرضى، باب تمنى المريض الموت، حديث أبي هريرة، رقم 5673.

حين يعرف أن مقصده يتجاوز ما يراه الناس من المكاسب في ساعة واحدة.

وتحتاج هذه المعرفة إلى علم ورحمة. يثبت ما ورد في الوحي، ويترك الصور المتخيلة عن الغيب، ويجعل الخوف والرجاء معينين على واجب معلوم. وحين يعين ضعيفًا على الاستعداد، يبين الممكن، ويحفظ للعزم منزلته، ويترك لصاحبه مساحة يطلب فيها العون.

اختر حقًا تحب أن تلقى الله وقد أصلحته. تعلم ما يلزمك، وأد خطوة تستطيعها اليوم، واطلب المعونة فيما زاد على قدرتك. يبقى دعاؤك جامعًا للعافية والثبات وحسن الخاتمة، ويبقى رجاء اللقاء حاضرًا في أمانة تؤديها وعزم تحفظه، وأنت تسأل الله تمام العمل والقبول.

الفصل الحادي والستون: رجاء الثبات

قد تستقيم للعبد أيام، فيألف ما يفعله من خير، ثم يتغير موضعه أو عمله أو صحبته، فيجد أن أشياء كانت يسيرة قد صارت تحتاج إلى عناية جديدة. يذكر نشاطه الأول ويستوحش من فتوره، وربما حمل تغير حاله على حكم واسع: ما عدت كما كنت. وهو محتاج إلى أن يعرف ما تغير فعلاً، وما يستطيع حفظه الآن، وإلى أن يسأل ربه دوام العون الذي ابتدأ به الطريق.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء». ثم قال رسول الله ﷺ: «اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك». رواه مسلم.¹²¹

نؤمن بهذا الخبر على الوجه اللائق بالله، من غير تمثيل ولا تكيف، ونتعلم الدعاء الذي جاء عقبه. فالعبد الذي وفق لطاعة يحتاج إلى ربه كي يبقى عليها، كما احتاج إليه عند بدايتها. وما عرفه من هداية عطاء يشكره، ويحمّله على الاستعانة في

121 مسلم، الصحيح، كتاب القدر، حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، رقم 2655.

بقية عمره. يزداد علمه بحاجته كلما اتسعت معرفته بما يريده من نفسه وبما يعرض لها.

وفي سؤال تصريف القلب على الطاعة طلب له جهة معلومة. تريد صلاحًا، وتسال من بيده قلبك أن يعينك عليه، ثم تعمل بما علمت من أسبابه. أما الاستراحة إلى ماضٍ صالح كأنه يضمن المستقبل، فتعرض صاحبه لإهمال ما يحتاج إلى رعاية. ومن رأى قلبه فترك العمل، فقد جعل حاجته إلى العون حجة على إعراضه عنه. خبر التصريف يفتح باب الافتقار، وتبقى إرادة العبد ومسؤوليته فيما كلف به حاضرتين في سعيه.

وربما بالغ في التزامه حين نشط، فجمع أعمالًا تتجاوز ما يتسع له يومه، ثم ضعف عن بعضها. يفيد أنه يراجع مقدار ما اختاره، وأن يحفظ الواجب، وأن يجعل للتطوع ترتيبًا يحتمله. فاستئناف العمل يحتاج إلى فهم سبب انقطاعه؛ إذا كان التنظيم هو موضع الخل، كانت إعادة التنظيم جزءًا من الإصلاح. ويسأل الله في هذا التدبير أن يعينه على الصدق، دون أن يجعل كبر خطته دليلاً على ثباته.

طاعة يبقى طريقها مفتوحًا

انتقل قارئ إلى بيئة جديدة، فتغير وقت نومه وتنظيم يومه، وضعف بعض ما كان يحفظه من تطوع وعلم. إذا جعل رجوع

كل عاداته شرطًا لبداية الإصلاح، طال انتظاره. يعرف أولاً ما يلزمه من فرائض وحقوق، ويحفظ له موضعًا، ثم ينظر فيما يتسع له وقته من التطوع. ربما وجد وقتًا آخر للقراءة، أو احتاج إلى تقليل شاغل، أو انتفع بصحبة تعينه في مكانه الجديد. يأخذ من الماضي خبرة نافعة، ويدبر للحاضر على قدر حاله.

وقد ينقص النشاط مع بقاء إرادة الخير. هنا يفيد التفريق بين أمر يحتاج إلى توبة، وحكم يحتاج إلى تعلم، وعادة تحتاج إلى ترتيب، وتعب يحتاج إلى راحة مباحة. لكل منها طريق يناسبه؛ فاللوم العام يجمعها في شعور ثقيل ثم يترك مواضع الإصلاح غامضة. والمريض والعاجز يسألان عما يلزمهما وما يسعهما، ويعملان بحسب قدرتهما. معرفة العذر تحفظ حق الحال، كما أن معرفة التفريط تدعو إلى تداركه؛ وتحتاج كل واحدة إلى صدق وبيان.

ومن البصيرة أن تعرف السبب الذي يتكرر عنده ضعفك. قد يفتح فراغ غير منظم بابًا إلى عادة تندم عليها، أو تعرض صحبة عليك خطأ اعتدت موافقتها فيه. حين يتبين لك هذا، يبلغ رجاءك ذلك الموضوع: تسأل الثبات، وتغير من السبب ما تقدر عليه. وربما احتجت إلى معونة كي تدرك ما غاب عنك أو

كي تهیی البديل. انتفاعك بهذه المعرفة عمل حاضر، وتبقى حاجتك إلى الله قائمة فيما لم تحط به من مستقبلك. والثبات مطلوب تسأل الله أن يديمه، وقد تعرض في طريقك عثرة تحتاج إلى توبة. يوم وقع فيه التقصير لا يمحو كل ما سبق من مجاهدة، ولا يعفيك ذلك السابق من إصلاح ما وقع. تعرف الأمرين معًا، فتشكر ما وفقك الله إليه، وترجع من خطئك، وتحفظ الأسباب التي كانت تعينك. وربما ظهر من معرفة سبب العثرة ما يزيد بصرك بما تحتاج إلى رعايته في الأيام التالية.

ولهذا أثر فيمن تعينه على الاستقامة. فقد يألّف الرجوع إليك في كل مسألة، ويضعف إن غبت عنه. تعطيه من العلم ما يعرف به وجه عمله، وتدله على جهة السؤال عند الجهل، وتصله بالأصول التي ينتفع بها في وجودك وغيابك. تقرب منه بقدر ما يحتاج، وتترك له مسؤوليته واختياره. محبتك لصلاحه تحملك على أن يكون لما تعلمه منك نفع يبقى معه. وحين تعيد ترتيب ساعتك أو صحبتك أو عملك، يبقى الدعاء النبوي في موضعه من قلبك. تعرف الوقت الذي يتكرر فيه ضعفك، فتصلح ما تقدر عليه من سببه، وتسال مصرف القلوب أن يصرف قلبك على طاعته. وما حفظته اليوم عطاء شكره، وما ترجوه غداً عون تسأله؛ فتظل حاجتك إلى ربك حاضرة في حال نشاطك كما كانت حاضرة في حال ضعفك.

الفصل الثاني والستون: رجاء الدنيا المشروع

للقلب حاجات يسأل الله قضاءها: رزق يستعين به، وعافية يحفظ معها قدرته، وسكن يطمئن فيه، وزواج يرجو خيره، وعمل ينفعه وينفع غيره. يدخل بهذه الحاجات في الدعاء وهو يعرف فقره إلى فضل ربه. وقد مضى دعاء حسنة الدنيا والآخرة، وفيه سعة تجمع مصالح الدارين. تظهر التربية في طريق الطلب: كيف يسعى إليه، وأي حق يصحبه، وماذا يفعل حين يزاحم مطلوبه أمراً يلزمه؟¹²²

قد يكون المطلوب مباحاً، ثم يدخل الخلل من وسيلته. يريد مالاً، فيغش من يتعامل معه؛ أو يريد نجاحاً، فينسب إلى نفسه جهد غيره. وربما طال انتظاره، فأخذ شدة حاجته دليلاً على جواز ما كان يعرف خطأه. لكن حاجته تبين موضع افتقاره وسبب اجتهاده، ويبقى للطريق الذي يختاره حكمه. حين يسأل الله الخير، يحتاج إلى أن ينظر في فعله الذي يرجو به الوصول: هل يوافق ذلك الخير، وهل يحفظ لمن معه حقه؟

122 السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تفسير سورة البقرة، الآية 201، في النص الإلكتروني للتفسير.

وأنت تسأل مستقبلاً تتمناه، احفظ الفرق بين الرجاء والخبر عنه. ترغب في تيسير الله، وتأخذ بسبب نافع، أما الجزم بأن مطلوباً معيناً سيقع لك في وقت رسمته، فيحتاج إلى علم لا تملكه. وكذلك حين تواسي صاحب حاجة، افتح له باب الدعاء والمعونة، وكن صادقاً في حدود ما تعلمه. الرجاء يستند إلى فضل الله، والوعد الخاص بحدث مقبل دعوى أخرى قد تزيد الألم حين يتخلف ما علقه السامع بها.

حاجة تحفظ فيها حق غيرك

يرغب شخص في الارتباط بآخر، ويسلك الطريق المشروع، ثم يتأخر الجواب أو تأتية الموافقة على خلاف ما تمنى. قد تتسع رغبته في نفسه حتى يظن أن الطرف الآخر مسؤول عن كل ما يجد من ألم. هنا يحتاج إلى علم يرد الحاجة إلى حدها: له أن يطلب ويسأل الله، وللآخر حق الاختيار. شدة تعلقه تحتاج إلى رفق في معاملتها، وتحتاج كذلك إلى ضبط ما يصدر عنه. الملاحقة والإحراج وكشف الخصوصية تزيد الأذى، وتدخل على طلب مباح ما يفسد طريقه.

إذا لم تحصل الموافقة، بقي له أن يدعو بالخير وأن يستعين على حمل خيبته، وأن يراجع ما يساعده في يومه. قد يحتاج إلى حديث مع من يحسن نصحه، أو إلى قطع وسيلة تعيد

عليه التعلق في كل ساعة. يعطي الحزن قدره، ويحفظ حق من لم يختار ما اختاره. وهذه معرفة ينتفع بها في مطالب أخرى؛ فحصول المطلوب قد يتصل بإرادة إنسان له حاجاته وحدوده، وليس مجرد خطوة في خطة رسمها الطالب. وبعض الرغبات يتسع حين يقارن المرء حاله بأحوال الناس. يرى سكناً أو منصباً، فيجعل ما شاهده حداً أدنى لصالح حياته، ثم يحمل نفسه التزامات يجهل مآلها. يفيد أنه يرد النظر إلى حاجته وقدرته وحقوق من يعول. ما الذي يرفع ضيقاً حاضراً؟ وما الذي يزيد توسعاً يمكن تأخيرته؟ وما كلفة الوسيلة في ماله ووقته ومسؤوليته؟ بهذه الأسئلة يصير المطلوب أوضح، وتظهر المعلومات التي يحتاج إليها قبل خطوة كبيرة.

وربما رأيت أن تعديل الصورة انتقاص مما دعوت به، فيثقل عليك اختيار ما يناسبك الآن. لكنك حين سألت كنت تريد خيراً، وقد ظهرت لك من أحوال الطريق معرفة لم تكن عندك. تنظر في ضوئها، وتحفظ حق من تعلقت بهم مسؤوليتك، ثم تختار. يبقى طلب الخير واسعاً مع تغير وسيلته، وتبقى الرغبة صادقة ولو تركت صورة أثبتت الوقائع أن كلفتها تتجاوز قدرتك.

وتأتي المشورة في هذا الموضع لتعين على معرفة الواقع. تستشير من يفهم الشأن الذي تقبل عليه، وتبين له ما يؤثر في الجواب، ثم تتخذ قرارك على بصيرة. قد يكشف السؤال عن وسيلة أصلح، أو عن خطر يحتاج إلى علاج، أو عن وقت أنسب للسعي. وما تعلمته يعينك في الدعاء أيضًا؛ تعرف حاجتك أكثر، وتسأل الخير مع استعداد لتصحيح ما بان لك خلله.

وقد يكون رجاؤك في دوام نعمة وصلت إليك. تسأل حفظ العافية وصلاح الأسرة وبقاء الخير، وتراعي أسبابه المشروعة. فإذا أرهقك خوف الفقر، انظر في العمل الذي ينفع حفظها فعلًا، وفي الاحتمال الذي يستهلك وقتك دون أن يزيد قدرتك على رعايتها. وكذلك يبقى لمن حولك حقه؛ فلا يصبح الخوف من مزاحمتهم سببًا لظلمهم أو تضيق ما يسعهم.

وإن تأخر المطلوب، بقي في يومك باب للعبادة وأداء الحقوق. تستطيع أن تحب حصوله وأن تتألم لفواته، وأن تسأل الله إياه، دون أن تعلق طاعتك بتحقيقه. فالنعمة التي اخترتها بعض ما تريد، وربك أعلم بما غاب عنك. تحمل إليه طلبك وحاجتك، وتبقي ما علمت وجوبه في موضع العمل، وتدع تفاصيل العقبة التي تجهلها في موضع السؤال والافتقار. وهكذا يصحب المطلوب الدنيوي سؤال آخر: كيف أطلبه وأحفظ ما علي؟ قد تجد جوابه في حق تؤديه، أو معلومة تتعلمها، أو وسيلة تعدلها. وعند كل اختيار تحتاج إلى فضل الله كما تحتاج إليه عند حصول النتيجة؛ تسأله خيرًا يبارك لك في سعيك، ويعينك على حق ما يعطيك.

الفصل الثالث والستون: رجاء الله لا مجرد العطية

كان الدعاء حاضرًا في أيام الحاجة، ثم جاء ما يرجوه العبد: اتسع رزقه، أو حصل على عمل، أو انتقل إلى سكن. وبدأت النعمة تشغل وقته بتدبيرها. هنا يفتح له العطاء بابًا آخر: أن يعرف حق ما وصل إليه، وأن يحمل حاجته إلى ربه معه في الرخاء. فالذي سأله رفع الضيق يحتاج إلى عون على حسن الانتفاع بالسعة، وعلى حفظ القلب حين يصير ما اشتاق إليه بعض ما يألّفه.

ويذكر القرآن أن بعض الناس يجأرون إلى الله حين يمسه الضر، ثم يقع منهم الجحود والشرك بعد كشفه. نتعلم من هذا السياق حفظ التوحيد والشكر في الحالين. المعرفة التي حملته إلى الدعاء وقت الضر يصحبها في العافية عمل يرد الفضل إلى الله، ويحفظ الصلة به فيما أعطاه.¹²³

123 السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تفسير سورة النحل، الآيتين 53-54؛ والتعليق عليهما معًا في موضع تفسير الآية 54 من النص الإلكتروني.

وقد يلتبس هذا المعنى على من يسمع أن العبد يريد ربه، فيظن أن رجاء الثواب دون المحبة، أو أن سؤال الجنة يضعف صدقها. تقدم رد ابن القيم على تضعيف منزلة الرجاء، وبيان ابن تيمية أن طالب وجه الله والنظر إليه راج خائف. فالمحبة والخوف والرجاء تجتمع في العبادة، وعلو المطلوب يبين سعة ما يرجوه العبد من فضل ربه. يحب ربه، ويرجو رضوانه وثوابه، ويخاف ما يبعده عنه؛ وتعين هذه المعاني قلبه على القصد والطاعة.^{124، 125}

يظهر الفرق في صلته بالله حين تتغير حاجته. فإذا سأل الجنة، بقي مفتقرًا إلى الرحمة والقبول، وعمل بما علم من طريق الخير. وإذا جاءه رزق، حمد المنعم، وحفظ الصلاة والأمانة. المشكلة في أن يحصر صلته بالله في قضاء حاجة بعينها، ثم يسقط من نظره ما بعدها من عبودية ومسؤولية. وما رجاه من ثواب الآخرة خير يسأله ويعمل له، وهو من فضل الله الذي يظل محتاجًا إليه.

124 ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين في منازل السائرين، ج 2، تحقيق نبيل بن نصر السندي، دار عطاءات العلم ودار ابن حزم، ط1441هـ/2019م، ص 259-265 و 267-271 و 280-284؛ التعريف والأنواع في ص 260. والاعتراض على قوة منزلة الرجاء من كلام الهروي الذي يناقشه ابن القيم، وليس خلاصة مذهب ابن القيم.

125 ابن تيمية، مجموع الفتاوى، جمع عبد الرحمن بن محمد بن قاسم وابنه محمد، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، 1425هـ/2004م، ج10، ص240-243.

وقد يخاف أن يزول ما أعطي، فيشتد تعلقه بتفاصيله. يحمل هذا الخوف إلى رعاية ما ينفع النعمة، ويسأل الله حفظها، ويستبقي للعبادة والحقوق موضعها. بقاء الخير الذي يرجوه يحتاج إلى عون ربه، كما احتاج حصوله؛ وما يعملُه الآن شكر وسعي، وتفصيل الغد مما لا يحيط به. يظل قلبه راجيًا وهو يحمد، ويظل محتاجًا وهو يملك، ويحفظ للمحبة والخوف والرجاء أثرها في أيام السعة كما حفظه في أيام الطلب.

ماذا بقي من دعائك؟

دعا شخص أن ييسر له عملاً، فلما حصل عليه وجد الأوقات أشد ازدحامًا مما توقع. صار يقول إنه سيعود إلى عبادته حين يستقر تنظيمه، ثم استمر الازدحام. يحتاج هنا إلى أن يحمل معرفة الشكر إلى تفاصيل يومه: يحفظ لما فرض عليه موضعه، ويؤدي أمانة العمل، ويراعي حقوق من يعاملهم. الرزق الجديد يزيد قدرته في أشياء، ويأتي بمسؤولية في أشياء أخرى؛ ويسأل الله العون على كل منها.

ومن شكر العطية أن يعرف ما جاءت به من مسؤولية. قد يزيد المنصب ما يحتاج إليه من تعلم وعدل، ويحتاج البيت إلى نفقة وتنظيم. وجود هذه المشقة يبين بعض مقتضيات النعمة، وقد يكون علاجها معرفة أو تدبيرًا أحسن. يقف عن

الحكم بأن دعاءه أضر به لمجرد أن الواقع كان أوسع مما تخيل؛ ويتعلم ما يلزمه في حاله الجديدة، ويطلب المعونة فيما يشق عليه.

حين تأتي العطية، قد تجد أن وقت الدعاء صار أثقل عليك بعد أن كنت تلتسمه بصدق في ضيقك. راجع ما تغير في يومك: هل ازدحم الوقت، أم غلب عليك تدبير الجديد، أم انقطع سبب كان يذكرك؟ تعيد للعبادة موضعها، وتجعل ما فتحته النعمة من قدرة معينًا عليها. فالعبد الذي سأل الخروج من الضيق يستطيع أن يسأل في السعة حسن الانتفاع، والثبات، والقبول.

والشكر يبتدئ بمعرفة فضل الله، ويظهر في استعمال ما وهب على وجه صحيح. وربما صار أداء حق مؤجل ممكنًا بعد السعة، أو أمكنه أن يعين محتاجًا بما لم يكن يملكه من قبل. يسأل نفسه عن هذه القدرة الجديدة، ويعطيها أثرًا في العمل. كما يحفظ قلبه من جعل العطاء شهادة بأنه أفضل ممن لم يعط مثله؛ فلكل إنسان حال ومسؤولية، والقبول يسأل الله ولا يثبت بهذه المقارنة.

وإن لم تأت العطية التي اختارها، بقيت الصلة بالله قائمة بما يعرف من رحمته وعلمه وحكمته. يستطيع أن يحزن وأن يجدد طلبه، وأن يعمل في سبب مباح، وأن يسأل عما جهل. وما يخفى عليه من تفاصيل المنع يبقى غيبًا عنه؛ فلا يملأه بتفسير يجزم به، ثم يبني عليه حكمًا على نفسه أو على غيره. تدله حاجته إلى العطاء على افتقاره، وتدله معرفته بربه على باب الدعاء والعمل مهما تغيرت الصورة.

قد مضى على نعمة رجوتها وقت، وصارت اليوم بعض ما تألفه. تذكر حاجتك قبل مجيئها، وانظر ما فتحت لك من قدرة على الخير. حمد تجددته، أو حق صار أداؤه ممكنًا، أو استعمال تصححه: في هذه المواضع تمتد صلتك بالمنعم، ويعود ما اعتدته من عطاء إلى قلبك بمعرفة وشكر.

الفصل الرابع والستون: بالله وحده

قد يضيق سبب كان الإنسان يرجو منه النفع، فيرى أن ما وراءه قد ضاق كذلك. ينتظر جواب شخص، ثم يستثقل أيامه كلها بتأخره؛ وربما رضي بطلب يعلم حرمة خشية أن يفقد معونته. في هذا الموضع يظهر أثر معرفة حدود المخلوق: ما يملكه سبب محدود، وحاجة العبد إلى الله أوسع من ذلك السبب. يطلب من ربه الخير، ويحفظ ما عليه من حق، ويبحث عما يستطيع مباشرته من طريق مباح.

حين يقول المؤمن إنه يرجو الله وحده، يفرد ربه برجاء العبادة والافتقار إليه فيما لا يملكه إلا هو. يسأله المغفرة والهداية والرحمة، ويعلم أن الأسباب تحت مشيئته، وأن المخلوق محتاج إليه. وهذه المعرفة تصحب تعاون العبد مع الناس؛ تسأله عند حاجتك إلى سبب، وتستعين بمن يقدر على المعونة، ويبقى القلب عابداً لله، مفتقراً إلى فضله في السبب وفيما يعجز عنه.

ويحتاج هذا المعنى إلى تمييز الاستعمال اللغوي من حقيقة العبادة. يقول الناس «أرجو» وهم يتوقعون خبراً أو نفعاً معتاداً من إنسان، وربما تعلق اللفظ بخبر مضى لم يعلموه بعد. النظر في حقيقة الطلب والتعلق يبين المراد، ومجرد اللفظ لا يحمل كل هذه الأحوال على حكم واحد. وقد مضى الفرق بين الرجاء العبادي وبين التعاون والاستعانة المباحين بال مخلوق.¹²⁶

ومن هنا يظهر أيضاً الفرق بين التفاؤل ورجاء الله. قد يرى الإنسان أمارات تبعته على توقع نتيجة حسنة، أو يكون معتاداً النظر إلى الممكن من العمل. هذا نظر في الحال والتوقع، أما رجاء العبادة فمتعلق بمعرفته بربه وافتقاره إليه. قد يضعف توقعه لنجاح وسيلة معينة، ويبقى رجاؤه بالله حاضراً في دعائه وسعيه. وقد يشتد تفاؤله بسبب دنيوي، فيحتاج مع ذلك إلى أن يحفظ حدود الطلب والطاعة. وقد يستحي من طلب العون، فيغطي حياءه بعبارة الاستغناء عن الناس. يحتاج إلى أن يعرف حاجته بصدق: إن كان ما يطلبه معونة مباحة ممن يقدر عليها، أمكنه سؤالها بأدب، مع

126 خالد بن عثمان السبت، أعمال القلوب، دار ابن الجوزي، ط1438هـ/2017م، ج 2، قسم الرجاء، ص 53-116؛ وللتصنيف والدرجات ص 97-99، ولأسباب تنمية الرجاء ص 100-105، ولثمراته ص 106-112.

حفظ حق المسؤول في الجواب. وإن كان الذي يخشاه تبعة التزام يتجاوز قدرته، بين حد ما يستطيع. بذلك يكون أصدق في حاجته وأوضح في معاملته؛ فمعرفة التوحيد تعينه على ضبط التعلق، وتعينه كذلك على استعمال السبب المشروع في موضعه، دون أن يمنح المعين قدرة مطلقة أو يعد كل سؤال ضعفاً ينبغي ستره.

حد القدرة وحد التعلق

تسأل المعلم أن يشرح لك، وتسأل من بيده حقك أن يؤديه، وتشكر من أحسن إليك. تعترف بما قدمه من نفع، وتفي بما التزمت له. هذه حقوق تحفظها المعرفة الصحيحة؛ فالمحسن له معروف تشكره عليه، والله هو الذي تعبده وتسأله فضلاً لا يستقل به مخلوق. تستطيع أن ترى اليد التي أعانتك وأن تعرف حد قدرتها، وأن تبقى صادقاً في حاجتك إلى ربك.

ربط باحث عن عمل أمله كله بمسؤول واحد، حتى صار يقبل منه طلباً محرماً خشية أن تضيق فرصته. ربما كانت للمسؤول قدرة على بعض إجراءات العمل، لكنه حين تجاوز إلى المحرم خرج طلبه عن الحد الذي تجوز فيه طاعته. يحتاج الباحث إلى أن يفصل حاجته إلى الرزق عن هذه المعصية، فيتركها، ويطلب المشروع، ويسعى في الأبواب التي تسعه. وشدة

ضيقة تزيد حاجته إلى الدعاء والمشورة والمعونة، وتبقى حقوق الله والناس حاضرة في سعيه.

تعذر المساعدة قد يكشف لك مقداراً من انتظارك لم تصرح به. ظننت أنك تطلب فعلاً معلوماً، ثم وجدت أنك علقت على صاحبه مستقبل الأمر كله. ارجع إلى الطلب الأول: ما الذي وعد به فعلاً، وما الذي كنت تتمناه أنت؟ تحمل هذا الفرق إلى معاملته، فيسهل الإنصاف، وإلى سعيك، فيظهر سبب تستطيع مباشرته دون انتظار جوابه.

وإذا كان لك عنده حق، بقي لك طلبه بالطريق المشروع. أما إذا كان الأمر معونة تبرع بها ولم يلتزمها، فتعطي لحد قدرته واختياره موضعهما. هذه المعرفة تمنع أن يتحول الانتظار إلى دعوى حق لم يثبت، أو أن يمحو خذلانك ما سبق من إحسان. قد يحزن الإنسان لفوات نفع أحبه، ثم يظل قادراً على العدل في وصف من تعذر عليه إعطاؤه.

وفي الحديث عن توحيد الرجاء يلزم علم يحفظ من التسرع في الحكم على الناس. قد يقصد المتكلم أمرًا مباحًا بعبارة مجملة، أو يحتاج إلى بيان لمعنى لم يفهمه. تسأل عن مراده، وتشرح الفرق، وتبين الخطأ إذا ظهر، وتقف عند حد ما علمت. اللفظ المحتمل يحتاج إلى فهم، والحكم على دين شخص أمر يتجاوز مجرد التقاط كلمة من حديثه.

قد يملك إنسان جوابًا تحتاجه، ويملك آخر معونة ترجوها، ويبقى كلاهما محتاجًا مثلك. تعرف ما تقدر أن تطلبه منهما، وتحفظ لهما حقهما، وتستأنف سببًا ممكنًا إذا تعذر طريقهما. ويظل قلبك يسأل الله أن ينفعه بما بذل، وأن يهديه إلى ما جهل؛ فمنه الخير الذي ترجوه، وإليه ترجع حاجتك في كل سبب.

الباب التاسع: ثمار الرجاء والثبات

بعد معرفة المعنى، ننظر في أثره الذي يبقى مع القارئ: كيف يطلب الخير، ويصلح الخطأ، ويستقبل يومه، ويعين غيره. وفي آخر الطريق تدريب يراجع به أفعالاً ظاهرة بحسب ما يعلم ويقدر.

الفصل الخامس والستون: نشاط الطاعة

طال انقطاع قارئ عن تعلم مسألة يحتاج إليها في عبادته. كان كلما هم بالسؤال استحيا من جهل ظن أنه كان ينبغي أن يزول منذ سنوات. صار يحفظ صورته بإخفاء حاجته، وبقي العمل الذي يحتاج إلى هذا العلم على حاله. يعينه الرجاء على أن يرى موضع الإصلاح: ما فاته يعرفه به السؤال والتعلم، وما يجهله الآن يستطيع أن يطلب بيانه. يبدأ بما يحتاج إليه، ويحمل ما يرجوه من خير إلى فعل ينفعه.

هذه الحركة بعض ثمرة الرجاء في النفس. ربما كانت تعرف الخير، ثم تؤخره بحكم تصدره على صاحبها: لن يحسن، ولن يستمر، وقد ضاع من عمره ما يجعل البداية قليلة الجدوى. حين يستند إلى فضل الله تتغير جهة نظره؛ فهو يجهل تفاصيل عاقبته، لكنه يعرف عملاً مشروعاً يستطيع البدء به. يطلب العون، ويتعلم ما يتوقف عليه الفعل، ويعطي معرفته أثراً في يومه.

والبداية قد يصحبها سرور، وقد تقع مع مشقة وتردد. تعرف أثر الرجاء في الصلة بين العلم والعمل: واجب كان حاضراً في ذهنك، ثم صرت تتحرى سبيل أدائه؛ أو جهل كنت تستره، فطلبت من يبينه لك. مقدار الحماس وحده يصف شعوراً قد

يتغير، أما الفعل فيكشف موضعًا انتفعت فيه بما عرفت. وربما كان هذا الموضع هادئًا لا يراه غيرك، وتظل حاجتك إلى الله قائمة فيه.

وربما وجد بعد السؤال أنه يعرف الحكم، لكنه يجهل طريقة أداء الحق في واقعة تخصه. هنا يضيق سؤاله ليلبلغ موضع الحاجة: ما الذي ينبغي إبلاغه؟ وكيف يؤدي ما عنده دون زيادة أذى؟ يطلب هذا البيان، ثم يمضي فيما اتضح. كل سؤال يكشف جهلاً مؤثرًا يعينه، أما إعادة المعلوم فرارًا من الخطوة فقد عرف موضع علاجها.

حين تبلغ المعرفة إلى الفعل

يختار القارئ من يثق بعلمه، ويسأله في المسألة التي يحتاج إليها، ويعمل بما تعلم. بعد السؤال يكتشف أن الحرج الذي خافه لم يمنعه من فهم الجواب ولا من الانتفاع به. كان ينتظر أن يصبح السؤال سهلًا في نفسه، فوجد أن أدائه مع بعض المشقة فتح له ما كان يريد. يحمل هذه الخبرة إلى حاجة قريبة أخرى؛ يتعلم مقدار ما يلزمه، ويبدأ، دون أن يجعل صفاء الشعور شرطًا في كل خطوة. أما ما بقي غامض الحكم أو مؤثر العاقبة، فطريقه البيان قبل الفعل.

وهذه الحركة نافعة في الحقوق أيضًا. قد يطيل التفكير في رد أمانة، لأنه يخشى سؤال صاحبها عن سبب التأخر. يعرف أن بقاءها عنده يمد التقصير، وأن أدائها يحتاج إلى تحمل بعض ما يخشاه. يتحرى الطريق الصحيح، ويعطي صاحب الحق ما له. ربما بقي الحرج بعد الأداء، لكن الواجب خرج من موضع التردد إلى موضع العمل. هنا يعينه الرجاء على الصدق، دون أن يجعل راحة نفسه شرطًا لحق غيره.

وتظهر الثمرة كذلك حين يتعثر. كان إذا فاته تطوع ترك بقيته، وإذا أخطأ في خطوة هدم ما بدأه كله. ثم صار يعرف السبب ويستأنف الممكن. وقد سبق حديث المداومة وبيان تنظيم العمل في الفصل السادس والأربعين. والمقصود هنا أثر الرجاء في استقبال الانقطاع: ينظر فيما وقع ليصلحه، ويستبقي للخير الذي يستطيع أدائه مكانه، ويسأل العون على العودة.¹²⁷

وقد يتطلع إلى نصر أو نجاح في عمل نافع، فيسأل الله ويتحرى أسبابه. في هذا التطلع تبقى حقوق من يعاملهم حاضرة؛ فالغاية التي يحبها تحتاج إلى وسيلة مشروعة، وإلى

127 البخاري، الصحيح، كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل، حديث عائشة، رقم 6465.

صدق وعدل في أدائها. وربما أبطأت المعالجة المنصفة ما كان يرجو تعجيله، فيحتاج إلى صبر يحفظ طريقه. النشاط الذي يعينه على الطاعة يشمل الوقوف عن تعدّ متاح، كما يشمل المبادرة إلى فعل؛ ويظل المطلوب المقبل رجاء يسأله، دون ضمان نتيجة بعينها.

ومن أثره قصر المسافة بين معرفة الواجب وأدائه. يجمع ما يحتاج إليه من علم، ثم يقرر، بدل أن يعيد السؤال نفسه انتظارًا لشعور يعفيه من المشقة. يميز التآني الذي يتعلم فيه أو يحمي به حقًا، من تأجيل عرف أن علته خوف الحرج فقط. فإن كان المرض أو العجز مؤثرًا في قدرته، طلب بيان ما يلزمه بحسب حاله، واستعان بما يقدر عليه؛ فالدعوة إلى المبادرة تحمل على عمل معلوم مقدور.

وحين يراجع ما تغير، يستطيع وصفه بصدق: سأل عما كان يجهله، أو بادر إلى ما كان يؤجله، أو كف عن خيانة كانت متاحة. يحمد الله على ما أعانه عليه، ويسأله القبول. أما الحكم بكمال منزلة قلبه، فليس مما يملكه بهذا الوصف. فرحه بالتوفيق يدعوه إلى الشكر، ومعرفته بالتقصير تدعوه إلى الإصلاح، ويظل مفتقراً في الحالين.

وهذا هو الموضع الذي يضيق فيه البعد بين ما تعلم وما تعمل: سؤال تبلغه إلى من يجيب، أو أمانة تشرع في ردها، أو خطأ تكف عنه. إن بدأ فعل كنت تؤجله، فاحمد الله على عونه. وقد بقيت حاجتك إلى التوفيق بعد البداية؛ فاسأله حسن تمامها، وأعط الخطوة التالية ما تحتاج إليه من علم وصدق.

الفصل السادس والستون: حسن الظن

لم تتم شراكة كان شخص يرجوها، فعاد إلى نفسه بعبارة أشد من خسارته: لو كان لي عند الله خير لما وقع هذا. عرف واقعة، ثم أضاف إليها حكمًا على منزلته لا يعلمه. هنا يحتاج القلب إلى أن يرد الألم إلى موضعه، وأن يستند إلى ما يعرفه عن ربه من علم ورحمة وعدل وحكمة. حاجته إلى تفسير ما وقع لا تمنحه علمًا بكل ما وراءه، ومعرفته بكمال الله تبقى أصلًا يتعبد به حين يجهل التفصيل.

وقد مر حديث «أنا عند ظن عبدي بي» في سياق الذكر والتقرب. يظهر أثره هنا في استقبال ما يلتبس على العبد: يبقى على عبادته، ويرجو الخير، ويقف عن اتخاذ خيبة خطة بعينها خبرًا بأن الله تخلص عنه. يحمل حاجته إلى الدعاء، ويعمل فيما يقدر عليه، ويطلب العلم فيما جهل، ويسأل ربه العون على احتمال ما شق عليه.¹²⁸

وربما أراد مواساته من يقول له إن هذه الشراكة منعت لياأتيه بعدها مشروع أعظم. قد تريحه العبارة ساعة، لكنه يعلق قلبه بمستقبل جزم له به صاحبه دون علم. حسن الظن بالله يقوم

128 البخاري، الصحيح، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: «وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ»، حديث أبي هريرة، رقم 7405.

على أصل ثابت، أما تعيين العطية المقبلة وسبب المنع وموعد الفرج، فدعوى تحتاج إلى دليل. يستطيع الناصح أن يعينه على الدعاء والعمل، وأن يفتح له ما يعرفه من أسباب مباحة، ويترك ما يجهله في موضع الرجاء.

وقد يحمل لك غيرك ملاحظة تكشف جانبًا من تقصيرك، فيثقل قبولها وأنت تتألم من الخيبة. تنظر في حجتها وما تصفه من فعل، وتفصلها عن العبارة العامة التي حكمت بها على نفسك. إذا صحت الملاحظة، أعانتك على إصلاح محدد؛ وإذا غمضت طلبت بيانها. يبقى رجاؤك حاضرًا وأنت تتعلم من التصحيح، دون أن يصبح كل نقد خبرًا بانغلاق الطريق.

ثقة ثابتة ومعرفة تحتاج إلى زيادة

ينظر صاحب الشراكة فيما وقع فعلاً: هل كانت المعلومات كافية؟ هل التزم ما يستطيع؟ هل حفظ حقوق من تعامل معهم؟ إن ظهر خلل أصلحه، وإن تعذر عليه فهم بعض ما وقع طلب البيان. ربما ظهر له بعد ذلك وجه نفع في عدم إتمامها، وربما بقي يجهل العاقبة. طاعته وصدقه وسعيه المشروع أمور يعرف سبيلها الآن؛ يستطيع القيام بها مع هذا الجهل، ويظل يسأل الخير فيما غاب عنه.

وربما كانت أشد عبارة تقولها عن حالك وصفًا لألم الساعة، فتخرج منك واسعة، ثم تعاملها فيما بعد كأنها حقيقة استقرت. حين تقول إن كل سعي ضاع، عد إلى ما تعلمته فعلاً، وما أدى عملك من حق، وما بقي قابلاً للإصلاح. لا تحتاج إلى تهوين الخسارة لتضبط العبارة، وإنما تعطي الألم اسمه، وتحفظ لسائر ما تعلمه مكانه. بهذا يستند الرجاء إلى معرفة أصدق، دون أن يُطلب منك فرح لم تجده.

وحسن الظن يصحب الشكوى الصادقة. ترفع إلى الله حاجتك، وتسأله رفع الضر، وتصف ما شق عليك، وتطلب من الناس العون المباح. الحزن له أثره في النفس، وقد يحتاج صاحبه إلى صحبة أو رعاية تناسب حاله. معرفة رحمة الله تعينه في ذلك كله، ويقف الناصح عن جعل ألم شخص حكماً على باطنه. ما يلزم من عمل يعرف بحسب القدرة والحال، وما يحتاج إلى رعاية يعان عليه بما يناسبه.

أما الوسيلة التي ظهر ضعفها، فتحتاج إلى نقد وإصلاح. قد يقصر إعدادك لأمر، ثم تفسر المراجعة بأنها تنافي التسليم للقدر. لكن ما وقع قد وقع، وأنت الآن تعرف نقصاً تستطيع علاجه في سعيك المقبل. تعلم ما فات، وغيّر ما بان خلله، واحفظ ما علمت نفعه. المعرفة بالقدر تصحب مسؤوليتك في الاختيار، ويبقى سؤال التوفيق حاضراً وأنت تحسن التدبير.

ولهذا أثر كذلك في حفظ النعم. قد تجد خيرًا قائمًا في بيتك أو عملك، ثم يغلب عليك الخوف من فقدّه، فتنتظر السوء في كل تغير صغير. تعرف ما يحتاج إلى رعاية، وتسال الله دوام الخير، وتعمل بسببه المشروع. وما لا تعلمه من الغد يبقى في موضع الدعاء، دون أن يستهلك ما تملكه اليوم من قدرة على الشكر والإصلاح. النعمة عطاء حاضر تحفظ حقه، وبقاؤها خير ترجوه، وتحتاج في الأمرين إلى فضل ربك.

ويميز هذا النظر ثلاثة أنواع من العبارات: ما تعرفه من الوحي، وما تعرفه من الوقائع، وما تتمناه ولا تعلم حصوله. ينتفع القلب حين يعطي لكل منها حدها. يستطيع أن يرجو تيسيرًا دون أن يخبر بأنه سيأتي في الصورة التي اختارها، وأن يقر بخطأ في فعله دون أن يحكم على منزلته كلها، وأن يجهل حكمة تفصيلية ويبقى مؤمنًا بكمال الله.

وحين تعود عبارة الخيبة إلى ذهنك، تستطيع أن تحملها إلى هذا الميزان: ما الذي أعرفه؟ وما الذي أضافه خوفي؟ تعطي لكل منهما حده، وتسال ربك الخير فيما جهلت. وقد يبقى الألم مع سبب تؤديه ودعاء تجددّه؛ فقلبك يتعلم أن يقصد ربه وهو يحمل حاجته، ويستمد مما علم من كماله عونًا على ما لم يتبين له.

الفصل السابع والستون: الصبر

وقع تعدّد متكرر على حق عامل، فصار يسمع كلاماً عن الصبر كلما طلب الإنصاف. خشي أن تكون مطالبته نقصاً في صبره، وخشي أيضاً أن يطول الأذى إن سكت. يحتاج إلى معرفة تحفظ حقه وتبين طريقه، وإلى رجاء يعينه على العدل وهو متألم. فالصبر يظهر في حفظ الحد أثناء السعي، وفي احتمال ما تعذر دفعه، وقد يصحبه طلب مساعدة أو رفع شكوى إلى موضعها.

قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾. [الشورى:40]، وقال: ﴿وَلَمَنْ ائْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾. [الشورى:41]. يبين السعدي مراتب العدل والفضل والظلم، ويصل العفو بالإصلاح. يتعلم صاحب الحق أن ينظر في موضع العفو ومصلحته، وأن يعرف ما يسعه في طلب الإنصاف، وأن يحفظ الحد الذي يمنعه من زيادة ظلم على ظلم.¹²⁹

إذا كان جمع ما يثبت الواقعة طريقاً إلى المطالبة، جمعه بصدق؛ وإذا احتاج إلى حكم أو إجراء، سأل من يحسن بيانه.

129 السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تفسير سورة الشورى، الآيات 40-41 و 43، في النص الإلكتروني للتفسير.

غضبه يبين ما أصابه من ألم، أما الحق فيحتاج إلى ما يثبتته والطريق المشروع إلى طلبه. يظل الكذب محرماً عليه، ويبقى مال غيره مصوناً، ويحتاج كل تصرف إلى حكمه. وما يرجوه من الأجر يعينه أن يحفظ هذه الحدود وهو يسعى إلى رفع الضرر.

وقد يخلط المتضرر بين ما يستطيع دفعه الآن وما يعجز عنه في هذه الساعة. يعرف فرقاً بين خطوة يحتاج فيها إلى حماية أو معرفة، وأخرى تعذرت عليه فعلاً. يبدأ بالعلم والمعونة حين يحتاج إليهما، ويرتب المطالبة بما يحفظ سلامته والحق. وإذا بقي بعض الضرر خارج قدرته، طلب العون على احتماله، واستبقى نظره في الطريق الممكن. هذا التمييز يمنع أن يسمى كل تأخير عجزاً، ويحفظ كذلك من تحميل الإنسان فعلاً لا يسعه في حاله.

صبر أثناء المطالبة

قد تتأخر نتيجة الإجراء، فيستثقل العامل الأيام التي يحفظ فيها نفسه من تجاوز يعلم حرمة. وربما ظن أن الإنصاف السريع كان ينبغي أن يكون ثمرة كل خطوة صحيحة. هنا يتسع نظره إلى أمر يؤديه اليوم: يعرف الله ما وقع، ويرجو فضله في صدقه وصبره وأداء ما عليه. أما تعيين عوض

دنيوي أو موعد لزوال الأذى، فليس مما يعلمه بهذا الرجاء. يستطيع أن يدعو ويواصل السبب المباح دون أن يحمل الانتظار دعوى عن الغد.

يطول بيان حقه أحيانًا، فيشعر أن حفظه للحد لم ينفعه. هنا يحتاج إلى فصل أمرين: نتيجة المطالبة التي قد تتأخر، والعدل الذي يلزمه في طريققتها. يحفظ الصدق في الوثائق، ويمنع الغضب من زيادة الدعوى، ويطلب المشورة إذا ظهر له طريق آخر. ليس التأخر خبرًا بأن كل ما بذله قد ضاع؛ فقد أدى ما عليه، وبقي مما يقدر عليه أمر يسعى فيه، ومما يعجز عنه أمر يسأل الله عونه فيه.

وإذا اختار العفو، نظر في الإصلاح الذي يصحبه. قد يجد موضعًا تنفع فيه المسامحة وتفتح بابًا إلى خير، فيرجو ما عند الله، ويمضي دون أن يعيد المنّ بها على من عفا عنه. وقد يكون دفع الأذى وحفظ الحقوق محتاجًا إلى متابعة الإجراء، فيختاره بعلم. معرفة الحال والحق وأثر التصرف تعين على الترجيح، واحتفاظ صاحب الحق بمطالبته يحتاج إلى فهم قبل لومه.

أما من يعظه، فيحمل هذه المعاني إلى حقيقة المسألة. يسأل عما وقع، ويدله على طريق ينفع، ويحفظ له حاجته إلى الأمان والبيان. قد تكون العبارة العامة عن الصفح أسهل على

السامع من مواجهة مسؤولية المسيء، فيطلب من المتضرر أن يريح المجلس بتنازل سريع. النصيحة أمانة تحتاج إلى أن يكون الحق حاضرًا فيها؛ ومن أحسن النصح أعان على أداء الحق كما أعان على ضبط الغضب.

وللصابر أن يصف حاجته ويطلب ما يناسبه من معونة. ربما أرهاقه تكرار الأذى، أو احتاج إلى علم يرشده، أو إلى من يعينه على إجراء يعجز عن متابعته منفردًا. يتخير من يأتمنه على حديثه، ويطلب قدر ما يحتاج إليه من خبرة ومساعدة. تظهر القدرة في تفاصيل الحال، وقد يختلف ما يستطيع اليوم عما يستطيع غدًا، فيرتب خطوته بما يتبين له، ويستعين بالله في كل ذلك.

وقد يبقى الألم بعد خطوة نافعة أو بعد عفو اختاره. ما وجده من حزن لا يمحو ما أداه من حق، ويحتاج إلى وقت ومعونة بقدر حاله. يظل قادرًا على أن يصف الفعل بصدق، وأن يعرف ما بقي من حاجة، وأن يتوقف عن استدعاء الواقعة ليزيد دعوى لم تثبت. حفظ اللسان والعمل في هذا الموضع مجاهدة يرجو فضل الله فيها، ويطلب عونه عليها.

إن حضرت لك مظلمة، فابدأ بما يحتاجه حقك من بيان أو حماية أو سؤال، واعرف الحد الذي تخشى تجاوزه عند الغضب. ثم اسأل الله الجبر والهداية. ففي كل مرة تقدر فيها على الصدق وتحمل ألمًا يستفزك إلى تجاوزه، يظهر أثر الرجاء: يحفظ للنفس طريق العدل، ويعينها أن تطلب الإنصاف دون أن تزيد مظلمة أخرى.

الفصل الثامن والستون: الشجاعة

تبين لمسؤول أن تقريراً اعتمد عليه فيه خطأ مؤثر. عرف أن بعض القرارات بنيت عليه، ثم ثقل عليه أن يبين ما اكتشفه. يتخيل نظرة من وثقوا به، ويود لو أصلح الأمر دون أن يظهر الخطأ. يحتاج هنا إلى علم يحدد ما يلزمه، وإلى رجاء يعينه على تحمل كلفة الصدق. فما يعلمه من حق لا يسقط لأن صورته أمام الناس ستتأثر بأدائه.

وقد مضى بيان قوله تعالى: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: 104] في سياقه. من أثر رجاء الثواب أن يبقى للعبد ما يطلبه وراء المكسب العاجل، فيحتمل مشقة الواجب المشروع. يحمل هذا المعنى إلى ما علم حكمه، مع تقدير القدرة والمصلحة والعاقبة؛ فإن التهور وتعريض النفس أو الناس لضرر بغير علم يحتاجان إلى كف وتصحيح.¹³⁰

فيجمع المسؤول المعلومات، ويعرف ما ثبت من الخطأ وما بقي محتاجاً إلى تحقق. ينظر في القرارات التي أثر فيها، وفيمن يحتاج إلى البيان، ثم يصحح ما يخصه ويتحمل مسؤوليته. ويظل من لم يرتكب الخطأ محفوظ الحق؛ فخشية الحرج قد تحمل صاحبها على توزيع تبعته ليخف

130 الطبري، جامع البيان، تفسير سورة النساء، الآية 104، في النص الإلكتروني للتفسير.

نصيبه منها. الصدق الذي يرجوه عمل له تفاصيل، منها دقة البيان والعدل في نسبته.

وكلما كان الخطأ أوسع أثرًا، احتاج إلى بيان يبلغه حيث انتفع الناس بالمعلومة الأولى. لا تكفي راحة صاحب التقرير بأنه أخبر شخصًا بعيدًا عن موضع القرار. ينظر في الطريق الذي وصل به الخبر، وفيما يلزم تصحيحه منه، ويسأل إذا التبتت عليه حدود النشر. بهذا يجد الحرج الذي يتحملة وظيفه نافعة في إصلاح الضرر.

ما الفعل الذي يحتاج إلى شجاعة؟

تبدأ الشجاعة النافعة بفهم الواجب. قد يحتاج الحق إلى كلام، وقد يحتاج إلى إمساك عن خبر لا تعلمه، أو إلى إبلاغ جهة مسؤولة بطريق يحفظه. ارتفاع الصوت يصف طريقة الكلام، وتحتاج صحة الموقف إلى علم آخر. كما أن الهدوء قد يصحب فعلًا يحتمل صاحبه كلفته؛ تعرف الشجاعة في هذا الموضع بما أداه وما حفظه، وما تحمله من مشقة لأداء حق تبين له.

وربما ظن أن بيان الخطأ ينبغي أن يصير إعلانًا واسعًا ليكون صادقًا في اعترافه. ينظر أولًا إلى من بني قراره على المعلومة، ومن يحتاج إلى تصحيحها، وما يحفظ حق من

مسّه الضرر. يبلغ البيان قدر حاجته؛ فلا يخفي ما يلزم، ولا يجعل شدة إحراجه سبباً لتعميم تفاصيل لم يحتج إليها الإصلاح. ثم يتحمل ما يخصه من مسؤولية، ويقبل أن يبقى بعض الحرج بعد أن يؤدي البيان على وجهه.

وقد يكون الاعتراف أول الإصلاح، وتأتي بعده خطوة لرفع أثر الخطأ. يظن أحياناً أن مشقة الاعتراف كافية لإغلاق المسألة، ثم يجد حقاً ما زال يحتاج إلى أداء. يعرف هذا الحق، ويطلب البيان في طريقه إن جهل، ويبدأ بما يقدر عليه. رجاؤه يعينه أن يمتد الصدق من الكلمة إلى ما يلزم بعدها، حتى يكون للمتضرر نصيب ظاهر من المعالجة.

وفي الصحبة موضع آخر للشجاعة. تعرض عليه مشاركة في ظلم، ويخشى أن يثقل امتناعه على من أفهم. يترك ما علم تحريمه، ويتحرى من النصح ما يناسب قدرته وحكم حاله. يستطيع أن يحفظ أدب حديثه مع وضوح امتناعه، وأن يطلب المعونة إذا ضغطوا عليه فيما يعجز عن مواجهته وحده. وما عرفه من حق يبقى مسؤوليته الشخصية، وإن اتسعت رغبة أصحابه في خلافه.

وإذا اختلطت المصالح والمفاسد، كان السؤال جزءاً من الاستعداد. يعترف بموضع جهله، ويعرض على أهل العلم والخبرة ما يؤثر في الحكم، ويحفظ للجواب ما يحتاج إليه

من وقت. هذا التآني يحمل وظيفة معلومة؛ أما تأخير السؤال لأن جوابه قد يدعوه إلى فعل شاق، فيطيل الخطأ الذي يعرفه. يفيد أنه يسمى المعلومة الناقصة، وأن يتبين ما إذا كانت هي موضع توقفه فعلاً.

قد يتأخر الإنصاف بعد موقف صحيح، أو يساء فهم صاحبه. هنا يصحب الرجاء العدل في الوصف والسعي، ويسأل الله أن يعينه على ما بقي. لا يملك أن يعد نفسه بظهور براءته في موعد بعينه، ولا أن يجعل سرعة مكافأته شرطاً لما يؤديه من حق. إذا ظهر سبب نافع أخذه، وإذا بان خطأ في طريقته أصلحه، ويظل صدقه حاضراً فيما يطلبه وفيما يبينه للناس.

وليس عليه أن يحمل كل هذه الكلفة منفردًا. يحتاج بعض المواقف إلى مشورة تحفظ الخصوصية، أو معونة في أداء ما ثبت، أو حماية من ضرر متوقع. معرفة ذلك تزيد الفعل إحكامًا، وترد الإقدام إلى قدرة حقيقية وطريق مشروع. يستطيع أن يطلب العون دون أن يزول عنه كل خوف، وأن يمضي في خطوة معلومة وهو يسأل الله الثبات.

قد تصل المعلومة المصححة إلى صاحبها وأنت ما زلت تخشى أثرها في صورتك، وقد يؤدي المال وصاحبه لم يجد بعد الراحة التي تمنّاها. هذه مشقة تستطيع حملها مع طلب العون. فإذا تبين الحق وطريق أدائه، فتح الرجاء لك قدرة على الفعل قبل زوال الخوف كله؛ وتبقى الشجاعة محتاجة إلى علم يرشدها وعدل يحفظ حدودها.

الفصل التاسع والستون: الرحمة بالناس

عن جندب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ حدث: «أن رجلاً قال: والله لا يغفر الله لفلان، وإن الله تعالى قال: من ذا الذي يتألى علي أن لا أغفر لفلان؟ فإني قد غفرت لفلان وأحبطت عملك». وفي الرواية: «أو كما قال». رواه مسلم.¹³¹

يتألى: يحلف. يفتح هذا الخبر للناسح موضعاً يراجع فيه كلامه. قد يرى خطأ، ويعرف حكمه، ثم يتجاوز في غضبه إلى الجزم بأن الله لن يغفر لصاحبه. كان معه علم بفعل، فأضاف إليه خبراً عن مصير لا يملكه. بيان الحكم والنهي عن المنكر يحتاجان إلى علم وعدل، وفتح طريق التوبة للمخطئ رجاء خير له؛ أما الخاتمة والمغفرة التي يجزم بها لشخص بعينه، فليست مما أعطي علمه بمجرد رؤيته للذنب.

ويظل للفعل اسمه، وللمتضرر حقه. يستطيع الناسح أن يعين المسيء على الرجوع، وأن يعين من أصابه الأذى على الإنصاف والحماية. اختلاف ما يحتاجه الطرفان يدعوه إلى عناية أوضح، دون أن يجعل نصرة أحدهما سبيلاً إلى إلغاء حاجة الآخر. فالمسيء يحتاج إلى أن يكف ويؤدي ما لزمه،

131 مسلم، الصحيح، كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن تقنين الإنسان من رحمة الله تعالى، حديث جندب، رقم 2621.

والمتضرر يحتاج إلى أن يكون حقه حاضرًا في المعالجة، وله أن يطلب ما يسعه بالطريق المشروع.

وقد يتردد الناصح في الرجوع إلى عبارة قاسية قالها من قبل. إذا علم أنه جاوز الحق، صحح ما قال بقدر ما يحتاج إليه من سمعه، وحفظ الحكم الصحيح على الفعل. رجاؤه يعينه هو أيضًا على هذا الرجوع؛ فيتعلم أن غضبه الصادق لا يغني عن عدله، وأن حفظ حق المتضرر يظل ممكنًا بعد إصلاح عبارته.

رحمة يصل أثرها إلى الطرفين

اعترف شخص بتصرف آذى غيره. قد تأثر السامع بعبارته وندمه، فصار يريد من المتضرر أن يطمئن سريعًا. لكن الاعتراف أول معرفة للمسؤولية، ويتبعه عمل في إصلاح ما وقع. يعان المعتذر على أداء ذلك، ويترك لمن تضرر وقت ينظر فيه إلى ما تغير. الثقة لها ما يبنيتها من صدق وفعل، وقد يحتاج الطرف المتضرر إلى حماية أو إجراء مناسب قبل أن يقدر على استئناف ما كان بينهما.

تختلف المعونة التي يحتاج إليها كل طرف عند بدء الإصلاح. يحتاج من أخطأ إلى أن يعرف تبعه فعله، ويحتاج المتضرر إلى أن يعرف أن حقه حاضر في المعالجة، دون أن يصبح مطالبًا بتهدة ندمه. يحمل المعتذر مسؤولية ما صدر منه،

ويعان على إصلاحه، ويعطى المتضرر ما يحتاجه من بيان وحماية. وبهذا تجد الرحمة فعلاً يمكن لكل منهما الانتفاع به، بدل عبارة عامة تطلب من أحدهما إغلاق حاجته ليستريح الآخر.

ومن الرحمة بالمسيء منعه من تكرار الضرر وتحميله ما يلزمه. إذا بقي الباب الذي يؤذي منه الناس على حاله، لم تكف رقة العبارة في علاجه. يعرف الحد، ويعرف طريق الإصلاح، ويطلب البيان فيما يجهله. والذي يعينه يستطيع أن يكون رفيقاً في الخطاب، واضحاً في المسؤولية؛ فيجد المخطئ باب رجوع يحتاج إلى صدق، ويجد المتضرر أن ما وقع عليه قد أخذ بقدر حاجته.

وتختبر الرحمة في الحديث عن أخطاء الناس. قد يصف الناصح فعلاً يعرفه، ثم يسهل على لسانه أن يجعل الوصف حكماً على الإنسان كله: لن يصلح أبداً. يحتاج إلى رد العبارة إلى ما علمه، ثم إلى ما ينبغي عمله. ما الذي يلزمه أن يكف عنه؟ وأي حق يؤديه؟ ومن يحتاج إلى بيان؟ هذه أسئلة تفتح للإصلاح طريقاً، وتحفظ الحزم في موضعه، دون أن تحمل الكلام علماً بالسرائر والخواتيم.

وقد يستمتع سامع بتفاصيل السقوط، فتكثر أسئلته عما لا تحتاج إليه المعالجة. يعرف الناصح قدر ما يلزم للفهم،

ويحفظ الستر في موضعه، ويمتنع عن نشر ما يزيد الأذى. وإذا احتاجت المسألة إلى جهة أقدر أو إلى علم ليس عنده، دل عليها. محبته للمعونة تحتاج إلى معرفة حد ما يحسنه، حتى يبلغ صاحب الحاجة من يفيد، ويظل ما أئتمنه عليه مصونًا.

وربما خشي أن يفهم المخطئ رجاء الخير له على أنه إعفاء من التبعة. يحسن حينئذ بيان الأمرين معًا: يرجو له توبة وصلاحًا، ويعينه على حق معلوم ينبغي أدائه. فإذا طلب شهادة بأن ما فعل قد غفر له، حمل سؤاله إلى الاستغفار والدعاء، وحمل معرفته بالواجب إلى العمل. الرجاء يعينه على العودة، والقبول فضل يسأله، وتبقى تفاصيله مما لا يملك الناصح أن يشهد به.

كما يحفظ المتضرر من ضغط العبارة التي تصفه بالقسوة إن احتاج إلى وقت أو تمسك بحقه. ينظر في حاجته وفي حكم المسألة، ويحفظ له الكرامة أثناء السؤال والمعالجة. الرحمة التي يبلغها كل طرف قد تختلف في صورتها: بيان للمسيء، وإنصاف للمتضرر، ومنع لأذى يتكرر. يجمعها قصد الإصلاح، وتحتاج تفاصيلها إلى علم يوجهها.

حين يهدأ غضبك، يبقى ما علمته من الفعل وما يلزم من إصلاح. أعط البيان قدره، وصن ما ينبغي صونه، واسأل الله للمخطئ الإصلاح وللمتضرر الجبر. ليس علمك بمصيرهما مما كلفت به؛ أما كلمة تعدل فيها، أو حق تعين على أدائه، أو أذى تمنع تكراره، فهذه مواضع رحمة تستطيع أن تبلغها.

الفصل السبعون: حسن الخاتمة

قد يذكر الإنسان خاتمته فيخاف، ثم ينشغل بما يتخيله من ساعته الأخيرة عن حق يعرفه في يومه. يرجو أن يلقي الله على الإيمان والطاعة، ويسأله حسن الخاتمة، ويحتاج إلى أن يحمل هذا الرجاء إلى الحاضر: توبة من ذنب، وأداء أمانة، وحفظ فريضة، وطلب علم يعينه. ما كلف به يعرف طريقه الآن، وما يرجوه من الثبات والقبول يحمله إلى الدعاء والافتقار.

وقد قال النبي ﷺ في حديث جابر رضي الله عنه: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن بالله الظن». مضى بيان الحديث في الفصل السادس عشر، ويأتي أثره هنا في الاستعداد والمواساة. يعرف العبد رحمة ربه، ويرجو فضله، ويسأل المغفرة، ويستعين به على إصلاح ما بقي من عمله. يظل حسن الظن حاضراً في قلبه حين يخاف عاقبة لا يعلم تفاصيلها، ويظل للواجب الذي تبين له موضعه من يومه.¹³²

والاستعداد قد يبدأ بحق لم ينكره صاحبه، لكنه ترك بيانه مؤجلاً. تحت يده مال، أو عليه دين، أو عنده أمانة لا يعرف

132 مسلم، الصحيح، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت، حديث جابر، رقم 2877.

غيره تفاصيلها. إذا غاب بيان الملكية والمسؤولية، صعب على من يتولى الأمر بعده حفظ الحقوق. يحتاج إلى ضبط ما يعلم، وإلى وثائق وبيان يصونان الحق ويحفظان السرية بالطريق المناسب. وما أشكل حكمه يسأل عنه، ومن أراد وصية تعلم ما يلزمه فيها.

أمانة تبينها وأنت قادر

تحت يد شخص حسابات لأسرته أو لجهة يعمل معها. يألف معرفته بها، فيظن أن كل ما يراه واضحًا سيكون واضحًا للآخرين. ثم يتبين له أن بعض الحقوق إنما يعرفها من كلام قديم أو ترتيب لم يوثق. يعرف ما يحتاج إلى بيان، ويضبطه بحيث يمكن الانتفاع به عند الحاجة دون كشف ما ينبغي صونه. هذه عناية تحفظ الأمانة في حياته، وتعين من يحتاج إليها إذا تعذر الرجوع إليه.

إن أثقل عليك تذكر الموت عند ضبط هذه الأمور، فقد تؤخر ما تعرف نفعه. لكن الوثيقة التي تبين الحق تنفعك وأنت حي: يسهل بها الوفاء، ويظهر النقص الذي تستطيع تداركه، ويعرف صاحب الحق سبيل بيانه. تعطيها من العناية ما تحتاج إليه، ثم تمضي في حياتك. فإذا كانت الحاجة إلى الحكم أو حماية

الخصوصية هي موضع ترددك، طلبت البيان، بدل أن يبقى الحق معلقًا بخوفك من ذكر العاقبة.

وفيفده أن يفرق بين ما ينبغي أدائه الآن وما يحتاج إلى توثيق للمستقبل. مال استحق صاحبه أدائه يحتاج إلى وفاء بحسب الحكم والقدرة، والبيان يعين عليه ويحفظ معرفته. أما تحويل كل حق حاضر إلى ورقة مؤجلة لما بعد الوفاة، فقد يبقى الواجب في موضع التأخير. ينظر في حقيقة ما عليه، ويتعلم طريقه، ويستعين على أدائه؛ فوضوح الحساب جزء من الأمانة، وله بعد ذلك عمل يتصل بحق صاحبه.

قرب رحيم من المريض

عند مواساة من اشتد مرضه، يحتاج الناصح إلى رفق يفهم به حاجته. يذكره برحمة الله بما يناسب حاله، ويصغي لما يريده، ويعينه فيما يستطيع من حقوقه. وقد يرهق المريض استجواب طويل، أو مجلس يتكرر فيه الحديث عن الموت دون التفات إلى حاجته إلى الرعاية والطمأنينة. القرب النافع يبلغه علمًا يحتاج إليه ومعونة يستطيع الانتفاع بها، ويعطي لتعبه وقدرته موضعهما.

وما يتعلق بأحكام مرضه يسأل عنه أهل العلم، وما يحتاج إلى رعاية يرجع فيه إلى أهل الاختصاص. يستطيع من حوله أن

يسهلوا هذا السؤال، وأن يعينوه على ما بين له من عمل بحسب حاله. رجاء الرحمة يصحب ذلك كله، دون أن يجعل المريض مطالبًا بإظهار قوة شعورية في كل زيارة، أو أن يحول ضعفه وألمه إلى شهادة على باطنه. هو محتاج إلى الرفق والبيان كما هو محتاج إلى العون على ما يلزمه.

ويقف الناصح عن صناعة علامات للمصير. صورة متداولة أو حلم أو مظهر مرتجل عند الوفاة لا يمنحه علمًا يحكم به على خاتمة شخص. يرجو للمحسن الخير، ويدعو للمسلم بالمغفرة، ويعامل ما ثبت فيه نص بما دل عليه. أما خبر لم يثبت أو استنباط جاوز دلالة ما علمه، فيحتاج إلى كف عن نشره؛ فإن أحكام الخواتيم أمر أعظم من انفعال السامعين بصورة أو رواية.

وقد يوقظك ذكر الخاتمة إلى طريقة إنهاء أمر حاضر: اعتذار
استحققه إنسان، أو معلومة ينبغي تصحيحها، أو ذنب يحتاج
إلى توبة. تفعل ما تبين لك، وتسال الله القبول والرحمة. تبقى
حاجتك إليه بعد العمل كما كانت قبله، ويصبح رجاؤك في
حسن العاقبة باعثًا على صدق يومك. وما جهله القلب من غده
لا يحجب عنه ما عرفه من واجب وما فتح له من طريق خير.
اللهم أحيينا على طاعتك، وتوفنا على الإيمان، وأعنا أن نؤدي
ما حملناه من أمانة، وأن نتوب مما علمناه من تقصير. واجعل
رجاءنا في حسن العاقبة عونًا على صدق يومنا، وارزقنا رفقًا
بخلقك حين يضعفون، وحسن ظن بك حين نحتاج إلى
رحمتك.

الفصل الحادي والسبعون: برنامج ثلاثين يومًا

قد تبين لك أثناء القراءة عمل يحتاج إلى إصلاح، ثم وجدت أنك تحتاج إلى تنظيم يعينك على البدء والمراجعة. هذا البرنامج وسيلة اختيارية لذلك: تختار مطلبًا مشروعًا، وتصل به فعلًا تستطيع ملاحظته، ثم تتعلم من تنفيذه وما يعرض له. يمكن اختصار الشهر التقريبي أو تمديده بحسب حالك. المدة ترتيب مقترح، وما فيها من مهام يخدم حاجتك إلى التعلم والعمل.

ويبقى الفرق واضحًا بين التنظيم وعبادة يثبت لها وقت أو عدد مخصوص. هذه الخطة ليست سنة بمدة معينة، ولا تنشئ وردًا تعبديًا جديدًا، ولا تعد بانتهاء البلاء بعد يومها الثلاثين. وما تصل إليه من ملاحظة على فعلك لا يشهد بقبول العمل أو اكتمال منزلة القلب. تسأل الله التوفيق والقبول، وتستعين بهذا الترتيب في أمر ظاهر تستطيع مراجعته.

اختر في البداية مطلبًا واحدًا يهملك: حقًا تؤديه، أو علاقة تصلح ما عليك فيها، أو علمًا تحتاج إليه، أو انتظامًا في عمل مشروع. ازدحام المطالب قد يجعل كل خطوة تبدو أقل من المطلوب، فتتوقف قبل البدء. أعط لما يلزم من فرائض

وحقوق موضعه أولاً، ثم اختر من التدريب ما يعينك؛ فالأداة تنتفع بها بقدر ما تخدم حقاً وحاجة حقيقية.

قبل اليوم الأول

صف الموقف في سطرين يبينان ما تحتاج إليه، واحفظ أسماء الناس وتفاصيلهم الخاصة التي لا تتوقف عليها المراجعة. ثم اسأل عن مشروعية المطلوب، وعن حقل وحقوق غيرك فيه، وعن السبب المقدور، وعن النتيجة التي ترجوها وتجهل وقوعها. إن ظهر حكم شرعي أو شأن اختصاصي يحتاج إلى بيان، فاجعل السؤال أول فعلك. دعاء تتقرب به إلى الله، ووعد ثبت أصله، وسبب تأخذ به: لكل منها موضعه.

أما وصف البداية، فيتعلق بفعل تستطيع معرفته: اتصال مؤجل، أو حق لم يؤد، أو مادة تحتاج إلى فهم، أو عادة تحتاج إلى ترتيب. تقدير الإيمان من مائة أو قياس محبة الله لك أمر لا تعلمه هذه الورقة. والذي ينتفع به التنظيم أن تعرف ما وقع، وما منعه، وما الذي يمكنك تعديله. قد تحتاج إلى العلم بحكم الفعل قبل اتخاذه مؤشراً على التحسن، فتطلب هذا البيان حيث يلزم.

الأيام من 1 إلى 7: وضوح المطلوب والسبب

اليوم	المهمة	ما يسجل بعد العمل
1	تحديد المطلوب واختبار مشروعيته	المطلب في جملة، والسؤال الذي يحتاج إلى جواب
2	حصر الحقوق المتصلة به	حق لك وحق عليك، إن وجد
3	التمييز بين القدرة والعجز	سبب مقدور ومانع يحتاج إلى عون
4	اختيار خطوة صغيرة نافعة	الفعل المحدد وموعده الممكن
5	تنفيذ الخطوة	تم، أو تأخر مع وصف السبب
6	قراءة دليل مناسب من الكتاب مع حاشيته	معنى واحد فهمته وحد لا تتجاوزه دلالاته
7	مراجعة الأسبوع	ما نفع، وما يحتاج إلى تعديل

يبدأ الأسبوع بمعرفة الحاجة ثم تحديد الطريق الممكن إليها. لا ينتظر واجب حاضر يومه المدرج في الجدول؛ تؤديه حين يلزمك، وتقدم المراجعة إذا احتاجت إليها خطوتك. وكذلك الدعاء يتسع لحاجتك طوال الأيام، دون أن يحصره ترتيب المهام. تستطيع تعديل موعد العمل الاختياري بحيث يناسب قدرتك، وتبقي الحكم الذي تعرفه مقدماً على الورقة.

حين تراجع، سم سبب التعثر بقدر ما تعلمه. إن تجاوز العمل الاختياري ما يحتمله وقتك، عدلت مقداره. وإن كان الوقت ممكناً وأخرته بلا سبب نافع، نظرت في الموعد والوسيلة وما يغذي التأجيل. وإن منعك عذر حقيقي، عرفت ما يسعك وطلبت المعونة المناسبة. اختلاف هذه الأحوال يجعل التعديل أنفع من لوم عام لا يحدد ما يحتاج إلى إصلاح.

الأيام من 8 إلى 14: إصلاح اللغة والعمل

اليوم	المهمة	ما يسجل بعد العمل
8	مراجعة جملة عن مستقبلك	ما فيها من توقع وما فيها من وعد بلا دليل
9	إعادة صياغتها رجاءً صادقاً	العبارة الجديدة وما تدعوك إليه

اليوم	المهمة	ما يسجل بعد العمل
10	تنفيذ سبب ثان يناسب الحال	فعل واحد، لا قائمة مطولة
11	سؤال أمين عما تجهله	السؤال والجواب ومصدره
12	مراجعة أثر الفعل على غيرك	هل حفظ حقًا أم حمل ضررًا؟
13	إصلاح خطأ معلوم إن وجد	ما صححته دون نشر تفاصيل خاصة
14	مراجعة الأسبوع	قرار بالاستمرار أو التعديل أو طلب عون

قد تكشف مراجعة العبارة خللاً في المطلوب نفسه. ربما كنت تسمي شيئاً حقاً لك، ثم تبين أنه توقع لم يلتزمه الطرف الآخر. أو وجدت أن وسيلتك تحمل ضغطاً عليه يحتاج إلى كف. ما ظهر من معرفة جديدة منفعة للمراجعة؛ تعطيه أثراً في القرار، وتتوقف لتتعلم حين يلزم. سلامة الطريق وحقوق من يتصل به حاضرة في السعي، مهما كنت راغباً في سرعة الوصول.

الأيام من 15 إلى 21: الصبر على الأثر وحسن المعاملة

اليوم	المهمة	ما يسجل بعد العمل
15	فصل الفعل عن النتيجة	ما فعلته وما لم يظهر أثره بعد
16	تحسين وسيلة واحدة	التعديل وسببه
17	رفق عملي بمن يتصل بالموقف	تصرف يحفظ الكرامة والحق
18	مراجعة توقعك للمدة	هل يستند إلى طبيعة العمل أم إلى استعجال؟
19	إعداد بديل مشروع عند الحاجة	بديل يحفظ المقصد دون تعلق بطريقة واحدة
20	شكر نعمة حاضرة	أثرها في عملك، دون نسبتها إلى استحقاق ذاتي
21	مراجعة الأسبوع	ما تعلمته من بطاء الأثر

في هذا الأسبوع تنظر في الفعل والأثر معاً، وتحفظ لكل منهما حد معرفتك. ربما أدبت خطوة صحيحة وتأخرت نتيجتها، وربما جاءت نتيجة حسنة مع خلل ينبغي تصحيحه في الوسيلة. ما يقع من تأخر أو حصول لا يتحول في الجدول إلى علامة قطعية على رضا الله أو سخطه على فرد. تراجع الحق والمعلومة والسبب، وتدعو وترجو، وتقدم تصحيح الأذى الظاهر على الاستمرار في وسيلة تؤذي باسم الصبر.

الأيام من 22 إلى 30: تثبيت ما ينفع

اليوم	المهمة	ما يسجل بعد العمل
22	تحديد فعل نافع يمكن دوامه	المقدار المناسب لقدرك
23	تخفيف عائق متكرر	تغيير عملي في الوقت أو البيئة أو طريقة العمل
24	مراجعة حق بقي معلقاً	الخطوة اللازمة أو جهة السؤال

اليوم	المهمة	ما يسجل بعد العمل
25	تدريب على مواسة صادقة	عبارة دعاء وعون خالية من الوعد الخاص
26	مراجعة مصدر أثر في فهمك	النص، ومرجعه، وحد دلالاته
27	طلب ملاحظة على فعل ظاهر	رأي شخص أمين دون استفتائه في سريرتك
28	تعديل واحد بناء على المراجعة	ما تغير ولماذا
29	تلخيص ما تعلمت	ثلاث فوائد وفعل واحد تريد إبقاءه
30	وضع متابعة تناسبك	موعد مراجعة لاحق تختاره، دون إلزام بمدة شرعية

حين يتبين فعل نافع، تنظر في المقدار الذي يناسب استمرارك عليه وفي العائق الذي يتكرر عنده. ويمكن لملاحظة أمينة على فعل ظاهر أن تكشف ما غاب عنك، دون أن تطلب من صاحبها حكمًا على سريرتك. تحفظ فائدة محددة،

وتجرب تعديلاً يتصل بها، ثم تعطي التجربة وقتاً يناسب طبيعة العمل؛ فالمدة التي تختارها للمراجعة ترتيب يمكن تغييره.

وإن انقطعت عدة أيام، رجعت إلى الموضع الذي ينفعك، أو اختصرت الجدول، أو استبدلته بمراجعة أسبوعية. لا يحتاج الانقطاع إلى عقوبة أو تعويض تعدي تنشئه. يتغير التنظيم ليناسب قدرتك، ويبقى ما عليك من واجب محكوماً بحكمه. إذا صار التدريب عبئاً يصرفك عن العلم والعمل، فإصلاح طريقته أولى من الإصرار على صورته.

حالات للتدرب على الفهم

الحالة الأولى: وعد بالشفاء. قال شخص لمريض إن قراءة هذا الدعاء أسبوعاً تضمن شفاؤه. يقصد المواساة، لكنه جعل للأثر مدة ونتيجة يحتاجان إلى دليل. وقد يتألم المريض بعد الأسبوع، ثم يحمل تأخر الشفاء حكماً على إيمانه. يدعو له الناصح بالعافية، ويعينه على الدعاء المشروع وأسباب الرعاية المناسبة، ويترك ما يجهله في موضع الرجاء. سؤالك التطبيقي: ما العون الذي تستطيع تقديمه فعلاً؟

الحالة الثانية: ذنب متكرر. عاد قارئ إلى ذنب بعد توبة، فحكم بأنه لن يصلح أبداً. ما وقع يبين حاجته إلى تجديد

التوبة والنظر في أسباب عثرته، ويظل مستقبله مما لا يملك هذا الحكم عليه. يسأل العون ويصحح ما يستطيع من السبب. أما قصد إبقاء الذنب منذ البداية، ثم استعمال المغفرة في تأجيل الترك، فيحتاج إلى تصحيح العزم نفسه. سؤالك: ما الفرق بين ضعف وقع بعد عزم صادق ونية إبقاء الذنب من البداية؟

الحالة الثالثة: حق مالي. ينتظر صاحب دين الفرج، فيترك التواصل مع صاحب المال باسم حسن الظن بالله. يظل للآخر حقه، ويحتاج المدين إلى الصدق وما يلزمه من بيان وأداء بحسب حكم حاله. يتعلم الحكم إن أشكل، ويصف قدرته بأمانة، ويتوقف عن وعد يعلم أنه لا يقدر عليه. رجاء الفرج يصحب فعلاً يحفظ الحق الآن. سؤالك: أي خطوة ممكنة تحفظ حق الآخر الآن؟

الحالة الرابعة: بطء التعلم. بذل طالب وقتًا، ولم تتغير نتيجته سريعًا، فعد كل ما فعل ضائعًا. يحتاج إلى النظر في طريقة التعلم وملاءمة المادة والوقت والمعونة التي تنفعه. ربما بان خلل يستطيع إصلاحه، وربما احتاج الأثر إلى وقت يناسبه. يصف ما علمه من فعله، ويقف عن اتخاذ النتيجة حكمًا على منزلته عند الله. سؤالك: ما المؤشر الذي يقيس جودة فعله قبل ظهور الثمرة؟

الحالة الخامسة: اعتذار ضاغط. اعتذر شخص، ثم اتهم المتضرر بالقسوة لأنه احتاج إلى وقت. بدأ بالاعتراف، ويحتاج إلى أن يمتد صدقه إلى احترام حق الآخر وإصلاح ما عليه. المسامحة اختيار صاحبها، والثقة تحتاج إلى ما يبنيها من فعل. يحفظ المعتذر ما يلزمه من أحكام وحقوق، دون أن يطلب من المتضرر راحة عاجلة لندمه. سؤالك: كيف تخلو رسالة الاعتذار من ضغط خفي؟

الحالة السادسة: خوف بعد عبادة. وجد قارئ قلقًا بعد صلاته، فقرر إعادتها حتى يشعر بالقبول. هذا الشعور ليس شرطًا لصحتها، والقلق المجرد لا يحكم ببطلانها. إن كان عنده شك فقهي في شرط أو ركن، سأل عن حكمه بحسب الواقعة، وحفظ للجواب حدوده. التدريب يعينه على معرفة السؤال، دون أن يعطي فتوى واحدة لكل الأحوال. سؤالك: ما المعلومة التي يحتاجها قبل أن يحكم على فعله؟

تطبيقات ممتدة: من الفهم إلى المراجعة

المواقف الآتية أمثلة منشأة للتدرب، وليست أخبارًا عن أشخاص معينين. اختر منها ما يقرب من حاجتك، واقرأ الفروق التي يقوم عليها، ثم حدد فعلاً تستطيع مراجعته. وقد تحتاج قبل التنفيذ إلى حكم شرعي أو معرفة اختصاصية؛

فتبدأ بالسؤال، وتحفظ خصوصية من تتعلق بهم المسألة. لا يلزم جمع التطبيقات في برنامج واحد، ولا ينشئ التمرين حقًا جديدًا لك على غيرك.

التطبيق السابع: سؤال تأخر سنوات

اعتاد رجل طريقة في عبادة، ثم سمع بيانًا أشكل عليه، وخشي أن يكون قد أخطأ في شيء منها. بدأ يفكر في السنوات الماضية كلها، ويستحيي أن يسأل بعدما طال عليه الاعتیاد. يجتمع في موقفه سؤال يحتاج إلى جواب وخوف من صورة يريد حفظها لنفسه. والذي ينفعه أولاً أن يحدد ما أشكل عليه، بدل أن يحكم على الماضي كله بحكم لم يعرفه. اكتب السؤال كما تفهمه، وميز فيه الفعل الذي كنت تؤديه من الاستنتاج الذي خفته. قد تقول: أفعل كذا، وسمعت كذا، فما حكم هذا الفعل، وما الذي يلزمني إن تبين خطؤه؟ بيان الواقع يعين صاحب العلم على الجواب. أما إخفاء تفصيل مؤثر كي يكون الجواب أيسر على النفس، فقد يبيّيك محتاجًا إلى السؤال نفسه بعد وقت.

واختر من يحسن بيان الحكم، ثم افهم الجواب وما يتوقف عليه. إن كان في المسألة اختلاف أو تفصيل، فاطلب ما يوضح حالك من غير أن تنتقل بين الأجوبة لمجرد اختيار ما يوافق رغبتك. وقد يكون بعض ما تخشاه غير لازم أصلاً؛

فينفعك علمه، كما ينفعك العلم بما يجب إصلاحه إذا ثبت.
 المرجع هنا الحكم الذي تبين، لا مقدار القلق الذي شعرت به.
 وبعد السؤال حدد أثره في العمل المقبل. ما الذي ستغيره؟
 وهل بقي أمر من الماضي يحتاج إلى سؤال؟ ربما كان
 التصحيح صغيراً في صورته، لكنه يفتح لك باباً إلى تعلم
 تحتاجه. احفظ النفع الذي ظهر، ولا تشترط أن تفهم كل
 مسائل العبادة قبل أن تؤدي الواجب الذي تعرف حكمه.

وقد يبقى الحرج من أن غيرك سبقك إلى المعرفة. هذا الحرج
 لا يمنع التعلم، لكنه يستهلك جهداً إذا أعطيته حكماً على قدر
 نفسك كله. أنت تسأل في موضع احتجت فيه إلى علم،
 وغيرك يحتاج إلى علم في مواضع أخرى. ومن شكر الجواب
 أن تعمل به، وأن تستقبل سؤال غيرك برفق حين تكون قادراً
 على معونته.

في المتابعة سجل السؤال الذي حددته، والجواب الذي فهمته،
 والتغيير الذي عملت به. إن بقي التباس فذلك موضع متابعة،
 وإن اتضح الحكم فامض في مقتضاه. ثم اسأل الله أن يعلمك
 ما ينفعك وينفعك بما علمك؛ فرجاء التوفيق يحمل الحاجة
 من زمن التأجيل إلى خطوة معلومة.

التطبيق الثامن: حق يعرفه صاحبه وحده

بقيت أمانة مالية عند شخص مدة طويلة، ولم يسأله صاحبها عنها. يرجو أن يصلح حاله، ويشعر بالراحة كلما ذكر نية الرد، ثم يعود فيؤجل البحث عن طريقه. هنا يحتاج إلى التمييز بين نية يعرفها في نفسه وحق بقي لغيره. وقد يجد في رجاء المغفرة عونًا على تحمل مشقة البيان والأداء، بدل الاكتفاء بارتياح يترك الأمانة حيث كانت.

ابدأ بما ثبت عندك من المال وصاحبه وطريقة الوصول إليه. إذا جهلت مقدارًا أو حكمًا، فاطلب البيان من مصدره، واحفظ ما لديك من وثيقة يحتاجها الأمر. وقد تختلف أحكام الحالات؛ فلا تستخرج من هذا المثال جوابًا لكل مال خفي صاحبه أو اختلط حسابه. الغرض أن تصل إلى السؤال الصحيح، ثم إلى الأداء على الوجه الذي تعرفه.

وحين تتواصل، قدم ما يحتاج إليه صاحب الحق بصدق. لا تجعل كثرة وصف ضيقك مطالبة له بأن يتنازل، ولا تربط بيانك بوعده مالي لا تملك الوفاء به. إن كنت قادرًا أديت ما يلزمك، وإن كانت لك حال أخرى سألت عن واجبك وبذلت ما تستطيع. وحقه في الفهم لا يقتضي نشر أسرارهِ أو تفاصيله لمن لا حاجة لهم بها.

قد يخيفك السؤال عن سبب التأخير. اعترف بما تعلمه من تقصير دون أن تؤلف عذرًا، وبيّن ما تصلحه الآن. تستطيع أن تستغفر وأن تعتذر وأن تؤدي، وتبقى استجابة الآخر واختياراته حقًا له. لا يلزم أن يزول كل حرج قبل الخطوة الأولى؛ فقد تكون الخطوة نفسها بداية لخروجك من حمل طال زمنه.

ومن المهم أن تحفظ نهاية الإجراء كما حفظت بدايته. تأكد مما يبين حصول الأداء بالطريق المناسب، ورتب ما بقي من مسؤولية إن وجد. أما الاسترسال في تخيل قصة أخرى يصل بها المال من غير سعيك، فيصرفك عن السبب الذي تقدر عليه. القصص الثابتة في الكتاب تعلمك الاعتبار وحفظ الحق، ولا تعطيك وعدًا بتكرر صورتها لك.

راجع بعد ذلك: هل انتقلت الأمانة إلى صاحبها؟ هل بقي سؤال يحتاج إلى جواب؟ وما الذي ستغيره كي لا يتكرر الغموض؟ هذه المراجعة تصل الرجاء بإصلاح يمكن معرفته، وتترك القبول والمغفرة إلى فضل الله الذي تسأله وتفتقر إليه.

التطبيق التاسع: نجاح جاء ومعه غفلة

حصل قارئ على فرصة عمل دعا بها زمناً، وفرح بها، ثم ازدحم يومه حتى أخذ يؤخر ما كان يحفظه من واجب. يشكر بلسانه، ويشعر أن الطلب استجيب، لكنه يحتاج أن ينظر إلى

استعمال النعمة. فالفرصة التي فرح بمجيئها تحمل أمانة جديدة، والفرائض والحقوق التي كانت عليه بقيت قائمة بعد حصولها.

صف ما تغير في يومك: وقت العمل، والمسافة، والمسؤوليات، وما صار يتأخر. قد يكون الخلل في ترتيب يمكن تعديله، وقد تحتاج إلى تعلم حكم يتعلق بالحال الجديدة. ابدأ بما يلزمك، ثم ضع التطوع في موضع يناسب القدرة. لا تستبق النتيجة بأن كل وظيفة تستلزم هذا التفريط، ولا تتجاهل سببًا ظاهرًا يحتاج إلى إصلاح.

وقارن بين رجائك قبل النعمة وما تسأله الآن. كنت تريد حصول العمل، وصرت تحتاج إلى التوفيق فيه والبركة وحسن أداء حقوقه. يمكن أن يدعوك هذا النظر إلى دعاء أوسع وإلى تعلم أنفع. وربما أعانك شخص في الطريق؛ فله شكره، وقد تكون عليك حقوق مالية أو أسرية تيسر بعضها بهذا الرزق، فتجعل أداها من أوائل الانتفاع به.

وقد تسمع ثناء على نجاحك، فتجد في نفسك ميلًا إلى تفسيره باستحقاق يرفعك على غيرك. انظر إلى ما تعرفه فعلاً: أخذت بأسباب، وتيسرت أمور، وغاب عنك من أحوال الآخرين كثير. تحدث عن تجربتك بصدق، وانفع بما تعلمت

منها، واذكر حدودها. الفرصة التي حصلت عليها لا تخبرك بمنزلة شخص لم يحصل عليها.

وإن وجدت في العمل أعباء لم تتوقعها، فتعلم كيف تؤديها واستعن بمن يحسنها. لا يلزم أن تكون النعمة سهلة من كل وجه، ولا أن تبقى رغبتك فيها بالصورة التي كانت قبل معرفتها. قد تحتاج إلى تحسين شرط، أو تعديل ترتيب، أو قرار آخر بعد مشورة. احفظ ما عليك من التزام وأمانة أثناء النظر في هذه البدائل.

اختر تغييراً في اليوم يعالج خللاً معلوماً، وسجل أثره بعد وقت مناسب. ما الذي انتظم؟ وما الذي بقي شاقاً؟ وأي حق أديته من رزقك الجديد؟ عندئذ يكون للشكر أثر في فعل تستطيع وصفه، ويبقى القلب سائلاً للمنعمة بعد وصول العطية.

التطبيق العاشر: مساعدة تحولت إلى عبء

وعد شخص صاحبه بمعونة لأنه رأى حاجته وتألم له، ثم تبين أن ما وعد به يتجاوز وقته أو قدرته. يخشى أن يخذله، فيستمر في كلام مطمئن لا يتبعه إنجاز، ويزداد انتظار المحتاج. يحتاج هنا إلى مراجعة الوعد والحق الذي تعلق به، وإلى بيان صادق يتيح للطرف الآخر أن يبحث عن بديل وهو يعلم حقيقة ما يستطيع مساعده.

حدد ما قلت وما فهمه صاحبك منه. هل وعدت بفعل تملكه، أم ذكرت محاولة تتوقف على جهة أخرى؟ هل رتب أمره بناءً على قولك؟ وقد يتعلق بذلك حكم أو التزام يحتاج إلى سؤال؛ فلا تكفي رغبة عامة في إصلاح الموقف. معرفة اللفظ والواقع تساعدك على أن تبلغ المعالجة قدر الأثر الذي نشأ.

تكلم مبكرًا حين يظهر العجز. بيّن ما تستطيع، وما لم يعد في قدرتك، وما بقي احتمالًا. تستطيع أن تقول: أقدر على هذه الخطوة في هذا الوقت، أما النتيجة النهائية فلا أملكها. إن كنت قد قصرت في بيان سابق، فاعترف بما تعرفه وأصلح أثره بحسب ما يلزم. الرفق في العبارة يعين على تلقي الحقيقة، لكنه لا يغني عن وضوحها.

ومن الرحمة أن تبحث عن معونة تناسب حاجته دون أن تعد بها قبل حصولها. قد تدله على جهة يقدر أن يسألها، أو تساعد في إعداد معلومة، أو تقدم جزءًا ممكنًا من الخدمة. وإن استعنت بشخص آخر فاحفظ حقه في القبول والرفض، ولا تنقل إليه سرًا لا حاجة له به. حاجة الأول لا تلغي حقوق من تريد أن يعينه.

وقد يبقى صاحبك متألمًا من التأخير. أصغِ إلى أثر ما وقع، وخذ ما صح من ملاحظته، وافصل ذلك عن اتهام لسريرتك لا يعلمه. إن استطعت إصلاحًا فأدّه، وإن احتجت إلى حد يحفظ

قدرتك فبينه بعدل. ليس عليك أن تخفي حدودك حتى يحسن الناس تصورهم عنك؛ المعونة النافعة تقوم على قدرة يعرفها الطرفان.

بعد بيان قدرتك، سجل الوعد الذي صار واضحًا، وما أتممته منه، وما يحتاج إلى بيان آخر. ثم راجع أسلوبك في الوعود المقبلة: هل تميز القدرة من الرغبة، والمحاولة من النتيجة؟ يرجو القلب أن ينفع، وتزداد معونته صدقًا حين يعرف مقدار ما يملك.

التطبيق الحادي عشر: رجاء الإصلاح في البيت

تكرر خلاف في بيت حول مسؤوليات يومية، وصار كل حديث يبدأ من آخر إساءة. يريد أحد الطرفين أن يتحسن الحال، لكنه يدخل الحوار ليثبت أن الآخر هو سبب كل ما وقع. فيضيق عن سماع طلب محدد، ويخرج من المجلس بالخلاف نفسه. يحتاج رجاء الإصلاح إلى معرفة ما يمكن تغييره من فعله، وإلى حفظ حقه وحق غيره أثناء المطالبة.

اختر أمرًا واحدًا تستطيع وصفه: مهمة لم يتضح المسؤول عنها، أو وقت لا يتفق مع قدرة أحد الطرفين، أو عبارة تتكرر فتؤذي. اذكر الواقع بقدر ما تعرف، وميز ما شاهده غيرك من تفسيرك لقصده. قد يكون الأثر واضحًا وتبقى النية خفية؛

فيصح أن تطلب تغيير الفعل دون أن تحكم على كل ما في قلب صاحبه.

ثم يبين المطلوب بطريقة يستطيع الآخر فهمها. بدل قول عام عن أنه لا يهتم أبدًا، صف الأمر الذي تحتاج إلى اتفاق بشأنه. وقد لا يكون ما تريده حقًا ثابتًا أو قدرة متاحة؛ عندئذ يحتاج إلى تفاهم أو تعلم حكم أو طلب معونة. لا يجعل البرنامج رغبتك حكمًا على الأسرة، ولا يحول كل مخالفة لتوقعك إلى ظلم.

وفي أثناء الكلام راعٍ من لا قدرة لهم على حمل الخلاف. حفظ خصوصية البيت وكرامة أهله جزء من إصلاحه، وطلب المعونة من أمين له موضعه إذا تعذر الحوار أو استمر الأذى. وإن كانت المسألة تتعلق بسلامة أو حق يحتاج إلى حماية، فلا يغني عنه مجرد تحسين عبارة. خذ الأمر إلى الجهة التي تملك العون المناسب بحسب حاله.

بعد الحوار سجل ما اتفق عليه فعلاً، وما بقي موضع اختلاف. قد تكون البداية أن عرف أحد الطرفين حاجة لم يكن ينتبه إليها، أو أن توقفت عبارة مؤذية، أو أن اتضح عجز كان يفسر بأنه إهمال. احفظ هذا النفع، واستمر فيما يثبت من حق، ولا تشترط إصلاح البيت كله في جلسة واحدة كي تعد الخطوة نافعة.

وعند المراجعة التالية اسأل عن الفعل المتفق عليه وعن أثره في اليوم، بدل استحضار تاريخ الخلاف كله في كل مرة. ما الذي أمكن؟ وأين بقيت حاجة إلى ترتيب؟ وما الذي تحتاج إلى اعتذار عنه أنت؟ ويصبح طلب الإصلاح أوضح حين يعرف كل طرف مسؤوليته وقدرة صاحبه.

التطبيق الثاني عشر: التعثر في خلوة رقمية

وجد قارئ أن دخوله إلى هاتفه في وقت معين يعقبه تفريط يعرفه. يعد نفسه كل مرة أن يقوى في المرة التالية، ثم يدخل من الطريق نفسه ويعود إلى النتيجة نفسها. يريد أن يستعيد قدرته على يومه، ويحتاج أن يصل توبته بمعرفة السبب المتكرر، وأن يفرق بين خطوة ممكنة وبين إعلان واسع لا يحدد كيف سيعمل.

صف ما تعلمه من التسلسل: متى يبدأ؟ وبأي سبب ظاهر؟ وما الواجب أو الحق الذي يتأخر بعده؟ احتفظ بالخصوصية، ولا تحتاج أن تكتب تفاصيل الذنب في ورقة معرضة لاطلاع الناس. يكفيك وصف يساعد على معرفة المدخل. وإذا كان الفعل يتعلق بحق أحد أو حكم تجهله فاسأل عنه، فإصلاح الوقت لا يؤدي وحده كل ما قد يلزمك.

اختر تغييرًا واحدًا في الوقت أو الوسيلة، مما تعرف أنه مشروع ومناسب. قد تحتاج إلى إزالة طريق تستخدمه في

الخطأ، أو إلى وضع الهاتف بعيدًا أثناء عمل معلوم، أو إلى تنظيم استخدام مباح طال على حساب واجب. لا تنسب لهذا التدبير فضيلة شرعية خاصة، ولا تجعله كافيًا عن التوبة؛ هو سبب تجرب نفعه، وتراجع أثره بحسب الواقع.

وهيئ لما يليه عملاً معلوماً. بعض العادات تتكرر لأن وقتًا بقي فارغًا أو لأن مهمة شقت فهرب صاحبها منها. إن عرفت هذا السبب صغّر المهمة إلى بداية تستطيعها، أو اطلب ما يعينك على فهمها. أما جمع مهام كثيرة فوق قدرتك فقد يعيدك إلى التأجيل من باب آخر. اعمل على السبب الذي ظهر، واسأل الله العون والثبات.

إذا تعثرت بعد التغيير، فتب وانظر في الذي حدث. ربما بقي طريق أغفلته، أو تغير وقت الضعف، أو كان ترتيبك أضعف من أن يخدم حالك. هذه معلومات تفيد تعديل الخطة، ولا تمنحك حكمًا بأنك لن تصلح. وفي الوقت نفسه، لا تجعل معرفة احتمال العثرة إذناً تستبقي به الذنب من البداية.

عند مراجعة استخدام الهاتف، سجل الفعل الذي أصلحته والواجب الذي حفظته والسبب الذي يحتاج إلى تعديل. العدد وصف لانتظامك في خطوة، لا درجة لإيمانك. وقد تحتاج إلى معونة موثوقة تحفظ شرك وتفهم حالك؛ فاطلبها من طريقها المناسب، وأبق رجاءك متصلًا بالتوبة والعمل والمعرفة.

التطبيق الثالث عشر: العطاء الذي ينتظر الامتنان

أعان شخص قريبًا له، ثم صار يتألم كلما لم يسمع شكرًا يتناسب في ظنه مع ما قدم. يذكر المعروف في الخلاف، ويشعر أن طلباته يجب أن تجاب بسببه. قد تكون له حقوق أخرى تحتاج إلى بيان، لكن المساعدة التي قدمها لا تجعل كل رغبة لاحقة حقًا على من انتفع بها. يحتاج أن يميز ما التزم به الطرفان مما أضافه توقعه بعد العطاء.

ارجع إلى أصل المعونة: هل كانت هبة، أو قرضًا، أو خدمة باتفاق معلوم؟ لكل صورة ما يخصها من حكم وحق. إن جهلت توصيفها فتعلم قبل أن تطالب. قد يكون لك دين تطلبه مطالبةً مشروعةً، وقد تكون أعطيت عن طيب نفس ثم أردت مقابلة لم يتفق عليها. صدق الرجاء يعينك على احتمال هذه المعرفة حين تخالف ما كنت تميل إليه.

ثم انظر في العبارة التي تقولها وقت الخلاف. هل تذكر حقًا ثابتًا، أم تريد أن تجعل الآخر مدينًا لك في اختياراته كلها؟ تستطيع أن تطلب ما تحتاج إليه بوضوح، وأن تعرف أن له قدرة وحقوقًا وحدودًا. وإذا كنت قد حملت نفسك عطاءً فوق طاقتها، فراجع مقدار ما تعرضه في المستقبل بدل أن تحمل المنتفع مسؤولية تقدير لم تبينه له.

وقد يبقى في نفسك ألم من جحود ظهر بقرائن تعرفها. لا يلزم أن تنكر شعورك، ويمكن أن تحفظه في قدره: تعرف المعروف الذي وقع، وتعرف حقه إن وجد، وتختار ما يصلح علاقتك بحسب حكمها. أما أن تجعل غياب الثناء دليلاً على ضياع الأجر عند الله، فانتقال إلى غيب لا تعلمه. اسأل القبول، وأصلح قصدك، وأد ما بقي من حق.

وفي العطاء المقبل اترك للمتفجع مساحة يبين فيها ما يحتاجه وما يقبله. ربما أحببت تقديم خدمة لم يطلبها منك، ثم انتظرت أن يفرح بها على طريقته. تعلم الحاجة قبل القرار، وبين حدود ما تستطيع، واحفظ كرامة من تعينه. ويكون المعروف أهدى إلى مقصده حين يقل ما يحمله من مطالبة خفية.

ولمراجعة توقعك بعد العطاء، اختر موقفًا واحدًا: ما نوع المعونة؟ وما المقابل الذي اتفق عليه؟ وما الذي أضافه توقعك؟ وما العبارة التي تحتاج إلى تركها؟ قد يخف ثقل في العلاقة حين يستقر كل حق في موضعه، ويبقى رجاؤك لما عند الله أوسع من جواب تسمعه من الناس.

التطبيق الرابع عشر: قرار تبين خطؤه

دافع قارئ عن خطة تعلم أو عمل، وأنفق عليها وقتًا، ثم ظهرت معلومة تغير تقديره. يرى من جهده السابق ما يجعل

التراجع صعبًا، ويخشى أن يقال إنه لا يثبت على اختيار. حاجته أن يميز بين ثبات على حق معلوم وتعلق بتقدير بشري ظهر ما يصلحه. والخطة التي كانت مناسبة في وقت قد تحتاج إلى تعديل بعد علم جديد.

اكتب المعلومة التي تغيرت ومصدرها، وما الذي تؤثر فيه من القرار. قد تكون خبرًا يحتاج إلى تثبيت، أو حقيقة ثبتت ولم تؤثر إلا في جزء من الخطة. فاعرف قدرها قبل أن تهدم كل ما سبق. وربما بقيت الغاية نافعة، وصارت الوسيلة أضعف؛ عندئذ يمكن أن تحفظ الغاية وتبحث عن طريق أصلح إليها. وراجع قرار الأمس بما كان معلومًا وقت اتخاذه. إن أغفلت سببًا كان ظاهرًا فتعلم من تقصيرك، وإن ظهرت حقيقة لم يكن في قدرتك معرفتها فلا تلزم نفسك بعلم لاحق قبل مجيئه. هذا الإنصاف يعطيك درسًا تستطيع استعماله، ويمنع أن تصبح المراجعة لومًا عامًا يذهب بقدرتك على القرار التالي.

وقبل التغيير انظر في حقوق من تعلق بالخطة. قد يكون معك شريك، أو لك التزام مالي، أو ينتظر منك شخص عملاً. التعديل الذي ينفعك يحتاج إلى بيان وترتيب يحفظ هذه الحقوق. إن أشكل حكم فسل، وإن احتجت إلى خبرة

فاستعن. لا تجعل رجاء طريق جديد عذرًا لإهمال أثر تركته في طريق قديم.

ثم اختر مقدار التعديل: استمرار مع إصلاح، أو تجربة بديل معلوم، أو توقف عن وسيلة ظهر ضررها. قد يبقى تردد لأنك لا تحيط بكل المستقبل، لكنه يختلف عن قرار بلا معرفة كافية. تحرر ما تعرفه من مصلحة ومشروعية، واسأل الله الخير والتوفيق، واحتفظ بسبب تستطيع شرح اختيارك به. بعد وقت مناسب راجع أثر التغيير بما يظهر من عمل وحق ومعرفة. ما الذي صار أصلح؟ وما الذي بقي محتاجًا إلى بيان؟ وما الدرس الذي ستأخذه إلى تقدير مقبل؟ بهذه المراجعة يحمل الرجاء خبرتك معك، ويتيح لك أن تتعلم دون أن تبقى محبوسًا في الصورة التي صنعتها لقرارك الأول.

التطبيق الخامس عشر: ألم يستفز اللسان

سمع شخص خبرًا عن إساءة وقعت عليه، فاشتد غضبه، وأراد أن ينشر ما يعرفه عن الطرف الآخر ليشعر بشيء من الإنصاف. قد يكون له حق يحتاج إلى طلب، وتبقى الأخبار التي سيقولها محتاجة إلى تثبت، والقدر الذي ينشره محتاجًا إلى نظر. يساعده الرجاء على حمل الألم مع حفظ العدل، ثم على اختيار سبب يصلح ما يستطيع إصلاحه.

اجمع الوقائع التي تعرفها، وافصل بينها وبين ما سمعته ولم يثبت. قد يكون بعضها متعلقًا بحقك، وبعضها لا حاجة له في معالجة المظلمة. احفظ الدليل اللازم، وتعرف إلى الطريق المشروع للبيان والمطالبة. إن احتجت إلى حكم أو اختصاص فاسأل أهله؛ لا يكفي أن تكون متألمًا كي يصير كل ما تفعله في حق الآخر مشروعًا.

وقبل إرسال رسالة غاضبة اسأل عن غايتها ومن يحتاج إلى تلقيها. هل تبين طلبًا معلومًا لجهة تستطيع النظر فيه، أم تدعو الناس إلى غضب لا يزيد معرفتهم بالحق؟ يمكن أن يكون الكلام واضحًا وحازمًا دون زيادة تعلم أنها غير صحيحة. وإذا بقي أثر مهم تجهله، فالتثبت يعينك على ألا تضيف إلى مظلمتك مظلمة أخرى.

وقد يعرض عليك أحد العفو. تستطيع أن تسمع ما يبينه من فضل ومصلحة، ثم تتبين حكم حالك وما يصلحها. العفو الذي تملكه يختلف عن حقوق أو تمتت عليها لغيرك، ومطالبتك المشروعة لا تمنع أن تتعلم الصبر أثناءها. لا يحمل التدريب المتضرر على تنازل معين، ولا يجعل الانتصار اسمًا لتجاوز الحد.

وإذا طال الأمر، فانظر في العون الذي تحتاجه كي تحسن حمله. قد يكون بيانًا من أمين، أو مشاركة في إجراء، أو ترتيبًا

يخفف عبئًا آخر عن يومك. تستطيع أن تخبر من يعينك بما يلزمه من واقع، مع حفظ الخصوصية. إنصافك لنفسك يجتمع مع إنصاف الآخر، ويحتاج كلاهما إلى معرفة وحد تلتزمه. في المتابعة سجل ما ثبت من الحق، وما سلكته من طريق، وما كفت عنه من تجاوز كان الغضب يدعوك إليه. وقد تبقى المظلمة دون حل سريع، وتكون قد حفظت في أثنائها عدلاً تستطيع معرفته. اسأل الله الجبر والفرج والهداية لأصلح الفعل؛ فإن رجاء ما عنده يعينك على مشقة لا يملك الناس إنهاءها فوراً.

التطبيق السادس عشر: صحبة تعين ولا تحمل عنك حياتك
وجد قارئ في صاحبه تشجيعاً على التعلم والطاعة، ثم صار انتظامه متعلقاً بحضور هذا الصاحب. إذا غاب انقطع، وإذا اختلف معه ضاق عن كل ما أعانه عليه. في هذه العلاقة معروف يستحق الشكر، وحاجة إلى بناء يستطيع الاستمرار عند تغير الظروف. فالصحبة النافعة تعين الإنسان على معرفة طريقه وحمل مسؤوليته.

حدد ما كان صاحبك يقدمه: تذكيراً في وقت، أو جواباً عن سؤال، أو مشاركة في تعلم، أو تنظيمًا يسهل البدء. كلما تبينت نوع المعونة أمكنك أن تحفظ نفعها من طريق آخر مشروع إذا

تعذر وجوده. قد تتعلم كيف تضبط الموعد بنفسك، أو تعرف جهة تسألها، أو ترتب قدرًا من القراءة تستطيع متابعتها.

واشكر من أعانك دون أن تمنحه حكمًا في كل ما يتعلق بحياتك. قد يحسن شيئًا ويجعل آخر، وقد يستطيع في وقت ويعجز في غيره. سؤال أهل العلم والخبرة بحسب الحاجة يحفظ حدود المعونة، كما يحفظ حق صاحبك في وقته وخصوصيته. وليس من الوفاء أن تحمله ما لم يلتزمه أو تطلب منه ضمان انتظامك.

وقد تختلفان في رأي أو طريقة. انظر إلى ما ثبت من حجته وما يتعلق به من حكم، وافصل ذلك عن أثر الضيق من الخلاف. قد يبقى معروفه كما بقي حقك في اختيار مشروع تعرف سببه. فإن كان قد أخطأ في بيان مهم، تعلم تصحيحه من أهله، وإن أساء إليك فاطلب ما يحفظ حقك بعدل؛ لا يلزم أن تهدم كل ما تعلمته على يده.

وإن كنت أنت من يعين غيره، فاسأل عما صار يستطيع أدائه دون تذكرك. قد يكون من نفعك أن تعلمه كيف يسأل، وكيف يراجع خطة، وكيف يميز الواجب من التطوع. افرح بنمو قدرته، وابق حاضرًا حين يحتاج إلى عون تستطيع تقديمه. المعونة التي تزداد نفعًا قد يقل معها احتياج صاحبها إلى حضورك في كل تفصيل.

راجع بعد مدة خطوة حفظتها عند غياب المعين، ومعوونة طلبتها من طريق مناسب، وحقًا رعيته في العلاقة. ثم اسأل الله الثبات والتوفيق، واشكر من يسر لك سببًا نافعًا. تعرف بهذا النظر حاجتك إلى الناس وحدودها، ويظل تعلق العبادة بربك الذي تحتاج إليه في كل حال.

التطبيق السابع عشر: المقارنة التي أفسدت السعي

يتعلم شخص مهارة نافعة، ثم يرى نجاحًا سريعًا لغيره فيظن أن بطأه حكم على قدرته كلها. يكثر متابعة النتائج، ويقل الوقت الذي يراجع فيه فعله. يريد أن يعرف كيف يتحسن، لكن المقارنة تعطيه صورة ناقصة: يرى ما ظهر للآخر، ويجهل كثيرًا من خبره وسعيه وظروفه. يحتاج إلى معيار يبين جودة خطوته هو وما ينقصها.

اختر جزءًا من العمل يمكن أن تتعرف إلى تحسنه. في التعلم قد يكون فهم مسألة وشرحها، أو تصحيح خطأ يتكرر، أو أداء مهمة وفق شروط معلومة. تعلم المعيار من صاحب معرفة إذا احتجت. لا تكتف بعد الساعات؛ فزمن كثير في طريقة ضعيفة قد يحتاج إلى تغيير، وزمن أقل مركز قد يكشف لك ما عجزت عن فهمه من قبل.

ثم انظر إلى يومك وقدرتك. هل المدة التي اخترتها تناسب مسؤولياتك؟ هل بدأت بمادة تفوق ما تحتاج إليه من

مقدمات؟ هل تعرف من يمكن أن يبين لك موضع الخطأ؟ هذه أسئلة تصل إلى تعديل ممكن. أما قولك إن كل جهدك لا قيمة له، فيلغي ما تعلمته ويخفي الشيء المحدد الذي يحتاج إلى إصلاح.

واستفد من نجاح غيرك بقدر ما تعرفه عنه. تستطيع أن تسأله عن طريقة نافعة، وأن تهنئه، وأن تتعلم مما يوضحه. وتظل تجربته محتاجة إلى نظر في ملاءمتها لحالك. ما نفعه لا يمنحك وعدًا بالمدة نفسها، وما لا تستطيع تقليده لا يمنع وجود طريق آخر تستطيع سلوكه. احفظ حقه في فرحه وحق نفسك في معرفة الواقع.

إذا بقي البطء بعد تعديل واضح، فراجع مع من يعرف المجال ما يمكن تعلمه من الأثر. ربما احتجت إلى وقت، وربما تبين عائق آخر، وربما تغيرت الغاية بعد علم جديد. اتخذ قرارك بما يظهر من سبب ومصلحة، مع حفظ الالتزامات القائمة. حسن الظن بالله يصحب هذا التعلم، ولا يلزمك الدفاع عن خطة ضعيفة كي يبقى رجاؤك.

في المتابعة اكتب ما تعلمته فعلاً، والخطأ الذي قل، والسؤال الذي بقي. وحين تعود المقارنة إلى ذهنك، ارجع إلى هذه الوقائع وإلى خطوة تحتاجها. قد لا يكون طريقك الأسرع في

أعين الناس، ويكون فيه من النفع ما يظهر لك حين تحسن استعمال وقتك ومعرفتك وتظل سائلًا للتوفيق.

التطبيق الثامن عشر: مراجعة شهر لم يحقق كل مطلوبه
 انتهى الشهر الذي رتبته قارئ لنفسه، فوجد أنه تعلم أشياء وفعل بعضها، وبقي بعض طلبه كما كان. يريد حكمًا واحدًا على التجربة كلها: نجاح تام أو فشل تام. لكن المراجعة الدقيقة تعطيه صورة أنفع؛ تميز العلم الذي حصل، والفعل الذي تحسن، والنتيجة التي لم تظهر، والحق الذي بقي يحتاج إلى أداء.

ابدأ بما وقع فعلاً. عد إلى سجلك، واختر وقائع محددة بدل الاعتماد على انطباع آخر يوم. قد تكون تواصلت مع صاحب حق، أو تعلمت جوابًا، أو غيرت وقت مهمة فانتظمت بعض أيامها. ذكر هذه الأفعال يحفظ خبرتك، ولا يخبرك وحده بقبول العمل أو درجة قلبك. تحمد الله على ما يسر، وتسأل القبول، وتعرف موضع ما بقي.

ثم ابحث عن أسباب التعثر التي تستطيع وصفها. حملت نفسك مقدارًا كبيرًا، أو تأخر جواب تحتاجه، أو تغيرت مسؤولية في بيتك، أو أغفلت واجبًا كان أولى. لكل سبب أثر يخصه؛ فتقلل الاختياري إذا شق، وتسأل فيما جهلت، وتعيد الترتيب إذا تغيرت القدرة، وتستغفر وتصلح إذا فرطت.

التفصيل يخرجك من تكرار الحكم العام إلى اختيار خطوة مناسبة.

وانظر إلى النتيجة التي كنت تريدها. هل كانت في قدرتك وحدك، أم تعلقت بغيرك أو بمدة لم تعلمها؟ قد تكون أصلحت ما عليك، وبقي للطرف الآخر حقه في الاختيار أو حاجته إلى وقت. وقد تكون الوسيلة لم تخدم المطلوب فتحتاج إلى مراجعة. تميز هذين الحالين بما تعرفه، وتطلب علمًا إضافيًا حين لا يكفي ما عندك.

واحتفظ في الشهر التالي بما ظهر نفعه، واختر تعديلاً محدودًا. لا تحتاج إلى زيادة المهام تعويضًا عن أيام فائتتك، ولا إلى إلزام تعبدي جديد. قد يكفي استمرار فعل واحد ومراجعة قريبة تختار وقتها. وإن كانت الحاجة أوسع من برنامج فردي، فالتمس المعونة المناسبة؛ فقد يكون اكتشاف حاجتك إليها من ثمرات هذا الشهر.

اخرج بجواب عن ثلاثة أمور: ما العلم الذي أحفظه وأعمل به؟ وما الفعل الذي أستمر عليه؟ وما الحق أو السؤال الذي أبدأ به الآن؟ ثم اسأل الله تمام فضله عليك. مضي المدة يفتح مراجعة، ويستطيع رجاؤك أن يصحبك بعدها كما صحبتك في بدايتها؛ تتعلم وتعمل وترجع، ويبقى فضله أوسع مما أحطت به من تجربتك.

مراجعة التطبيقات بعد العمل

إذا عملت بشيء من هذه التطبيقات، فراجع الفعل الذي اخترته وسبب اختياره، ثم ما ظهر من أثره وما بقي مجهولاً. وإذا تغيرت الخطة عن أولها بسبب معرفة صحيحة، فاذا هذا السبب لتحتفظ بالدرس، ولا تجعل كل تعديل نقصاً لما تعلمت. وإذا وجدت حقاً أهملته فابدأ بمعرفة ما يلزمك فيه. ليست كثرة الإجابات غاية للورقة، وإنما نفعها أن تعينك على عمل أوضح وسؤال أدق.

ولمن يناقش التطبيقات مع غيره أن يصغي إلى اختلاف الحال. قد يستطيع أحدهما خطوة يعجز عنها الآخر، أو يكون في موقفه التزام لم يكن في المثال. تعرض الفائدة التي فهمتها، وتساءل عما يحتاجه، وتحفظ خصوصيته، فلا تطلب تفصيلاً لا يحتاجه النقاش. وما يتصل بحكم خاص أو اختصاص يرد إلى أهله. بذلك تبقى الصحبة في التدريب معونة على التعلم، ويظل كل إنسان مسؤولاً عما يعرفه ويقدر عليه.

ورقة المتابعة المختصرة

التاريخ	المطلب المشروع	الفعل الذي التزمت به	ما وقع فعلاً	المانع أو الدرس	الخطوة التالية
يملؤه القارئ	وصف موجز	فعل يمكن ملاحظته	تم أو لم يتم مع بيان موجز	حقيقة محددة	تعديل ممکن

يمكن أن تعد الأفعال التي التزمت بها ثم أتممتها لتعرف
ملاءمة خطتك. العدد يصف ما سجلته من فعل، دون أن
يقيس صدق قلبك أو قبول ربك. ومن احتاج إلى مساعدة
طلبها، ومن استطاع فعلاً واحداً أحسنه. وكثرة الصفحات
المكتوبة لا تحمل فضلاً مستقلاً؛ ربما كفت ورقة تبين موضع
الإصلاح ويتبعها عمل واضح.

تختم ورقة الشهر بثلاثة أشياء: فائدة تعلمتها، وفعل تحسن،
 وحق ما زال يحتاج إلى أداء أو سؤال. إذا ظهر تعديل نافع،
 أثبتته في المتابعة التالية، واختر لها وقتًا يناسبك. وقد تحتاج
 إلى الرجوع إلى جهة علم أو خبرة قبل استئناف بعض
 الخطوات. وربما كان أعظم نفع التجربة أن عرفت كيف تبدأ
 من جديد، وأن صارت معونتك المطلوبة أوضح وأقرب إلى
 العمل.

اسأل الله التوفيق والقبول، واستعن من البرنامج بما يخدم
 حالك، وأبق للرجوع والتعديل مجالاً. ما ترجوه من فضل الله
 يظل دعاء وافتقاراً، وما تعلمته من طريق نافع تعطيه موضعه
 في يومك.

الفصل الثاني والسبعون: لا تقنطوا مرة أخرى

ربما دخلت هذه الصفحات وفي قلبك ذنب يؤلمك، أو مطلب طال انتظاره، أو خوف من أن يكون ما فات قد أغلق عليك ما بقي. تنطوي الصفحات وتظل حاجتك إلى فضل الله قائمة، ويبقى في يومك موضع لعمل نافع. ما عرفته يعينك أن ترى حاجتك على قدرها: حق يحتاج إلى أداء، أو جهل يحتاج إلى بيان، أو ضعف يحتاج معه إلى عون. تحمل كل أمر إلى طريقه، وتسال ربك الخير والثبات والقبول.

ومن أول الكتاب إلى آخره يبقى النداء: ﴿لَا تَقْنُطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر:53]، ويبقى سياقه داعياً إلى الإنابة والإسلام. تعرف سعة الرحمة فيفتح لك العلم بها باب الرجوع، وتعرف ما عليك من حق فيدعوك إلى العمل. إذا وقعت عثرة، عدت إلى هذا الأصل وأنت ترى موضع الإصلاح؛ وما علمته من ضعف نفسك يزيد حاجتك إلى الاستعانة، ويبين سبباً ينبغي النظر فيه.¹³³

133 ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير سورة الزمر، الآية 53، في النص الإلكتروني للتفسير.

ما تحمل معك بعد القراءة

وقد تتعدد أمامك المطالب حتى يبدو كل واحد منها صغيراً بجانب البقية. تريد أن تصلح علاقة، وتتعلم حكماً، وتنظم عبادة، وترد حقاً مؤجلاً. تختلف هذه الأمور في حكمها وفي قدرتك عليها؛ فيبدأ النظر بما لزم وظهر سبيله، ويطلب البيان فيما اشتبه، ويعطي للتطوع من الوقت ما يحتمله الحال. يتضح العمل حين تعرفه وصفاً يمكن مراجعته، وتعرف من يحتاج إليه أو من يعينك عليه.

وكلما عاد ذهنك إلى طلب ضمان للمستقبل، رد النظر إلى ما تعلمه الآن. الاعتذار الصادق فعل تستطيع أدائه، ورضا من اعتذرت إليه أمر لا تملكه وحدك. طلب العلم خطوة يمكنك البدء بها، وسرعة أثره تحتاج إلى ما يظهر لك من حالك وطريقتك. تجمع ما علمت من أسباب الخير، وتدعو بما ترجوه، وتبقي الغد في موضعه من الجهل والافتقار. بهذا تجد لرجائك عملاً دون أن يحمل دعوى خاصة عن نتيجة مقبلة.

ربما اشتقت إلى أثر القراءة الذي حضر أول مرة، فظننت أن ضعف ذلك الشعور ضعف لكل ما تعلمت. انظر إلى موضع أقرب: هل صرت أبصر بحق كنت تغفله؟ هل تعرف الآن من

تسأله؟ هل سهل عليك رد عبارة حكمت بها على المستقبل؟
قد يهدأ الانفعال، وتبقى هذه المعرفة معك لتعينك عند
الحاجة. احفظها بالعمل والرجوع إلى مصدرها، واسأل الله أن
يجعلها نافعة.

والرجوع مشقة حين تتذكر بدايات كثيرة لم تتم. قد يكون
في بعضها ذنب يحتاج إلى توبة، وفي بعضها تنظيم تجاوز
قدرتك، وفي بعضها جهل بالطريق. اختلاف أسبابها يعطي
للمراجعة فائدة: تعرف ما يلزم تركه، وما ينبغي تعلمه، وما
تستطيع تعديله. فإذا كان العجز أو المرض مؤثراً، طلبت بيان
ما يسعك بحسب الحال، واستعنت بما يناسبه من رعاية
ومعونة. تحتاج إلى صدق يميز التقصير من العذر، وإلى علم
يعرف لكل منهما حقه.

وحين ترى أثراً نافعاً، تحمد الله وتتعلم كيف تحفظ سببه. قد
رد حق، أو صحح خطأ، أو انفتح سؤال كان الحرج يؤخره.
هذه أفعال تستطيع وصفها، وتسأل الله قبولها. أما منزلة قلبك
وتمام مقامك، فليس مما تثبته ورقة متابعة أو عدد خطوات.
فرحك بما وفقك الله إليه يحمله الشكر، وحاجتك إلى ما بقي
يحملها الدعاء والعمل؛ وتبقى المراجعة نافعة في الحالين.

وقد ينتفع غيرك بخبرتك، فتذكر له ما تعلمته وحد ما تدل
عليه تجربتك. ربما اختلفت قدرته وظروفه، أو احتاج إلى

معونة لم تكن أنت محتاجًا إليها. تعينه أن يعرف طريقًا مشروعًا يناسب حاله، وتحفظ له حقه في السؤال والاختيار. تقدم ما تستطيع من عون، وتدعو له بما يرجوه من خير، وتقف عن منحه وعدًا لا تملكه أو جعل تجربتك حكمًا على كل ما يمر به الناس.

ويمكن لما تعلمته أن يعود إليك من موقف صغير. تسمع عبارة تقنط مذنبًا، فتردها إلى ما يعرف المتكلم من حكم الفعل، وتفتح للمخطئ طريق توبة وإصلاح. أو تقابل متضررًا، فتعينه على حفظ حقه دون أن تزيد غضبه بدعوى لا تثبت. أو تجد عندك نعمة، فيذكرك الشكر بحق صار أداؤه ممكنًا. هكذا يجد العلم مواضعه في يوم مختلف عن يوم القراءة، ويبقى محتاجًا إلى فهم وحدود تصون معناه.

لك أن تحفظ لنفسك عبارة يصدقها عمل ممكن: «أرجو فضل الله، ولذلك سأبدأ ب...». تسمي الفعل وتتحرى مشروعيتها وتختار وقتًا مناسبًا لمراجعتها، مع علمك أن هذا تنظيم يمكنك تعديله، دون نذر أو إلزام تعبدي جديد. وقد بدأت، وبقيت حاجتك إلى الله بعد البداية كما كانت قبلها؛ تسأله أن يحفظ عليك القصد، وأن يفتح لك من العلم والعون ما يتم به العمل. اللهم ارزقنا رجاءً صادقًا، وتوبةً نصوحًا، وعملاً تتقبله بفضلك. وأعنا على ما علمنا من حق، واهدنا فيما جهلنا، واجعلنا أرفق بخلقك وأصدق في الرجوع إليك. نسألك الثبات على طاعتك، والرحمة حين نضعف، والعون الذي نحسن به ما بقي من أيامنا.

خاتمة

تبقى بعد انطواء الصفحات حاجتك إلى رحمة الله، ويبقى في يومك موضع لخير تستطيع فعله. قد عرفت ذنبًا يحتاج إلى توبة، أو حقًا ينتظر أداءه، أو سؤالًا كان طلب جوابه أول الطريق. وما رجوتَه من عون ربك تصحبه هذه المعرفة؛ تقصده محتاجًا، وتستعين به، وتحمل العلم الذي نفعتك إلى عملك.

ويمضي معه من هذا الكتاب فرق يحفظ عليه نظره: يعرف ما ثبت فيؤمن به، وما لزمه فيعمل به، وما جهله فيسأل عنه، وما رجاه فيدعو به. فإن تعثر عاد إلى موضع الخلل، وإن وفق شكر، وإن تأخر المطلوب بقي باب العبادة مفتوحًا في يومه. وما يخص غيره من حق يبقى حاضرًا في سعيه، كما يحب أن يكون حقه حاضرًا في سعي الناس.

نسأل الله أن يرزقنا رجاءً صادقًا وحسن ظن به، وأن يعيننا على التوبة والعمل، وأن يجعلنا أرفق بخلقه وأصدق في أداء ما علينا. وأن يثبت قلوبنا على طاعته، ويتوفانا على الإيمان، ويشملنا بفضله ورحمته.

فهرس الآيات

- الزمر:53: الفصل 1، ص13، الفصل 72، ص412.
- الزمر:54: الفصل 1، ص13.
- الإسراء:57: الفصل 2، ص19.
- البقرة:197: الفصل 4، ص30.
- البقرة:201: الفصل 6، ص40.
- الكهف:110: الفصل 6، ص40، الفصل 46، ص248، الفصل 60، ص321.
- الأنبياء:90: الفصل 7، ص45.
- البقرة:218: الفصل 9، ص57.
- يوسف:87: الفصل 10، ص62.
- يوسف:86: الفصل 10، ص62.
- السجدة:16: الفصل 15، ص87.
- فاطر:29: الفصل 17، ص98.
- المؤمنون:60: الفصل 20، ص114.
- الحجر:49-50: الفصل 26، ص145.

- فصلت:23: الفصل 34، ص 187.
- النساء:48: الفصل 35، ص 192.
- المنافقون:11: الفصل 36، ص 197.
- الفجر:15-17: الفصل 37، ص 202.
- الفرقان:70: الفصل 38، ص 207.
- النحل:53: الفصل 40، ص 217، الفصل 42، ص 228.
- الأعراف:180: الفصل 41، ص 223.
- البقرة:186: الفصل 43، ص 233.
- النساء:104: الفصل 56، ص 300، الفصل 68، ص 361.
- البقرة:127: الفصل 59، ص 316.
- الشورى:40: الفصل 67، ص 356.
- الشورى:41: الفصل 67، ص 356.

فهرس الأحاديث

البخاري، الصحيح، كتاب المغازي، حديث أنس بن مالك، رقم 4423. — الفصل 3، ص 25.

مسلم، الصحيح، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب العزم بالدعاء ولا يقل إن شئت، حديث أبي هريرة، رقم 2679. — الفصل 44، ص 238.

مسلم، الصحيح، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله، حديث أبي هريرة، رقم 2664. — الفصل 4، ص 30، الفصل 22، ص 124، الفصل 55، ص 295.

البخاري، الصحيح، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾، حديث أبي هريرة، رقم 7405. — الفصل 5، ص 35، الفصل 11، ص 67، الفصل 66، ص 352.

مسلم، الصحيح، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه، حديث أبي هريرة، رقم 2752، رواية «إن لله مائة رحمة». — الفصل 12، ص 72.

البخاري، الصحيح، كتاب بدء الخلق، حديث أبي هريرة، رقم 3194. — الفصل 13، ص 77.

البخاري، الصحيح، كتاب المرضى، باب تمني المريض الموت،
حديث أبي هريرة، رقم 5673. — الفصل 14، ص 82، الفصل
28، ص 155، الفصل 60، ص 321.

مسلم، الصحيح، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى
وأنها سبقت غضبه، حديث أبي هريرة، رقم 2755. — الفصل
15، ص 87.

مسلم، الصحيح، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الأمر
بحسن الظن بالله تعالى عند الموت، حديث جابر، رقم 2877.
— الفصل 16، ص 92، الفصل 29، ص 160، الفصل 70،
ص 371.

مسلم، الصحيح، كتاب التوبة، باب في الحض على التوبة
والفرح بها، حديث أنس، رقم 2747. — الفصل 18، ص 103.

مسلم، الصحيح، كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب
وإن تكررت الذنوب والتوبة، حديث أبي هريرة، رقم 2758
— الفصل 19، ص 108، الفصل 50، ص 269.

الترمذي، الجامع، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة
المؤمنون، حديث عائشة، رقم 3175 — الفصل 20، ص 114،
الفصل 30، ص 165.

البخاري، الصحيح، كتاب المظالم، باب من كانت له مظلمة عند الرجل فحلها له هل يبين مظلمته، حديث أبي هريرة، رقم 2449. — الفصل 21، ص 119.

مسلم، الصحيح، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب بيان أنه يستجاب للداعي ما لم يعجل فيقول دعوت فلم يستجب لي، حديث أبي هريرة، رقم 2735. — الفصل 23، ص 129، الفصل 24، ص 134، الفصل 44، ص 238، الفصل 54، ص 290.

الترمذي، الجامع الكبير، كتاب الدعوات، حديث أنس، رقم 3540، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط 1، 1996م، ج 5، ص 509-510 — الفصل 58، ص 311.

البخاري، الصحيح، كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل، حديث عائشة، رقم 6465. — الفصل 46، ص 248، الفصل 65، ص 347.

مسلم، الصحيح، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته، حديث ثوبان، رقم 591. — الفصل 49، ص 264.

البخاري، الصحيح، كتاب في الاستقراض وأداء الديون والحجر والتفليس، باب من أخذ أموال الناس يريد أداءها أو

إتلافها، حديث أبي هريرة، رقم 2387. — الفصل 52،
ص 279.

البخاري، الصحيح، كتاب الأحكام، حديث عبد الله بن عمر،
رقم 7138. — الفصل 53، ص 285.

البخاري، الصحيح، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله
ومعانقته، حديث عمر بن الخطاب، رقم 5999. — الفصل
57، ص 306.

مسلم، الصحيح، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله
خير، حديث صهيب، رقم 2999. — الفصل 51، ص 274.

مسلم، الصحيح، كتاب القدر، حديث عبد الله بن عمرو بن
العاص، رقم 2655. — الفصل 61، ص 326.

البخاري، الصحيح، كتاب الذبائح والصيد، باب المسك، حديث
أبي موسى، رقم 5534. — الفصل 47، ص 253.

مسلم، الصحيح، كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر
قتله، حديث أبي سعيد الخدري، رقم 2766. — الفصل 45،
ص 243.

مسلم، الصحيح، كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن
تقنيط الإنسان من رحمة الله تعالى، حديث جندب، رقم
2621. — الفصل 69، ص 366.

مسلم، الصحيح، كتاب الإمارة، باب استحباب طلب الشهادة في سبيل الله تعالى، حديث سهل بن حنيف، رقم 1909. — الفصل 3، ص 25.

البخاري، الصحيح، كتاب الحج، باب قول الله تعالى: وتزودوا فإن خير الزاد التقوى، حديث ابن عباس، رقم 1523. — الفصل 4، ص 30.

مسلم، الصحيح، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، حديث أبي هريرة، رقم 2720. — الفصل 6، ص 40، الفصل 44، ص 238.

البخاري، الصحيح، كتاب العلم، باب من خص بالعلم قومًا دون قوم كراهية أن لا يفهموا، حديث أنس بن مالك، رقم 128. — الفصل 27، ص 150.

البخاري، الصحيح، كتاب الرقاق، باب ما جاء في الرقاق وأن لا عيش إلا عيش الآخرة، حديث ابن عباس، رقم 6412. — الفصل 28، ص 155.

البخاري، الصحيح، كتاب الجهاد والسير، باب يكتب للمسافر مثل ما كان يعمل في الإقامة، حديث أبي موسى الأشعري، رقم 2996. — الفصل 29، ص 160، الفصل 51، ص 274.

البخاري، الصحيح، كتاب الدعوات، باب أفضل الاستغفار،
 حديث شداد بن أوس، رقم 6306. — الفصل 41، ص 223.
 مسلم، الصحيح، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب
 استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب، حديث أنس بن
 مالك، رقم 2734. — الفصل 42، ص 228.

مسلم، الصحيح، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب
 استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته، حديث المغيرة بن
 شعبة، رقم 593. وتفسير «الجد» من النووي، المنهاج شرح
 صحيح مسلم بن الحجاج، باب ما يقول إذا رفع رأسه من
 الركوع، عند شرح حديث 477، في النص الإلكتروني للشرح
 — الفصل 49، ص 264.

البخاري، الصحيح، كتاب الكفالة، باب الكفالة في القرض
 والديون بالأبدان وغيرها، حديث أبي هريرة، رقم 2291.
 وابن حجر، فتح الباري، شرح كتاب الكفالة، باب قول الله
 تعالى: والذين عاقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم، عند قوله
 «وقال الليث حدثني جعفر بن ربيعة» — الفصل 52،
 ص 279.

فهرس أقوال العلماء

ابن قيم الجوزية، الداء والدواء، تحقيق محمد أجمل الإصلاحي، وتخرّيج زائد بن أحمد النشيري، دار عالم الفوائد، ط1، 1429هـ، ص 48-49؛ والعبارة المنقولة في ص 48. — الفصل 5، ص 35، الفصل 32، ص 175، الفصل 33، ص 181. ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين في منازل السائرين، ج 2، تحقيق نبيل بن نصار السندي، دار عطاءات العلم ودار ابن حزم، ط2، 1441هـ/2019م، ص 259-265 و 267-271 و 280-284؛ التعريف والأنواع في ص 260. والاعتراض على قوة منزلة الرجاء من كلام الهروي الذي يناقشه ابن القيم، وليس خلاصة مذهب ابن القيم. — الفصل 2، ص 19، الفصل 3، ص 25، الفصل 7، ص 45، الفصل 63، ص 336.

ابن تيمية، مجموع الفتاوى، جمع عبد الرحمن بن محمد بن قاسم وابنه محمد، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، 1425هـ/2004م، ج 10، ص 240-243. — الفصل 25، ص 140، الفصل 63، ص 336.

خالد بن عثمان السبت، أعمال القلوب، دار ابن الجوزي، ط1، 1438هـ/2017م، ج 2، قسم الرجاء، ص 53-116؛ وللتصنيف والدرجات ص 97-99، ولأسباب تنمية الرجاء ص

100-105، ولثمراته ص 106-112. — الفصل 25،
ص 140، الفصل 29، ص 160، الفصل 31، ص 170، الفصل
40، ص 217، الفصل 42، ص 228، الفصل 48، ص 258،
الفصل 55، ص 295، الفصل 64، ص 341.

ابن قيم الجوزية، كتاب الروح، تحقيق محمد أجمل أيوب
الإصلاحي، وتخرّيج أحاديث كمال بن محمد قالمي، دار عالم
الفوائد، ص 692-693. عبارة «رؤوس أموال المفاليس»
أوردها ابن القيم؛ ولا ينسب إليه ابتكارها. — الفصل 33،
ص 181.

النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، باب لن
يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى، عند شرح حديث
مسلم 2816، في النص الإلكتروني للشرح. — الفصل 14،
ص 82.

مسلم، الصحيح، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب
استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته، حديث المغيرة بن
شعبة، رقم 593. وتفسير «الجد» من النووي، المنهاج شرح
صحيح مسلم بن الحجاج، باب ما يقول إذا رفع رأسه من
الركوع، عند شرح حديث 477، في النص الإلكتروني للشرح؛
والشرح للعبارة المشتركة، دون خلط متني الحديثين. —
الفصل 49، ص 264.

البخاري، الصحيح، كتاب الكفالة، باب الكفالة في القرض والديون بالأبدان وغيرها، حديث أبي هريرة، رقم 2291. وابن حجر، فتح الباري، شرح كتاب الكفالة، باب قول الله تعالى: والذين عاقدت أيمانكم فآتوهم نصيبتهم، عند قوله «وقال الليث حدثني جعفر بن ربيعة»؛ وباب التجارة في البحر، في النص الإلكتروني للشرح. وينظر: خالد السبت، أعمال القلوب، ج 2، ص 111. — الفصل 52، ص 279.

عبد العزيز بن عبد الله بن باز، فتوى «هل الرحمة منها مخلوقة وغير مخلوقة؟»، في موقعه الرسمي؛ وشرحه لحديث «أنا عند ظن عبدي بي»، الدرس 51، عند حديث خلق مائة رحمة، في النص المكتوب المنشور على موقعه الرسمي. — الفصل 12، ص 72.

فهرس القصص والتطبيقات

- يعقوب وبنوه — الفصل 10، ص62، الفصل 31، ص170.
- فرح التائب — الفصل 18، ص103.
- قاتل المائة — الفصل 45، ص243.
- الوفاء بالدين — الفصل 52، ص279.
- الأم مع ولدها في السبي — الفصل 57، ص306.
- إبراهيم وإسماعيل يسألان القبول — الفصل 59، ص316.
- برنامج ثلاثين يومًا والتطبيقات الثمانية عشر — الفصل 71، ص376.

فهرس الموضوعات

- الفصل الأول: لا تقنطوا — الفصل 1، ص 13.
- الفصل الثاني: قلب يتطلع — الفصل 2، ص 19.
- الفصل الثالث: الرجاء والتمني — الفصل 3، ص 25.
- الفصل الرابع: الأسباب ليست خصم الرجاء — الفصل 4، ص 30.
- الفصل الخامس: حسن الظن — الفصل 5، ص 35.
- الفصل السادس: ما الذي نرجوه؟ — الفصل 6، ص 40.
- الفصل السابع: الرجاء والمحبة — الفصل 7، ص 45.
- الفصل الثامن: تعريف يتحرك — الفصل 8، ص 51.
- الفصل التاسع: أولئك يرجون رحمة الله — الفصل 9، ص 57.
- الفصل العاشر: لا تيأسوا من روح الله — الفصل 10، ص 62.
- الفصل الحادي عشر: أنا عند ظن عبدي — الفصل 11، ص 67.
- الفصل الثاني عشر: مائة رحمة — الفصل 12، ص 72.
- الفصل الثالث عشر: سبقت رحمتي غضبي — الفصل 13، ص 77.

الفصل الرابع عشر: لا يدخل الجنة بعمله — الفصل 14، ص 82.

الفصل الخامس عشر: خوفاً وطمعاً — الفصل 15، ص 87.

الفصل السادس عشر: عند الموت يحسن الظن — الفصل 16، ص 92.

الفصل السابع عشر: طاعة ورجاء — الفصل 17، ص 98.

الفصل الثامن عشر: توبة ورجاء — الفصل 18، ص 103.

الفصل التاسع عشر: المقصر الذي يرجع — الفصل 19، ص 108.

الفصل العشرون: العامل يخاف الرد — الفصل 20، ص 114.

الفصل الحادي والعشرون: بعد الذنب — الفصل 21، ص 119.

الفصل الثاني والعشرون: السبب والتفويض — الفصل 22، ص 124.

الفصل الثالث والعشرون: العمل قبل الثمرة — الفصل 23، ص 129.

الفصل الرابع والعشرون: لا وعد خاص — الفصل 24، ص 134.

الفصل الخامس والعشرون: جناحان — الفصل 25، ص 140.

- الفصل السادس والعشرون: نبى عبادي — الفصل 26،
ص 145.
- الفصل السابع والعشرون: لكل حال دواؤها — الفصل 27،
ص 150.
- الفصل الثامن والعشرون: في الصحة — الفصل 28، ص 155.
- الفصل التاسع والعشرون: في المرض والاحتضار — الفصل
29، ص 160.
- الفصل الثلاثون: يؤتون ما آتوا — الفصل 30، ص 165.
- الفصل الحادي والثلاثون: خوف لا يقنط — الفصل 31،
ص 170.
- الفصل الثاني والثلاثون: رجاء لا يجزئ — الفصل 32،
ص 175.
- الفصل الثالث والثلاثون: أمانى المفاليس — الفصل 33،
ص 181.
- الفصل الرابع والثلاثون: حسن ظن كاذب — الفصل 34،
ص 187.
- الفصل الخامس والثلاثون: سيففر الله لي — الفصل 35،
ص 192.

- الفصل السادس والثلاثون: سوف أتوب — الفصل 36،
ص197.
- الفصل السابع والثلاثون: الرخاء ليس شهادة — الفصل 37،
ص202.
- الفصل الثامن والثلاثون: اليأس بعد الذنب — الفصل 38،
ص207.
- الفصل التاسع والثلاثون: اليأس بعد الخسارة — الفصل 39،
ص212.
- الفصل الأربعون: رجاء المخلوق — الفصل 40، ص217.
- الفصل الحادي والأربعون: معرفة الغفور الرحيم — الفصل
41، ص223.
- الفصل الثاني والأربعون: مطالعة النعم — الفصل 42،
ص228.
- الفصل الثالث والأربعون: وعود القرآن — الفصل 43،
ص233.
- الفصل الرابع والأربعون: الدعاء — الفصل 44، ص238.
- الفصل الخامس والأربعون: التوبة — الفصل 45، ص243.

الفصل السادس والأربعون: العمل الصالح — الفصل 46،
ص248.

الفصل السابع والأربعون: صحبة الراجين العاملين — الفصل
47، ص253.

الفصل الثامن والأربعون: ذاكرة الفرج — الفصل 48،
ص258.

الفصل التاسع والأربعون: في الصلاة — الفصل 49، ص264.

الفصل الخمسون: بعد السقوط — الفصل 50، ص269.

الفصل الحادي والخمسون: في المرض والعلاج — الفصل
51، ص274.

الفصل الثاني والخمسون: في الدين والعمل — الفصل 52،
ص279.

الفصل الثالث والخمسون: في البيت والأبناء — الفصل 53،
ص285.

الفصل الرابع والخمسون: مع تأخر الإجابة — الفصل 54،
ص290.

الفصل الخامس والخمسون: بعد الفشل — الفصل 55،
ص295.

الفصل السادس والخمسون: وقت الأزمات العامة — الفصل 56، ص300.

الفصل السابع والخمسون: رجاء الرحمة — الفصل 57، ص306.

الفصل الثامن والخمسون: رجاء المغفرة — الفصل 58، ص311.

الفصل التاسع والخمسون: رجاء القبول — الفصل 59، ص316.

الفصل الستون: رجاء اللقاء — الفصل 60، ص321.

الفصل الحادي والستون: رجاء الثبات — الفصل 61، ص326.

الفصل الثاني والستون: رجاء الدنيا المشروع — الفصل 62، ص331.

الفصل الثالث والستون: رجاء الله لا مجرد العطية — الفصل 63، ص336.

الفصل الرابع والستون: بالله وحده — الفصل 64، ص341.

الفصل الخامس والستون: نشاط الطاعة — الفصل 65، ص347.

الفصل السادس والستون: حسن الظن — الفصل 66،
ص352.

الفصل السابع والستون: الصبر — الفصل 67، ص356.

الفصل الثامن والستون: الشجاعة — الفصل 68، ص361.

الفصل التاسع والستون: الرحمة بالناس — الفصل 69،
ص366.

الفصل السبعون: حسن الخاتمة — الفصل 70، ص371.

الفصل الحادي والسبعون: برنامج ثلاثين يومًا — الفصل 71،
ص376.

الفصل الثاني والسبعون: لا تقنطوا مرة أخرى — الفصل 72،
ص412.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

البخاري، محمد بن إسماعيل. الجامع الصحيح. الإحالات إلى الكتب والأبواب وأرقام الأحاديث.

مسلم بن الحجاج. الصحيح. الإحالات إلى الكتب والأبواب وأرقام الأحاديث.

الترمذي، محمد بن عيسى. الجامع الكبير. تحقيق بشار عواد معروف. دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، 1996م.

ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم. مجموع الفتاوى. جمع عبد الرحمن بن محمد بن قاسم وابنه محمد. مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، 1425هـ/2004م.

ابن قيم الجوزية. الداء والدواء. تحقيق محمد أجمل الإصلاحي، تخريج زائد بن أحمد النشيري. دار عالم الفوائد، الطبعة الأولى، 1429هـ.

ابن قيم الجوزية. مدارج السالكين في منازل السائرين، الجزء الثاني. تحقيق نبيل بن نصار السندي. دار عطاءات العلم ودار ابن حزم، الطبعة الثانية، 1441هـ/2019م.

خالد بن عثمان السبت. أعمال القلوب. دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، 1438هـ/2017م، الجزء الثاني، قسم الرجاء ص53-116.

خالد بن عثمان السبت. شرح رياض الصالحين، باب الرجاء. النصوص المكتوبة في موقعه الرسمي.

ابن كثير، إسماعيل بن عمر. تفسير القرآن العظيم. النص الإلكتروني؛ الإحالات إلى السورة والآية.

الطبري، محمد بن جرير. جامع البيان عن تأويل آي القرآن. النص الإلكتروني؛ الإحالات إلى السورة والآية.

السعدي، عبد الرحمن بن ناصر. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. النص الإلكتروني؛ الإحالات إلى السورة والآية.

النووي، يحيى بن شرف. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج. النص الإلكتروني؛ الإحالات إلى الكتاب والباب والحديث المشروح.

ابن حجر العسقلاني. فتح الباري بشرح صحيح البخاري. النص الإلكتروني؛ الإحالات إلى الكتاب والباب والحديث المشروح.

الألباني، محمد ناصر الدين. صحيح الترغيب والترهيب. الإحالة إلى رقم الحديث.

ابن قيم الجوزية. كتاب الروح. تحقيق محمد أجمل أيوب الإصلاحي، وتخرّيج أحاديث كمال بن محمد قالمي. دار عالم الفوائد، ص 692-693.

ابن باز، عبد العزيز بن عبد الله. الفتاوى والشروح المنشورة في موقعه الرسمي؛ بيان الرحمة المخلوقة وصفة الرحمة. الموسوعة الحديثية، الدرر السنية. النص الإلكتروني لأصول الحديث وأحكام المحدثين؛ الإحالة إلى الحديث 3540 في جامعهم ومصدر حكمهم.